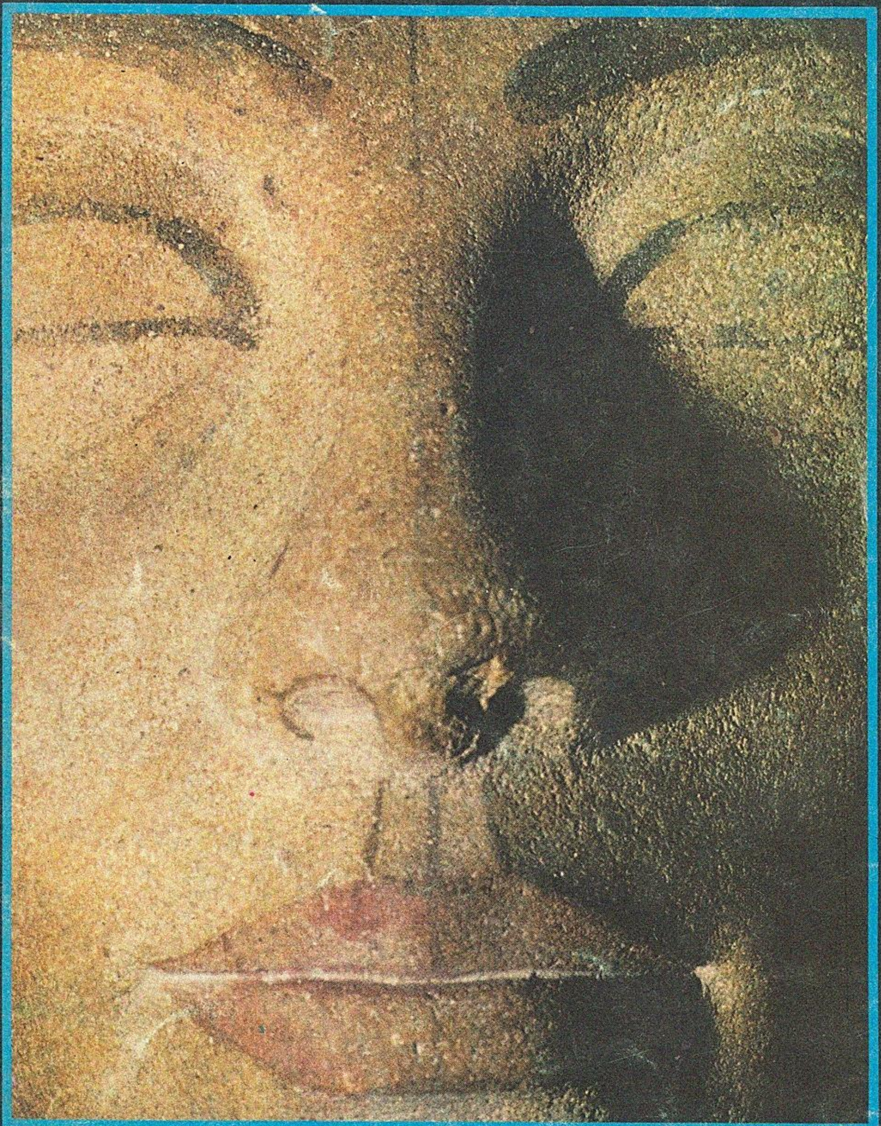
غالب هلسا

البكاء على الأطلال

رواية



دار ابن خلدون

البكاء على الأطلال

غالب هلسا

البكاء على الأطلال

(رواية)

دار ابن خلدون

دار ابن خلدون
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
بيروت هاتف ٣١٢٣٣٥
ص ب ١١٩٣٠٨

الطبعــة الاولــى
تشريــن الثانــي ـ نوفمبــر ١٩٨٠

كانى غداة البين يوم تحملوا   لدي سمرات الحي ناقف حنظل

★ ★ ★

وان شفائي عبرة مهراقة   فهل عند رسم دارس من معوّل
كد ابك من ام الحويرث قبلها   وجارتها ام الرباب بماسل
اذا قامتا تضوّع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

★ ★ ★

وواد كجوف العير قفر قطعته   به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى ان شاننا   قليل الغنى ان كنت لما تموّل
كلانا اذا ما نال شيئا افاته   ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل.

معلقة امرىء القيس

الجزء الأول

- ١ -

ايقاع المهبـــاش

كانت لوعــة تسربت في يديه .

على سطح الطرابيزة الخشبية الصغيرة ، البنية ـ السوداء ، (اللون البني لمعــة تنبثق من قتامة اللون الاسود) بارجلها العريضة ذات السطح المتموج ، اخذ يدق الايقاع . بقبضة يده اليمنى وباصابع يده اليسرى. تب. يدق بقبضة يده اليمنى. تك ت تك باصابع يده اليسرى .

تصحو الذكرى ، تتمطى ، تنؤ ، وتشتمله . تُب ، تُب ، تك تَ تك.

ايقاع قديم مكتَنف بعطر العود والمسك والبخور ينبعث من اثــواب النسـاء السابغــــة الضافيــة ، تلتــف حول اجساد قويـــة، مرغوبــة، اجساد لها حرمة اجساد الامهــات ، دونهــا تقف فوهات البنــادق، ولها نداء لا ينطفىء . وللايقاع ، عندمــا توغل في الذكرى ، عندمـــا تتلبسك الذكــرى كانهــا حالة انجذاب ، مذاق البن ونفحه القوي :

انكشف الغطاء عــن بئر الذكريات فهبت روائحها ، كمــا ينكشف الغطاء الخشبي البيضاوي الشكل عــن صندوق عطار . وتتخلله كلمــات القصيدة يئن معهــا لحن الربابة « يفــوح مــن صدره كما ريــح صندوق. ريحة عنبر من ديرة بنى ياس » . اصوات النساء منغومة ، ناعمة ، ثرية، مــن بعيد تأتي ، ودوي احاديث متداخلة : صهيل الخيول الاصيلة مقتضبا وهي تدق الارض باقدامهــا واقفــة في الحوش الواسع المسوّر ، وقرقرة

المياه في النارجيلة .

وفي الخلفية تقف آمنة . كانت ملثمة ، فارعة كانها انبثقت من الارض لتوها صاعدة الى اعلى ، ترقص ، محاطة بنصف دائرة من الراقصين والخنجر في يدها ترسم به دوائر في الفضاء .

تب .. ثم تك ، ت تك ... تمور اللوعة ، تلوب لاذعة احشاءه، تدعوه الى الانخراط والغوص ، دافعة به الى ماض يستحيل استعادته.

وهو خلال ذلك يلتزم بمظهر يطالبه به مضيفوه : الاب والام والطفلة ... ويضيف من عنده كلما استعاد المشهد صورة كلب لا وجود له .

الطفلة تطالعه بعينين سوداوين ، ناعمتين . في بياضهما لمسة من زرقة القيشاني (يتذكر ، والثلج يكسو الارض والسماء جهمة انه كان يرى الثلج تخالطه زرقة معتمة) . كانت واقفة ، تميل براسها على الكتف الايسر ميلا خفيفا ، في وجهها تعبير اصغاء وتساؤل جاد مهموم كأنها تسمع لاصوات قادمة من خلفها ، بعيدة ، منذرة بالكارثة . يداها مسبلتان الى جانبيها ، وفمها مفتوح قليلا .

كانت تقف تاركة الايقاع يتخللها .

اضطرب ذلك التكوين المضحك بجديته ، وانتفض جسدها اللدن الطازج واخذ يتمايل مع الايقاع . ثم انفلتت قدماها من اسارهما واخذت ترقص ، معلقة الى الايقاع بخيوط سائلة . اصبح الدق على سطح الطربيزة مسئولية : عبء ومبعث زهو . انه الان يمتح الذكرى متقصدا ليستعين بها على الاستمرار . ثم انفصلت يداه عنه ، اخذ يرقبهما كغريبتين عليه ، تبثان الايقاع بدينامية مبهمة ، مجهولة ، خاصة بهما .

تسارع الايقاع ، محاورا ، مبتعثا صور الماضي البعيد . اصبح قديما قدما مضنيا فانمحت الشخوص واصبحت الذكرى مجرد مساحات من الارض البيضاء المشمسة . اسرعت الراقصة ، اصبحت بلا خصائص . تدورت عيناها واتسعتا ، التمعتا بضوء اسود رقراق ، حاض بعينيها كالدموع . ارتفعت امام عينيه صورة اشعة شمس الغروب البارد ،متسللة من الشبابيك الغربية العالية لجامع قلاوون ــ جواهر خضراء مائعة، تنسكب ، القطع الزجاجية الحمراء تشتعل باحتراق داخلي وتضع بصمة نارية ــ يكاد يحس لسعها ــ على جزء من عمود النحاس الاصفر.

(قال لنفسه ساعتها : هذا هو اللون الاخضر الحقيقي . لم يعد له

وجـود الآن ، امـا هذه الالوان التي تقابلنـا في كل مكـان متربـة ، ناصلـة ...) .

يداه اللتان تدقان معلقتان بجسـد الطفلة التي تسارع ايقاعهـا . اليدان مأموران ، وقـد اصبـح داخله مصمتا ، قابضـا علـى الانفعال المتاع ، ومنشغـلا عنه . يبدو وجه ، له وضوح ابيض وسط العتمة ، يظل معلقا ، منتظرا ان يخلو اليـه .

الام تطالع الطفلة وهي ترقص ، عيناها تومضان بنور الضحك ، تلمع بيـن شفتيهـا المكتنزيـن اسنان برّاقة البياض . يضاد ذلـك وجـه رصين ، محتشم . خطفـة ابتسامة تنفجر ، تمـد الام يدا جميلة،اصابع افريقيـة طويلة ، لدنة ، انيقـة الاظافـر ، فتمحو البسمة كانها تزيـل بقايـا طعام . تتنهد ، يصبح وجهها مكدودا ،ابتعدت . عيناها على الطفلة، الآن ، بنظـرة غائبة . احس هـو بها متعاليـة عليهم ، فذلك التعبيـر المهموم ينبثق من جذور الياس الناتج عـن اكتشـاف عبثيـة الوجود في الكـون .

كان الاب يتفرس بالطفلة بعينين واسعتين جدا ، تطل منهمـا نظـرة تقية ، قاتمة ، تجعله بحق يسود المراة التي تجاوره . فمه محكم الاغلاق بتهذيب جم ، ووجهه اسمر ، اسمر ، وكبير ، وخشـن ، فيه قـوة كامنة ، مؤجلـة . نبي عبراني يطالع المارقيـن بغضب صاعق لانهم خيّبوا توقع يهوه ، يغذّي جموحه ضيق افق لا شفاء منه .

طعنـة حادة كوميض البرق اندفعت من الماضي واخترقت اللحظة، ثم اختفت . اختلج بهـا قلبه فاوجعته . وجه امه اطل مـن زاويـة الحجرة الخارجيـة واخذت تعبر الحـوش مقتربـة ، عيناها محتجبتـان بتجهـم الوجه لان ضـوء الشمس كان يسقط فيهمـا ، والفتـاة قريبـة منه ، تكـاد تكـون ملتصقـة بـه ، عندمـا تلتفت اليه يتلامس الجسدان. الايقاع يبطيء ويزداد عمقـا . انفصـلا في ذعـر ، وضاعت الفرصـة . « مـاذا كان علي ان افعل ؟ » . اخذ راس الطفلة يتمايل مع الرقص ،ومضى الايقاع « بيـاع .. بياع البيارق طل، طل ، بياع البيارق طل ..» وابله القريـة يومىء براسه ويوقّع بقدميه : « بياع البيارق طل » ، ويرتفع وجه آمنـة ، ويتجمـد كل شـيء .

لمس الجسد القوي نشوة دائمة،تحضره الآن (مـع التفاتتها اليـه يضغط الثدي اللدن على كتفه ـ معهـن لا تعلم ابدا اذا كـان ذلك مصادفة أم متعمـدا) . الخجل جعل الذكـرى حادة الحضور . يود ان ينساهـا

ولكـن تلك الفرصة التي ضاعت ظلت معه . ما لا يتحقق يعيش في داخلنا.
تولته رغبة مفاجئة ـ كاللهفـة ـ بالكلام . انمحت الذكرى . اوقف الرغبة بجسم ومضى يدق سطـح الطرابيزة الخشبية ، ولكن خللا مـا تسرب الى الايقاع ، احس به قبل ان يستطيع تداركه . انهت الطفلـة رقصتهـا ، ووقفت مستقيمة ، مدوّرة ، تطالعه بعينين كأنهمـا بليتان ، يغلفهمـا غشاء مبلول لامع يحد من اتسـاع بياضهمـا . « مـا انت ؟ » قالت العينـان .
ربكـة وخجل يعتريانه من نظرتها الصريحـة ، العارفة . يعزم ان يذكـر الطفلـة انهـا صغيرة فيواصل الدق محاولا ان يستعيـد عالمـا باكمله قـد ضاع منه عندمـا استولت عليه الرغبة في الكلام . مال راس الطفلـة ميـلا خفيفا الى اليميـن ، تملته بتلـك النظرة النافذة المستنكرة التي لا تعرف الخجل وتعلو على المواضعات الاجتماعية . قالتالعينان :
« ما الذي جاء بـه ؟ »
اوجعه ذلك ، فقـد كـاد ان يعتقـد انه كسب صداقتها .استنجد بالاب والام . كانا لا يريانه . احتمى بالايقاع . ثم اتجهت اليه الطفلة ، اسرعت نحوه ، قدماهـا تلعقان السجادة بتثال حلو . تراءى لـه ان شيئا غريبـا سوف يحدث ، لـم يحدث مـن قبل قط ، فخاف . هذه الطفلة الرعب. توقفت امام الطرابيزة، احنت جسدهـا ومدت يديهـا الاثنتيـن. حـاولت ان تمسك بهما الفراغ ، ثم امسكت بيديه اللتيـن لم تتوقفا عن الـدق ، اوقفتهمـا عـن الحركـة محاولة ان تقبض على الايقاع . نظرت الـى وجهه مندهشة ثم استدارت مبتعدة .
عينا الاب كبيرتان بالدهشة وقتامة الانزعاج . يضم شفتيه معلنا حياده ترفعـا عـن امثال هذه السفاسف . الام تحني راسهـا الى الامام ويقترب كتفاهـا ، تتفحص الطفلة بعيني قصار النظـر وجفناها يرتعشان، وقد انحشرت شفتهـا السفلى بيـن اسنانهـا . بدت وكأنهـا تريـد ان تتأكـد ان هذه هي ابنتهـا بالفعل . توقع هـو ان تمد الام يدهـا وتلمس الطفلة لتخرجهـا من دائرة الاستحالة ، ولكنهـا اكتفت بمتابعتها بعينيـن متقلصتين ، مدققتيـن كأن الطفلـة ادق من ان ترى بالنظـرة العاديـة. وهـو يعانـي زهـوا خجـلا ، وقـد تقمصه حذر دفاعي كأنما اركـب بذاءة مـا ـ ملمس الطفلة الليّن المبلول واستجابات جسدهـا السريعـة الطيّعـة كانت ، لسبب مـا ، لهـا وقع الفضيحـة . « هل يشكّون ؟ » وعلى الفور تساءل منزعجا : « يشكّون بماذا ؟ »

ثم ... الطفلة بين يدي الام كقطرة الزئبق ، يستحيل الامساك بها واكتنافها في وضع . تحصرها الام بين فخذيها وتقول :

« اهدي يا قرده » .

وهي مكروبة بمصارعةهذا الشيطان القزم ـ الطفلة سرقت البراءة من وجه الام ، فاصبح مجرد وجه ام : رصينا ، تعسا . ثم هدأت حركة الام وامسكت بالطفلة بين يديها وقالت :

« شايف كوثر حلوة قد ايه يا عمو ! »

والقت بها في حضنه : كتلة ليّنة من العنف تتوفز وتنزو . حاول ان يجعلها تجلس ، ولكنها انفلتت : تمطي جسدها وامتد كأنها زمبلك ، ثم غرست قدميها في احشائه واخذت تقفز صعودا وهبوطا، صعودا وهبوطا .

شعر بالارهاق .

★ ★ ★

تورّد وجه الام بالمجهود ، اقترب الحاجبان الرفيعان ، واخذت تعض شفتها السفلى . اصبح وجهها صارما ، منذرا بالعنف . تلين تقاطيعه وهي تتفحص الطفلة ، تبدو راضية ، تتنفس بعمق ثم تواصل الباس الطفلة باستغراق كامل . يفكر هو ان يدخل الحمام ، يكنّ الى رطوبة معتمة بعض الوقت يستعيد به توازنه ، ويكسر طوق الصمت المتوتر ولكن الاب يبدأ حديثا ، يسأله ان كان بامكان العرب ان يحاربوا ؟ يفتش في داخله عن اجابة قاطعة فلا يجد . يتلجلج ، فيواصل الاب ، عندما رآه لا يرد ، قائلا انه يبدو ان نيكسون رجل عاقل ، او ربما اصبح عاقلا بسبب فيتنام ، وكذلك وزيره كيسنجر . لا بد من ابداء راي ، يقول لنفسه ، فيقول : لقد سألت هل سوف يحارب العرب؟ هل بامكانهم ان يحاربوا ؟ ليست المسألة مسألة امكانية ، بل هم مرغمون على ان يحاربوا . وهو يشعر انه كان قادرا ان يدلي براي مناقض تماما بنفس الحسم والثقة وعلى نفس المستوى من عدم الاقتناع . يرى ان الاب ما زال ينظر اليه ، منتظرا منه ان يواصل . فقال انه بالطبع ، في السياسة كما في اي شيء آخر قد تحدث امور غير متوقعة، الدول الكبرى مثلا ..

وتوقف عندما صمت الاب جاذبا شفتيه الى الداخل ، وجهه يقول: « لقد حاولت وهاكم النتيجة ! » . يقدر هو ان الاب صمت غاضبا فقد

ساله عن رايه ولم يكد يقول شيئا . يقول مداريا : « يعني ، طبعا، يمكن برضه البترول العربي .. » . الفم يزداد انطباقا والعينان جاحظتان بالترقب ، تقولان : « استمر » . ثم يتنبه الى ان الجملة ناقصة « يمكن البترول العربي .. » ثم ماذا ؟

ركنا الى الصمت . البست الام الطفلة فستانا ابيض له بريق في الضوء المعتم . كان مطبوعا عليه اشكال ارانب زرقاء ذات انوف صفراء وميكاوماوسات زرقاء وحمراء باذرع ممتدة بلا كفوف ، تتماس مع الاذرع المبتورة قطوف فاكهة ذات ثمار حمراء مدورة ، لامعة ،انفلتت منها ثمرة كاملة الاستدارة ، لامعة ، غامقة الحمرة ، ووقفت وحدها في مساحة بيضاء . وفي طرف الثوب ارنب مبتور بسبب ثنية الثوب.

ثم راحت الام تكابد لادخال الطفلة في بنطلون نبيذي ، وعندما نجحت في ذلك برز للطفلة كرش . اوقفتها على الارض ووضعت شريطا احمر ناريا في شعرها اضفى عليها لمسة انثوية اخرجتها من حياد الطفولة المتارجح بين الجنسين ، والبستها حذاء من القطيفة الحمراء له زيق من الجلد الاسود .

بدأ الام تعيدان صياغة الطفلة ، وعندما انتهت كانت قد صنعت منها طفلة حمراء .

حملتها بين يديها ، ثم اجلستها على حجرها واخذت تضع اللمسات الاخيرة : تعدل شريط الشعر تسوّي ياقة الفستان ، ثم مرت باطراف اصابعها على وجنتي الطفلة اللامعتين كانهما مدهونتان بورنيش . رفعتها بين يديها الى مستوى النظر ، تملتها بوجد ، ثم اومضت عيناها بضحكات مشعة ،ومدت ذراعيها والقت بالطفلة في حجره :

« شايف كوثر حلوة قد ايه يا عموه ؟»

كانت مزهوة وكان ذلك من حقها . لقد حققت انجازا مدهشا .

حاول ان يجلس الطفلة ، ولكن جسدها اندفع كالوتر. كان وجهها ثقيلا مصمما ، فيه لمسة غير محددة من وجه الاب . غرست قدميها في احشائه واخذت تصعد وتهبط ، تصعد وتهبط : قطعة من المطاط الثقيل المرن، عنف هلامي، سائل ، متماسك يصطدم بالجزء الاسفل من بطنه في ايقاع موقوت ، دائب .

انتظمت قفزات الطفلة في ايقاع دقات المهباش .

فكر ان ذلك لن ينتهي ابدا . حاول ان يجعلها تقفز فوق ساقيه ،

ولكنهـا بضراوة فهـد مفترس كانت تدفع بجسدهـا الى الامـام وتستعيد موقعهـا على الفـور . ويمضي ذلـك ، فيمـا بدا له ، بلا امل فـي الانتهاء .

للحظـة فكـران يستغيـث .

اي شيطـان دفعوا به اليـه !

اكتشف في حمى عذابه ان الطفلة قد توقفت عن الرقص . لم يرحه ذلـك كثيرا . رفعت عيناها الى السقف . كانتا تتضرعان .

ايـة رؤيـا تعاينها !

عيناها شاخصتان بجمال اخـّاذ ، لمحـة من جنـة الرائي ، حلم نبي ، تبد ت له ــ ينسل من الشارع المزدحم بالعربات ، والحمير ، والباعة ، وجوه يغطيهـا الغبار ، وفي الجـو ينتشر عادم العربيـات ودخان السولار نفاذا خانقـا . عالم مـن الصخب والهوج ، يظله تهديد بالكارثة والعنف المتوقع . يسرع مبتعـدا والم حـاد فـي انفه (قطرة مضادة للحساسية ، تلـوّث البيئة) يدخل جامع قلاوون (التذاكـر هنـا ... خمسة صاغ ، لـم تذكرة مـن الورق المسوّد) ممر طويل ، شاهق الارتفاع يمتد امامه ، على يساره باب ، وفسحـة مشمسة ما زال يجري ترميمهـا . يدخل من باب على اليمين . ينغمس في حلكـة رطبة ، لهمـا ملمس . يتحسس خطواته في الظلام ، متفاديـا توقعـا ان يصطدم باحد الاعمدة . يواصل سيـره المتمهل مترقبا ان تعتاد عيناه الظلمة ، يومض شيء ويختفي من مجـال الرؤيـة . مرافقه يتقدمه ، يدعوه الى التقدم ، يدوي بحديث لا يحب سماعه . تثقل عليه الظلمة دون امل بالفرج ، لم فجاة ، في منتصف انحناءة القبة يـرى شباكـا من الزجاج المعشّق تتلالا اضواؤه الملونـة ببهجـة انقبض لهـا قلبه ــ . ما زالت الطفلـة شاخصـة الى السقف . احب وجهها آنذاك الى درجـة الالم ، الى حدود اللوعـة والوجد . كـان وجهـا كوجوه الملائكـة في لوحات رافائيل ، كوجه المسيح في لوحـة رسام ايطالي نسي اسمه ، عيناه مبرحتان بالالم ، واكليل الشوك فوق راسه وهو يخاطب اباه الذي في السماوات من فوق الصليب صارخـا : « ايلي ، ايلي لما شقبتني ؟ » والتي معناهـا : « آلهي ، آلهي ، لم هجرتني ؟ » . كـان وجه اتجريد برجمـان ، مرتدية ثيـاب الراهبة ، وهي تركـع امـام الصليب ، رافعـة عينيهـا ، تتضرع الى صاحب الوجه المتقلص بالالم ، بالمساميـر المدقوقة في يديه وقدميه .

عالم مسحور ينفتح امامه : مسقط الضوء في احـد جوامع الفورية

ناعمـا بلوريا ، انباء بعالم الصفاء يتجلى للرائي في حالة الوجد . والطفلة تقف ناظـرة الى اعلى كانمـا تضرع للسقف وترجوه ، بعينين فيهما ذلك الجمال المجرد مـن لوثة الرغبة ومن تعبيرات الواقع اليومي ، جمال يشبه الغـروب او حقل زهور . عندهـا شعـر بذلـك السائل الدافىء يتخلل بنطلونه ، ينساب الى بطنه ، ثم يهبط عبر فخذيه . بدا ذلـك متداخلا في اللحظـة ، منبثقـا منها ، كأنه امتداد كمـا تكـون العملية الجنسيـة امتداد للمداعبات السابقـة عليهـا ، والطفلة ما تزال في تلـك الحال من الانجذاب الصوفي ، تصغي الى الحان غيـر مسموعة ، ووجهها الملائكـي يقـول :« لست مـن هذا العالم » .

امسك بالطفلة من تحت ابطيها ، رفعها برفق وحذر ، فارتفعـت متماسكـة كأنها قطعـة طوب ، ثم وضعهـا على الارض . قطرات السائل تتساقط من قاعدة بنطلونها نقاطـا بيضاء شفافـة الى السجادة التـي تمتصهـا على الفور وتخفيهـا في لبدة وبرتهـا الكثيفـة ، ولون قاتم ، يكـاد يكـون اسود ،يزحف ببطء ، وينتشر عبر ساقيهـا المتباعدتيـن راسمـا قوسـا مكسـور القمة ، طرفـاه ينتهيـان حيث يلتف البنطلون حـول كاحليهـا .

خطت خطوة ثم توقفت ، مباعدة ما بيـن ساقيهـا ، احنت راسها الى اقصى ما تستطيع وراحت بوجه وقور جليل تعايـن هذا الواقـع الارضي الذي يهطل من بنطلونهـا الى السجادة ، ولسان حالهـا يقول : « هذا العالـم السفلي له متطلباته ايضـا » . امسكت الام بيدهـا وجذبتها اليها عندمـا تخيلت ان الطفلـة كانت على وشك الهبوط على الارض . بجسد متصلب طاوعت الطفلـة يـد الام التي تجذبهـا ، والام تقول :

« كوثر وحشه ، كده ، كده ! بلتيني عموه ، وحشه ! »

كان تقطيب وجه الام المبالـغ فيه محاولة منهـا ان تكتم ضحكها . تمسح الضحك عـن فمهـا وتنشغل بكوثر المستسلمة ، غيـر المفهومة. الاب يطالع الطفلة بنظرة قاتمة ورعة . اسبل جفنيه : لا يريـد ان يـرى ، ووجهه يقول وقد قلب شفتـه السفلى : « هذا شاهـد حقيقي على فساد هـذا العالـم » . ومثل نبـي يستعـد ليحيل عالم الاحياء الى مـلح ونـار مد ذراعه في حركـة مسرحيـة متقنة وقال :

« اقلع البنطلون خلي سلمى تغسله » .

ثم التفت الى زوجتـه وقال :

« طلّعي البيجاما وحطيهـا له في الحمام » .

ثم عاود سكونه الثقيل ، الصمت ـ رسوخ شرس مخيف ـ يطوي في داخله ذلـك الهول الناري الرهيب استعدادا للحظة المناسبة .

كانت الام تضرب كوثر على يديهـا ، ضربا اشبه بالمداعبة ، وهـي تحاول ان تنزع ذلـك البنطلون ، شاهد الجريمة :

« وحشة كوثر . كده ؟ كده ؟ » .

وهي تجاهد ان تكتم الضحك وتعد نفسها لتقمص حالـة غضب حقيقي ، وجسد الطفلة يتمرد ويستعصي ، والام تقول :

« يا شيخـة »

وتواصل . ثم رفعت وجهها نحو الاب ويداها مشغولتان وقالت :

« دقيقـة بس » .

راى نفسه يرتدي البيجاما ، ملمسها على جسده بـذيء ، بارد ، جاف ، اجزاء جسده تتماس في داخلهـا بحريـة ـ اشبه بان تكـون عريانـا في السرير ، ملتفـا بالملايـات ، وقـد انتهى كل شيء والصمت يحيط بك عـدا صوت المراة وهي تتحرك في داخل الحمام بدبيب خافت، تتخلله حركات مبهمـة ، ثم صوت اندفاع الميـاه يستمر مدويـا للحظات ثم يتحوّل الى هديـر رتيب ، وانـت تود ان تنام ، تنعم بملامسة جسدك وحيدا « لو تتاخـر قليـلا في الحمام ، ترجو ... وتذكـر فجاة وهـو يمـر بيـن جمـع النساء ليصل الى امه وياخذ منهـا المفتاح ، وتمد المراة الشابة يدهـا وتجذب بنطلون البيجامـا الى اسفل ، معرّية اياه امـام جمعهن . عاصفـة من الضحك تضج حوله ، وقد منعه الارتباك حتى من ان يعيـد بنطلون البيجامة الى موضعه . قالت الشابة : « انظرن ، ها هو قد اصبح رجلا » وصاحت امراة اخرى متظاهرة بالغضب : « هل اعجبك الوقوف بينا وانت هكذا ؟ هيـا امضي » .

وظل واقفـا هكذا بينهـن عاري المجيزة ، عاجزا عـن الحركة. « سوف اقطعهـا لك » قالت امراة ، وعندمـا حاول ان يبتعـد تعثـر وسقط .

نهضت الام وابعدت الطفلة عنهـا . ثم استدارت ومضت في اتجـاه الداخل ، ناداهـا ان لا ، لا ، ارجـوك .. لا داعي لذلك ، هذا لا شـيء على الاطلاق . شيء مـا في صوته ، اشبه بالاستغاثة ، جعل الام تتوقف وتنظـر اليه مـن فوق كتفها متسائلة . قـال لها ان هـذا لا شـيء، فالسائل سوف يجف من تلقاء نفسه ، وذلـك لن يستغرق الا ثواني قليلة. قال الاب عليه الا يخجل ، فهذا بيته . قال ان هذا بالضبط مـا دعاه الى المجـيء .

تنهدت الام بعمق وواجهته محتارة . ثم خطت بتردد وجلست على كرسيها . قال للام ان ذلك يحدث كثيرا ، وان السائل سوق يجف ، ورجاها الا تضرب الطفلة قائلا انها مجرد طفلة لطيفة . قطبت الام جبينها ولم ترد . فكر انها قد تبكي ، وبدا ذلك له معقولا، بل يكاد مطلوبا . يبدو انها لم تستطع ان تصبر اكثر من ذلك فانفجرت بالضحك ، تضحك وتضحك ، وكتفاها يرتعشان كانها مصابة بحمى . اخذت دموعها تسيل على جانبي انفها مسودة بالكحل .

عينا الاب المسبلتان شهقتا ، مالتا الى اليمين ، ثم ارتفعتا الى الام محدقتين ، متسائلتين . كاد ان يخون قضيته ويبتسم ، ولكنه بقدرة فذة عاود العبوس المتعالي ، يطالع الام بتساؤل كانه ينتظر منها ردا على سؤال القاه .

شعر هو بالسائل يواصل انسيابه البطيء في بطنه ، يزحف الى طرف القميص وقد تحوّل الى منطقة باردة الى حد التثليج، فاجرة كانها يد تداعب اجزاءه الحساسة ،وهذا الضحك يكاد يجعله يفقد كل اتزان . كانت الطفلة تحدق في وجه الام محاولة أن تلمسه ، والام انحنت وهي ما تزال تضحك بضراوة ، ولا تستطيع التوقف وقالت للاب :

« اصله بيقول السائل » .

ارتدت الى الخلف وتصاعد ضحكها .امسكت الطفلة بيد الام ونادتها . جذبت الام يدها وهي ماضية في الضحك .

★ ★ ★

كان الايقاع في داخله وهو في الاتوبيس يحيل جميع الاصوات والحركات الى تناغم يندرج في نسيجه ، وكان الايقاع في داخله وهو يهبط من الاتوبيس ، وهو يسير ـ في وقدة الظهيرة ـ بحذاء حديقة تمد اغصانها من فوق السور ، وهو يتخلل ويتخيل ما وراء سياج الاشجار. كان الايقاع ينظم وقع خطواته وهو يجتاز الشارع الى الرصيف الاخر.

الايقاع وضع المنظورات في سياق جديد ، سحب عليها احساسا مفتقدا ، عتيقا بالالفة مع الاشياء . عيناه تغتذيان بالازهار الحمراء تشتعل وسط خضرة الشجر ، بثمار البرتقال تومض بوهج فسفوري خلال الاوراق الداكنة الخضرة ، بفتاة تسير امامه بملابس رقيقة ، مختزلة ، ساقاها الطويلتان بلون العسل ، ممتلئتان ومتسقتان، تنبثان بانوثة مبكرة،

بعشاق كثيرين قادمين ، مخلفة وراءها حسرة . العالم يدخل في سياق قديم ، يصبح مفهوما . والايقاع ماض لا يتوقف . تب. ت تك، ثم يعود من جديد .

كان الايقاع في اصابعه وهو يدق جرس الباب .

دقة طويلة واثنتان قصيرتان . سمع صدى دقات الجرس في الشقة المغلقة . كانت الطفلة تموء خلف الباب وتخبط خشبه المفرغ بيديها (كانت الطفلة تقول شيئا مثل : بوس هنا ، با ، ما) . اعاد الدق ــ كانت دقات خائفة ،معتذرة ــ فلمس الجرس لمسات خفيفة ، سمع صوتها في الداخل مختنقا . ثم سمع صوت الام قادمة تقول كلاما لم يستطع تبينه، ثم تبعد الطفلة وهي تقول شاكية انها تتعثر بها اينما سارت ،والطفلة تقول : « باب » ، ثم انفتح الباب ، والام وراءه ، تمد رأسها نحوه، عيناها متسائلتان بضيق ، ثم فجاة قالت :

« مش معقول ! »

ووجهها يضيء بالبشر . قالت : « اخيرا ! » . قال بل ان ذلك معقول تماما وهو يضحك بلا مرح . كان يود ان ينتهي بسرعة .

قالت وهي تشد الباب وتفتحه على سعته داعية اياه الى الدخول ، مبعدة الطفلة :

« تصور ، عرفت انه جرسك »

ثم تحفظت : « يعني ما كنتش متاكدة »

قال ها هو قد اتى .

كانت تلك تكتة ، وكانت ايضا استعجالا لمراسم الاستقبال . الرائحة المميزة في الداخل تحتويه وتوقف الايقاع ــ تؤجله ولا تلغيه . عتمة في الصالة يؤكدها سيف من ضوء النهار الابيض يقف محشورا، مجمدا في فتحة طولية بين دفتي الشيش . يتوقف ، وعيناه تعتادان الضوء الشحيح الاسمر بسرعة، فيشاهد بيتا يستدعي احداثا قديمة ، يستدعي عالما باكمله قد انتهى .

★ ★ ★

دار في الحجرة والام تساير خطواته وهي تقول ان شيئا فيها لم يتغير . ثم استأذنته الام قليلا .

جدران لونها عاجي مدهونة بالزيت . على الجدار صورة لرمبرانت (صورة الفنان) واخرى لفان دايك (صورة امرأة) .

المساحة من الجدار التي تفصل بين اللوحتين تبدو زاهية وسط كثافتهما السوداء . يعلم انه بعد تأمل طويل سوف تخرج من قتامة لوحة رمبرانت التفاصيل متوالية الواحدة بعد الاخرى الى ان ينحل السواد في درجات لونية وتجسيدات لا اسم لها . فازات فخارية رقيقة، لها سطح لامع جنزاري اللون وبني واخضر فاتح ، موضوعة على قاعدة خشبية سوداء مثبتة على الحائط . لوحة الموناليزا في اطار خشبي دقيق موضوعة بين اللوحتين يلامس اعلاها اسفل اللوحتين .

هنالك ايضا مساهمة الاب في تزيين الحجرة . صورة زيتية هائلة الحجم . يحتويها اطار كلاسيكي ذو بروزات وانحناءات فظة ثقيلة ، مطلي بالذهب . على زواياه الاربع حفرت ورود خضراء بتفاصيل كثيرة تمتد سوقها في جسد الاطار . اللوحة لغابة اوروبية ذات اشجار ضخمة ، اوراقها ذات خضرة صارخة ، وجذوعها حمراء غليظة . على اليمين كوخ ، سقفه على شكل مثلث ، تبرز من بابه امرأة سمينة تلبس ايشارب ازرق وتمد رأسها في اتجاه الجبال . بين الاشجار بضع بقرات تضع رؤوسها في الارض ، مما يفترض انها تأكل الحشيش . وهنالك رجال يرتدون قمصانا حمراء وقبعات ذات حواف عريضة . ومن الصعب على المشاهد ان يعرف ماذا يفعلون بالضبط في هذا المكان. يخترق الغابة نهر ازرق على سطحه بعض لمسات بيضاء يبدو ان المقصود منها ان تكون زبدا . على شاطئيه ثلج على شكل اكوام مستطيلة . وفي أعلى الصورة جبال زرقاء ، متقنة الصنع (المثل الافلاطونية للجبال دون شك) . لمسات بيضاء منزلقة قليلا من قمم الجبال تعني الثلج . وهنالك ثلج في وهاد في منتصف احد الجبال . وفي الجزء الاعلى من اللوحة سماء ناصعة الزرقة ، تخللتها ثلاث كتل بيضاء كأنها قطع من القطن الطبي تشير الى الغيوم .

كان زهو الاب بهذه اللوحة (يحكي كيف اشتراها فيقول كان مجرد صدفة، قرأ لوحة امام فيلا مكتوب عليها (مزاد) فدخل . هو الذي منع الزوجة ان تقترح نقلها الى حجرة اخرى .

ولكن الزوجة جاهدت بضراوة ، ووقف هو بجانبها (١)، ونجحت

---

(١) قال هو للاب : « هنالك شيء اسمه الانسجام . الصور الفوتوغرافية لا تنسجم مع اللوحات الزيتية رغم ان كل واحدة منها قد تكون جميلة بحد ذاتها » . قال ذلك بحياد فاقتنع الاب .

في منع الاب من تعليق صورة فوتوغرافية كبيرة الحجم لابيه . كان الاب في الصورة سمينا، صاعق النظرة، له شارب كث اسود، يلبس طربوشا ويمسك بعصا، ولكثافة شاربه كان يبدو فمه مكونا من الشفةالسفلىالبارزة فقط . ويعلو على كل شيء الانف الكبير الذي يكاد يبدو وجها آخر صغيرا الصق بالوجه الكبير. ووافق الاب على طلب الزوجة باشمئزاز وتعال وباقل قدر من النقاش . ثم نشات معركة صغيرة انهزمت فيها الزوجة . كانت قد اعترضت على وضع الصورة في حجرة النوم . قالت انها تخاف منها عندما تكون وحيدة في الليل ، وانها تشعر بالخوف ايضا عندما تكون الصورة اول شيء تراه في الصباح . ولكن الاب حسم المسالة عندما قال :

دلع ستات .

اما هو فلم يتدخل في المعركة ــ ماذا كان بامكانه ان يقول ؟ واستسلمت الزوجة في وداعة .

انبثق الاب من شق الستارة التي تفصل الصالون عن الحجرات الداخلية وقال انه كان قد قرر الا يصافحه ، لماذا لا يسال ؟ قال الاب ايضا انه كاد يعتقد ان شيئا ما حدث له ولكنه اطمان عندما مر ببيته ولم يجد احدا . قال هو انهم الضيوف واناس من البلد .. فقال الاب : ضيوف ام شيء آخر ؟ لقد آن الاوان لتتزوج . ثم دخلت الطفلة وامسكت بساق الاب واخذت تنظر في وجهه . ابعدها الاب عنه وسار وجلس والطفلة تسرع خلفه . جلس هو على الكنبة الاسطمبولي ووقفت الطفلة تتامله . مرت فترة صمت انطلق فيها الايقاع من عقاله. التفت الابه الى الخلف فاصبح هو في مواجهة الطفلة ، عيناها في عينيه. احس بالحرج وببعض الغضب « براءة الطفولة .. فليذهب الاطفال الى الجحيم ..! » ثم غلبه الايقاع ، كانت الطرابيزة الخشبية البنية ــ السوداء على يساره ، وعلى الفور ، وعيناه على الطفلة اخذ يدق الايقاع . كانت لوعة الذكرى تعصر قلبه .

مدت الام راسها من شق الستارة ــ راس مقطوع معلق في الفضاء ــ وقالت :

« بتشرب شاي ؟ »

قال :

« مش دولوقتي »

ومضى يدق الايقاع .

– ٢ –

اغنيـــة العبيـــط

رائحة البن قويـة ، نافذة ، تعبق بهـا الدار الواسعة ، لتشيـع في الحوش وفي الرواق القبلي حيث تهدر النار والنساء يعددن الطعـام . رائحته نداء للمارة في الطرقات ـ يسمعـون دقة المهباش ويتنسمون رائحة البـن فينعطفـون من الشارع ويدخـلون من البوابة الكبيرة الى الديوان. رائحة الحبق والقرفـة والبخور في اجساد النساء مختلطة بخصوبة العرق والعافيـة : بطاقـات دعوة للعرس ، غوايـة للعزاب . يحلمون حتـى الجنـون بليلة يختلون فيهـا مـع فتاة بكـر ، رائحة التنباك المعطر فـي النراجيل المكركرة ، بزجاجهـا الموشى باشكـال ذهبيـة اللون ، ينعقـد دخانهـا في السقف ازرق خاملا ، رائحـة المر واللبان تفوح من الصناديق العتيقـة ، رائحـة العرق والملح حادة تديـر الراس تنبعث من الخيـول القلقـة ترفع راسهـا باعتزاز تصغي للحركـة فـي باطـن الارض ، للعواصف تتجمع في اماكـن بعيدة .. روائح يشتملهـا الايقاع ويبثها .

المهباش ينفذ في الجرن الخشبي يطحـن حبات البن المحمصة ويخلق من حوله ، في الجـو ، منطقـة كثيفـة من زيت البن الطيّار (١) . دقة

---

(١) في القرية يقولون ان البـن كـان يعرق عندمـا يوضع في المحمصة . اما في هـذه الايام فالبن ككل شيء فقـد الخجل ولم يعـد ينضح بالعرق .

المهباش في العمق ، ثقيلة مكتومة ، تمتـد في الارض فتحدث اهتزازا خفيفـا يحس به الجالسون في الديوان ، ثم دقتان خفيفتان ، سريعتان ، في الجانبيـن ، تتوالى ذبذباتهمـا التي تصطدم بصفائح الماء فتحـدث موجات سريعـة خفيفـة على سطح الماء وازيزا خافتا تبتلعه الدقـة المكتومة ، التـي يهتز بهـا الكوز النحاسي الموضوع فوق غطاء الزير .

الجرن : مسخ افريقي ، مرقش . سطحه الاعلى دائرة واسعـة في وسطهـا فتحـة ضيقة ينفذ منها المهباش . يضمر الجـرن في هبوطـه الى اسفل كضمور العنق تحت الراس، ثم يعـود ليتمدد وينتفخ كبطـن الحبلى . عندمـا ينتهي خط القوس يضمر الجرن مرة اخرى ليشكـل خصرا حادا، ينفلت بعد ذلك ليكون قاعدة عريضة راسخة .

سطحه موشى بارابيسك معقد ، خال من الرشاقة ، مـن قطـع الابنوس السوداء على شكل مربعات ، ومثلثات من الخشب البني المطفـا اللمعـة ، وقطع صدفيـة على شكل معيـن منحرف . يذكـر ان احـدى القطع الصدفيـة كانت مكسورة ، وكانت تشع عندمـا يسقط عليهـا الضوء . اعتقـد وهـو صغير ان ذلـك مقصود وكـان يبحث عـن تلـك القطعـة المكسورة المشعـة في كل جرن يراه .

كانت خطوط الارابيسك تتداخل وتنفرج ، ثم تتلوى وتتوه فـي تعقيدات فجة ، ثم تعـود مرة اخرى مشكلة دوائر ناقصة ومستطيلات لا تكتمل . والمهباش الذي يعبر مـن فتحـة الجرن ويطحـن حبات البن كان عصا بنية ــ سوداء ، مرقشة كانهـا افعى تلتمع عيونهـا الالـف بمـرح شرير . تقفز فـي يـد الضارب ، وتهوى مستقيمة ، فتصدر منهـا الدقـة الثقيلة المكتومة ، ثم تتمايل بعبث شمالا ويمينا تنحني للجالسين، ثم تعاود الصعـود والهبوط وخلال ذلـك ينتشر الايقـاع : « توب .. تك .. تك » .

في الرواق نار كبيرة مشتعلة وعليهـا قدر الطعـام يهدر بالغليـان. كانت هنالـك الام ، وجهها احمر ، متقلص بالغضب تواصل وضع الحطب تحت القدر ، والصبايـا يرتديـن الملابس السوداء الضافية ، مطرزة علـى الياقـة والصدر والاكمام ، يقرفصن مسبلات العيـون ، مستغرقـات في صنع المرق من خلال تذويب قطع الجميد الصلبة في الماء . تدور بينهن امراة فـي منتصف العمـر ضحوكـة صخابة ، جميلة ، تلقى بتعليقات لهـا ايحاءات جنسيـة تحمر لهـا وجوه الصبايـا دون ان يتغير تعبيرهن المستغرق، الصامت . وحينمـا ترفع احداهـن وجهها الـى الام تتالـق

عيناهــا الفتيتان بنظرة نسر كاسر .

تنادي الام بصوت ثرى منغم :

« يا عطوه ، يا مقطوع النصيب ، يا عطوه ! »

ثم تفتش عيناها الحوش الواسع ، تنتظـر ان يستجيب لندائها ، ثم تضيف بعد قليل كانهـا تحدث نفسهــا :

« وين راح المهبول ؟ »

ترد صبية دون ان ترفع عينيهــا :

« عند الزلام »

فتزعق الام :

« قومي ناديه يا غبرا » .

تنهض الصبية بحيوية بالغــة وتتجه الى الديوان تطل من بـــاب الديوان ثم تعــود وتنبىء الام :

« هو هنـــاك » .

وتجلس .

كان الابله يختفي وراء باب الديوان . عيناه واسعتان يسيل منهمــا ضوء اصفــر رجراج . عندمــا ياتي النداء من الخارج يتزحزح ويــزداد التصاقــا بالجدار ، وعلى فمه ابتسامة مندهشة ، متسائلة ، وعينــــاه ترمشان كانه يسترق السمع الى حديث خطير ويحاول استيعاب معناه. ثم يبدو وكانه فهم الحديث وقــد جاء على غيــر ما يتوقع فابتسم ابتسامته الكبيرة . ويعــود النداء مرة اخــرى :

« ياعطــوه ! »

ثم تعقب ذلك همهمة،ويتلوها : «وين راح المهبول؟» يطالع عطوة من حوله مندهشا ، ضاحكــا ، فيكتم ضحكه في كفه ويزداد التصاقــــه بالجدار . ولا يبدو ان احدا مــن الجالسين قــد اهتم بنداء الام او بمحاولة الابله الاستخفاء . يتوقف صوت الام فيعلو صوت المهباش . تلمع ســن ذهبية في فم المختار ، موحيــة بدسامة الطعام والشبع ، ويده المــدورة، القصيــرة الاصابع تمســك بالمسبحــة الكهرمــان ، يدقق الابله النظــر في تلــك الســـن الذهبيــة ، فمه مفتوح ، وراسه مندفع قليــلا الى الامام. تختفي الســـن الذهبيــة ويلتفت المختار الى احد الجالسين ويساله ان كان قــد باع الحمار ، فيرتــد الابله الى الخلف ويتنفس بعمق . عــلا اللغط بيــن الرجال ، تداخلت الاصــوات الحلقيــة العميقــة واخذ عطوه يرمش

بعينيـه .

نهض الابله فجـأة ، خرج من الباب وتوقف . ارض الحوش البيضاء مفروشـة بضوء الشمس القوي . الكلب ينام في ظل السـور ، مفتوح الفم يلهث ، عنـد كل حركة يفتح عينيه، يطالع مـا يحدث ثم يغمضهما ويعاود الاسترخاء بعـد ان يطلق همهمة غليظة خافتة . فكّـر الابله ان الكلـب عندمـا يجعد انفه ويغمض عينيه ويطلق نبحته الخافتة فهـو يشبه امـه عندمـا تراه داخـلا الدار فترفع اليه وجهها ، انفها احمر ولثتها خاليـة من الاسنـان .

كانت دجاجة تقف على قدم واحدة ، احدى عينيها مفتوحة والاخرى مغمضة . كانت تقف ساكنـة بلا حركـة على الاطلاق كانهـا تمثال مـن الشمع . وقف الابله يراقبهـا وهـو يهز جذعه هزات موقعـة لا تكـاد تلحـظ .

سار الابله وانتهى الى الرواق . وقف امام النسـاء فانقطع حديثهن واخذن ينظرن اليه بتساؤل ـ كانهـن لـم يكـن يبحثن عنه منذ قليـل ويعلـن ذلـك امـام الدنيـا كلها . اخذت الصبايا ينظرن اليـه بمـرح مترقب . والعيـون معلقـة به ، متفحصة ، متساءلة اخذ يحني راسه الى الامـام ويخبط الارض بقدمه اليمنى ثم يعـود بجذعه الى الخلف ، ليعاود احنـاء راسه وخبط قدمه ، كانه في حلقة ذكر . كرر ذلك عـدة مـرات، مؤقتـا حركـة جسدة مع دقات المهباش ، ثم قال :

« جرن عمي ابو رحل يقول : بيّـاع البيارق طل ، بياع البيارق طل، بيـاع البيارق طـل ... »

ومضى يردد ذلك في توافق مع حركة جسده ومع ايقاع المهباش. عيـون النساء ترقبه كاتمـا ذلـك كله سوف يؤدي الى نهايـة ذات دلالة. ثم علت ضحكـة المراة الجميلة ثريـة ، متعـددة الدرجـات كانهـــا اوركسترا كاملة . ثم عمّ الضحك بينهـن . قالت الام التي لم تضحك ؟

« شوفوا مقلوع العيـن ! »

- ٣ -

رثاء عائشة بنـت طلحـة

نمت ، وانا مفعم بعائشة بنت طلحة . قرات عنها في كتاب الاغاني ، وفكرت وحلمت بهـا كثيرا قبل ان انام . جسّدها ذلك الفنـان العظيـم ابو الفرج وقرّبهـا حتى كدت ان اراهـا . فتنني عالمهـا ، حاولـت ان استعيده بشغف ، ان اعيـد بناءه ليكـون لي مكانا فيه ، قريبـا اليهـا ومحبا ، فأخذني النـوم وانـا عاشق لها .

قبل ان يحتويني السبات الثقيل ، في تلـك الفترة الفاصلة بين النوم واليقظـة تصبح عائشة ممكنة ، ينبثق لهـا حضور حان ودود ، يمنـح بلا حد ... حضور يندرج في سياق انحلال صلابة الواقع اليومي ، يمتزج بالاثارة التي يبعثهـا تلامس اعضاء الجسد بحرية تحت الجلابية الواسعة، في تلـك العلاقـة الحميمة بين الجسد واللحاف . تتحوّل كلماتهـا في تلك اللحظـة الى عبارات غزل اهدي بهـا ، اصبهـا في اذنهـا : «واللـه لأنا احسن من الليلة القرّة في عين المقرور » .

في الليل نبهني رعب اصم لا مصدر له . صحوت ، وعلى التو تذكرت ان عائشة لم يعد لهـا وجود . لقد تحول ذلـك الجسد الباذخ ، المتوقد بالحيويـة والرغبة والحب ، الى تراب وعظام نخرة ، هشة . لن اراهـا بعد ، لن يكـون ممكنـا قط ان ادخل بيتها ، اتجول بين الجواري ، ارى طلعتهـا الشامخة عندمـا تصحـو متضاحية من نومها .

كيف اصف ذلـك ؟

لقد شعرت بدبيب الموت يزحف حثيثا في جسدي ، مختلطا مع كل نبضـة عرق . شعرت بانني اسيـر نحـوه مفتوح العينين ، بلا قدرة على التوقف او الرجوع . وددت ان استغيث من اجلي ومن أجل الآخرين، ان اصرخ : اوقفوا عامل الزمـن المدمـر الذي ينقض علينا ولا يبقى علـى شيء ، قاوموا تلـك الجرثومة التي تنخر في داخلنا . فكرت برعب :كيف لم يتنبهـوا الى ذلـك ؟ .. عندمـا واجهت هذه الحقيقـة وانا وحيد، اعزل ، مرتجف شعرت بانتفاء المعنـى لكل شيء ،قامت امـام عينـي الاكذوبة بكل روعها . تبينت آنذاك ان جميع المشروعات الانسانيـة بلا جدوى ، وان سعي الانسان كله باطل .

الفزع الذي تولاني ساعـة تلـك المواجهة ، استحالة قبول هـذه الحقيقة او التصالح معهـا احتواني كالمخدر واعادني الى النوم مرة اخرى.

استيقظت ، كانت الشمس تضيء الشقـة المقابلة واصوات الحياة تضج من كل ناحيـة . اعيد وصل ما انقطع ، ها هـي عائشة تصحـو متضاحية (جارتي في الشقـة المقابلة خرجت الى البلكونة ، اتكات علـى حاجزها ، من فتحة قميص النـوم اطلت وعود ـ النحـر النقي ومنبت الثديين) . ابتعث الذكرى فتستغرقني :

كان بالمدينة امراة جميلة تسمى عزّة الميلاء ، وكانت من اظرف الناس واعلمهم بامور النساء . فاتاها مصعب بن الزبير وعبدالله بن عبدالرحمن بن ابـي بكـر وسعيد بن العاص ، فقالوا ان ثلاثتهم خطبوا عائشة بنـت طلحة وعائشة بنت عثمـان وام القاسم بنت زكريـا بن طلحـة . قالوا : فانظري لنـا . (ارافـق عزة في زيارتها ، ندخل احـد بيوت بغـداد القديمـة . البيت تحيطه الاسوار من كل ناحيـة ، نطرق الباب .

عندمـا ينفتح الباب تنفسح باحة واسعـة تحيطهـا زهور الياسمين والفل ، وفـي الوسط نافورة ميـاه ..) فبدأت بعائشة بنت طلحـة ، فقالـت لهـا :

ـ « فديتك ! كنـا في مأتم في قريش ، فتذاكروا جمال النسـاء وخلقهن فذكروك، فلم ادر كيف اصفك فديتك . فالقي ثيابك» .

(تبدو الدهشة في العينين ، تتمهل قليـلا ، ثم يتجمد الضحك على وجهها وتنهض . تصوّب الجارة الي نظرة سوداء براقـة ، ثم ترفـع راسهـا وتواجه الشمس) .

ففعلت . القت ثيابها ، اقبلت وادبرت فارتج منهـا كل شـيء.

فقالت لها عـزة :

ـ « خذي ثوبك ، فديتك »

فقالت عائشة :

ـ « قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتي »

قالت عـزة :

ـ « وما هي بنفسي انت ؟ »

قالـت :

ـ « تغنيني لحنـا »

فاندفعت تغنـي لحنهـا :

خليلي عوجا بالمحلة مـن جمـل   واترابهـا بين الاصيفر والخبـل

(هدأت الحركـة في الدار الكبيرة . في المرايـا التي تمتد بطـول الجدار وعرضه كنت ارى الجواري يدعون بعضهن الى الصمت والاصغاء . تستولي على رغبة ان اتجول في المكـان) .

فقامت عائشة ، فقبلت ما بيـن عينيها ودعت لها بعشرة اثـواب وبطرائف من انواع الفضـة وغير لك . فدفعته عزّة الى مولاتهـا فحملته.

واتت عزة النسوة على مثل ذلـك ، تقو لذلـك لهـن حتى اتـت القوم في السقيفـة . قالت :

ـ « اما عائشة بنت طلحة فلا والله ان رايت مثلهـا مقبلة ومدبرة، محطوطـة المتنين ، عظيمـة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقيـة الثغـر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفّاء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطـن ، ذات عكن ، ضخمة السرة ، مسرولة الساقين ، يرتج ما بيـن اعلاها الى قدميهـا .

« اما عائشة بنت عثمـان والله ما رأيت مثلها قط . ليس فيهـا عيب . والله لكانمـا افرغت افراغا .

«واما ام القاسم فكأنها غصن بانة تثنى، او كأنهـا جـدل عنـان، او كأنهـا جان يتثنى على الرمل ، لو شئت ان تعقـد اطرافها لفعلت »(1).

فوصلهـا الرجال وتزوجوهن .

وعندما تزوجت عائشة عمر بن عبيدالله كان الحارث بن خالد اميرا على مكـة . وكان مفتونا بها ، رضي بدور العاشق المنبوذ ، فقـال عندمـا غادرت المدينـة :

قرشية عبـق العبير بهـا   عبـق الدهـان بجانب الحـق
بيضا مـن تيم كلفت بهـا   هذا الجنـون وليس بالعشق

(1) يقول ابو الفرج ان الجان حية كحلاء العينين لا تؤذي .

ونساء بني تيم هن اشرس خلق الله واحظاه عند ازواجهن. حدث المدائني عن سحيم بن حفص قال :

ـ « وكان مصعب بن الزبير لا يقدر عليها الابتلاح ينالها منه ، ويضربها فشكا ذلك الى ابن ابي فروة كاتبه . فقال له :

ـ « انا اكفيك هذا ان اذنت لي »

قال :

ـ « نعم ! افعل ما شئت فانها افضل شيء نلته في الدنيا » .

فاتاها ابو فروة ليلا ومعه اسودان فاستأذن عليها .

فقالت له :

ـ « أفي مثل هذه الساعة ! »

قال :

ـ « نعم » .

فادخلته . فقال للاسودين :

ـ « احفرا ها هنا بئرا » .

فقالت له جاريتها :

ـ « وما تصنع بالبئر ؟ »

قال :

ـ « شؤم مولاتك ، امرني هذا الفاجر ان ادفنها حية وهو اسفك خلق الله لدم حرام » . (١)

فقالت عائشة :

ـ « فانظرني اذهب اليه » .

قال :

« هيهات لا سبيل الى ذلك » .

وقال للاسودين :

ـ « احفرا » .

---

(١) كان لمصعب سابقة فقد روى ابو الفرج :

« قال عوانة : وكانت لحميدة اخت يقال لها عمرة ، وكانت تحت المختار بن عبيد الثقفي ، فاخذها مصعب بعد قتله المختار واخذ امراته الاخرى وهي بنت سمرة بن جندب ، فامرهما بالبراءة من المختار . اما بنت سمرة فبرئت منه ، وابت ذلك عمرة . فكتب مصعب الى اخيه عبدالله . فكتب اليه : ان ابت ان تبرا منه فاقتلها. فابت فحفر لها حفيرة واقيمت فيها فقتلت » .

فلمــا رات الجد منــه بكــت ثم قالت :

ــ « يا ابن ابي فروة انك لقاتلي ما منه بد ؟ »

(وصورة عمرة امام عينيها تقف في داخل الحفرة ، مسبلة العينين، محنيــة الراس . يهو يسيف الجلاد على العنــق فيسقط الرأس ، ويظل الجسد واقفا للحظة ثم يهوى ويهال التراب عليهــا . وقد قال عمر بن ابي ربيعــة فــي ذلــك :

قتلت حرة على غير جــرم   ان للــه درهــا من قتيــــل
كتب القتل والقتال علينــا   وعلى الغانيات جر الذيــول)

قالت عائشة :

ــ « ما من ذلــك بد ؟ »

قــال :

ــ « نعم ، واني لاعلم ان الله سيجزيه بعدك ، ولكنه غضب وهــو كافــر الغضب » .

قالت :

ــ « وفي اي شيء غضبه ؟»

(كانهــا لا تعرف !)

قــال :

ــ « في امتناعك منه ، وقد ظــن انك تبغضينه وتتطلعين الى غيره فقــد جــن » .

فقــالت :

ــ « انشدك الله الا عاودتــه » .

قــال :

ــ « اني اخاف ان يقتلني » .

فبكت وبكى جواريها. ثم قال لها انه رقّ لحالهــا ولسوف يعــرّض نفسه للخطــر من اجلها ، فمــاذا تضمــن له ؟ قالـــت بصوت صغير مرتعش :

ــ « تضمن عني الا اعود ابدا » .

واتى مصعبا فاخبره . فقال له مصعب :

ــ « استوثق منهــا بالايمــان » .

ففعل . وصلحت عائشة بعد ذلك لمصعب .

ودخل عليها مصعب يومــا وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتهــا عشرون الف دينار ، فانبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها فقالت :

ـ « نومتي كانت احب الي من هذا اللؤلؤ » .

ودعت عائشة يوما نسوة من قريش فلما جئنها اجلستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجمر ، وخلعت على كل امرأة منهن خلعة تامة من الوشي والخز ونحوهما ، ودعت عزة الميلاء ففعلت مثل ذلك بها واضعفت ، ثم قالت لعزة :

ـ « هاتي يا عزة فغنينا »

فغنتهن في شعر امرىء القيس :

ولثغر أغر شتيت النبات ... لذيذ المقبّل والمبتسم

وما ذقته غير ظن به ... وبالظن يقضي عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه اصحاب له يسمعون الغناء فصاح :

ـ « يا هذه اننا ذقناه فوجدنا على ما وصفت ، فبارك الله فيك يا عزة ! »

وكان لعائشة اجازاتها من الرجال ، لم تكن تتعجلهم فلقد كانوا دائما هنالك . عندما خطبها عمر بن عبيد الله رفضت دون تردد ، ثم طلبت اليه ان ينتظر . ولكن عمرا لم يكن يستطيع صبرا (١) . بعث لها مع جاريتها خمسمائة الف درهم وقال لجاريتها :

ـ « لك على الف دينار ان دخلت بها الليلة » .

كوّمت الجارية المال على الارض والقت فوقه ثوبا . قالت لها عائشة ما هذا ؟ فقالت الجارية :

« من عمر بن عبيد الله ارسل به اليك » .

كشفت الجارية عن المال وقالت :

« اجزاء من حمل هذا المال ان يبيت عازبا ؟ »

ولكن عائشة كانت مترددة ، لم تقرر بعد ان تخرج من اجازتها . ثم ارسل لها عمر بعدها بسخاء خاص : وصف لها ضخامة عضوه التناسلي، وفحولته ، مغريا اياها بشبع لم تعرفه امرأة من قبل . قال لها ذلك بالفاظ صريحة (٢) انهت ترددها في الحال عندما سمعتها وارسلت اليه متعجلة تقول :

ـ « بت بنا الليلة » .

جاء في المساء مهولا ، مهيبا . وضع امامه طعام يكفي سبعة اشخاص فأتى عليه كله . ثم غسل يديه وتوضأ . ثم قام يصلي فاطال القيام حتى

---

(١) قال لها : « لاقتلنك الليلة » .

(٢) ارجع الى كتاب الاغاني .

نـام كل مـن في البيت مللا . وعندمـا انتهى من صلاته قال للجارية :
« اعليكم اذن ؟»
فقالت :
ـ « نعـم »
استأذن ودخل ، واسبلت الجاريـة السـتر من خلفه .
واخذت الجارية ـ وقد اتخذت موضعا قريبا ـ ترقب غير مصدقة.
لقد عدت سبعـة عشر مرة دخل فيهـا المتوضأ تلـك الليلة . ثم بدا لهـا وكأن ذلـك لن ينتهي ابدا ، فغلبها الملال وغفلت عينها ونامت .
في الصباح دخلت عليهمـا الجارية . كانت عائشة متربعة علـى السرير ، والامير جالس بجوارها . قالت له الجارية ، ها انت أكلت طعام سبعة رجال ، وصليت صلاة سبعة ، وضاجعت مثل سبعة رجال .
ولما كانت الجاريـة قد رفعت الكلفة بينها وبين الامير فقد كانـت عباراتهـا اكثر صراحة ومباشرة . ضحك عمر بن عبيد الله ومد يـده الكبيرة وامسك بكتفهـا البعيد عنه وابتسم لعائشة وللجاريـة . غطـت عائشة وجهها بيديها ، خجلا ، وقالت :

قد رايناك فلم تحل لنـا وبلوناك فلم نرض الخبر

وعندما رفعت يديها عـن وجهها التقت نظرتهـا بنظرة الجاريـة فضحكت وعاودهـا الخجل .
قال مصعب :
« لما بنى بها عمر قال لها : (لاقتلنك الليلة) . فلم يصنع الا مرة واحدة . فقالت له لما اصبح : (قم يا قتّال) وقالت حينئذ :

قد رايناك فلم تحل لنا وبلوناك فلم نرض الخبر »

ولكـن ابا الفرج يقول ان هذه الحكايـة تحامل من مصعب الزبيـري وعصبية ، يدل على بطلانهـا انها ، عندمـا مات عمر ، ندبته قائمة ، ولم تندب احدا من ازواجهـا الا جالسـة . وشـاع خبر هذيـن اللذيـن لا يرتويـان ابدا :
« كنت عند عائشة بنت طلحة ، فقيل لها : (قـد جـاء الامير) فتنحيت ، ودخل عمر بـن عبيد الله، وكنت بحيث اسمع كلامهما ، فوقع عليهـا فجاءت بالعجائب . ثم خرج . فقلت لها :
(انت في نفسك وموضعك وشرفك تفعلين هذا !)
فقالت :
« اننا نتشهى لهذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه » .

اجتاح النساء جنون ان يرينهــا عارية . قالت ضرة عائشة ، رمــلة بنت عبدالله بن خلف ، لجارية عائشـة :

« اريني سيدتك متجردة ولك الفا درهم » .

فأشرفت عليها رملة ، ورأتهــا مقبلة ومدبرة فاعطت الجارية الفــي درهــم وقالت :

ـ « لوددت اني اعطيتك اربعة آلاف درهم ولم ارها » .

احست رملة بالموت يلتهم خلاياها ، فقد كان جسـد عائشـة هــو هلاكها . تحسست لديهــا وفخذيها وقالت : « ماذا ابقت الايام مني ؟ » . كانت قـد تقدمت في السن ، ولكنهــا كانت تقاوم عامل الفناء بكل وسيلة، فتتجنب زوجهــا في ايام اقرائها ، ثم تغتسل ، تريه انها تحيض ، وذلك بعـد انقطاع حيضها . ولكنهــا وهي ترى هذا الجسد الفاره ، وتلــك الانوثــة العارمة ممنوحة لزوجهــا فأي امل بقي لها .

لقد اصبحت مع الموت في مواجهــة مباشرة ، فاطلقت صرختهــا اليائسة : « لوددت انــي لم ارهــا » .

ـ ٤ ـ

الراسبي يشتري الجنة

كان ابو الوازع الراسبي مفكرا ومجتهدا من مجتهدي الخوارج وشاعرا ، ولقد شعر انه في اللحظات الحاسمة الفعل هو الذي يقرر كل شيء ، فعزم ان يقدم بيانا عمليا يبرهن به بشكل قاطع على صحة مقولته .

★ ★ ★

نافع ابن الازرق ، ذلك المحارب الصلب والقائد العسكري المحنك، القى سلاحه في انتظار اللحظة المناسبة .

★ ★ ★

كان نافع بن الازرق يجلس في جماعة من اصحابه يصف لهم جور السلطان . وكان نافع ذا لسان غضبب واحتجاج وصبر على المنازعة . وقف ابو الوازع على راسه واستمع اليه ، ثم قال له :

ـ « يا نافع ، لقد اعطيت لسانا صارما ، فلوددت ان صرامة لسانك كانت لقلبك وكلال قلبك كان للسانك . اتحض على الحق وتقعد عنه، وتقبح الباطل وتقيم عليه؟» كان لكلامه وقع شديد ، فها هو رجل الكلمة يهينها

ويعلن عبثيتها. فقال نافع :

ـ « الى ان تجمع من اصحابك من تنكى به عدوك » .

فقال ابو الوازع :

ـ « لسانك لا تنكى به القوم انما تنال بكفيك النجاة من الكرب
فجاهد اناسا حاربوا الله واصطبر
عسى الله ان يخزي فوّى بني حرب »

ولكن نافع اعاد ما قاله : التمهيد بالتحريض في انتظار اللحظة المناسبة .

فقال ابو الوازع :

ـ « يا نافع ، والله لا الومك ونفسي الوم . ولا غدون غدوة لا انثني بعدها ابدا » .

وعندما غادر ابو الوازع الجماعة احس بالحاجة الى ان يكون اكثر تحديدا ودقة : الكلام لن يولد الا الكلام وسوف تستمر المسيرة في الحلقة المفرغة لما لا نهاية . اشتري سيفا واتي به الى ذلك الصيقل « الذي كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم » . دفع السيف ، وشاوره فيه فجمده . (كان منظر هذا العالم الجليل وهو يمسك السيف امرا اثار عجب الصيقل وشيئا من سخريته) . قال له ابو الوازع :

ـ « اشحذه ! »

تردد . (نزوات وافاميل هؤلاء الخوارج لن تنتهي ابدا . ولكنه محتاج للعمل ليعيش) . اخذ السيف وشحذه ثم اعاده اليه . ساله ابو الوازع ان كان السيف حادا بما فيه الكفاية ؟ فاكد له الصيقل ذلك وهو يعرض السيف للضوء الشحيح القادم من الباب ويمر اصبعه على شفرته . ولكن ابا الوازع كان متوجسا ، فالح عليه ان يعيد شحذه . (بالنسبة للراسبي لم يكن الامر يحتمل اي شك).

فكر الصيقل ان ادمان العلم يذهب بعقل من يزاوله ، ولكن عليه ان يرضخ .

لم يكن الحاج ابي الوازع لشعور عبثي بالفكاهة السوداء ، او بسبب استمتاعه بالمفارقة التي يجسدها ذلك الموقف ، ولكنه كان يرى مصائر الالاف معلقة بقراره . لقد رأى عين التاريخ العتيقة العريقة ،الفتية في الوقت ذاته ترمقه منتظرة لتعاين كيف يعالج المثقف ذلك الخلاف القديم بين النظر والعمل ، بين الكلمة والفعل ، ولهذا كان ابو

الوازع مكدودا مهموما . فقد ينتهي كل شيء على غير ما قدّر وتظل قضيته بلا توضيح كاف .

في تلك اللحظة كان لكل فعل ولكل عبارة دلالة تتجاوزها ، وسوف تظل ابدا ممعنة في ذلك التجاوز . (ارى في ذلك الدكان البائس عجوزا يرتدي فروة بائسة ، نحيلا ، صارم الوجه ، عاش حياته دارسا وباحثا ، يقف ضئيلا امام الصيقل العملاق المسودّ الوجه واليدين بنار الكور ... وارى الملايين من اهل السواد والجوعى والاعراب الذين يسحقهم السادة الارستقراطيون من بني امية يتجهون بعيونهم الى ذلك المكان في انتظار القرار ...).

مد له الصيقل السيف وضحك ، ثم اوقف ضحكه . قال ان السيف اصبح حادا للغاية ، يطير به الراس دون مجهود . وكان يبطن السخرية، فما الذي يبغيه رجل امضى حياته في طلب العلم من الالحاح على شحذ سيف لن يستعمله ابدا .

امسك ابو الوازع بالسيف وصاح: « لا حكم الا الله » وخبط عنق الصيقل . ما زال الصيقل في جلسته كبيرا ، لقيلا ينبع الدم من عنقه المقطوع ، وتدحرج الرأس على الارض ، وهو ما يزال يحمل تعبير الثقة والتهكم الذي نطق به كلماته الاخيرة . (ما الذي جعل هذا الكادح البائس يخون قضيته ويذم الذين نذروا انفسهم لتخليص كل الكادحين من عسف وطغيان بني أمية ؟ لم يراع ابو الوازع بؤس الصيقل ففي لحظات الحسم لا مكان للتردد) .

طالع ابو الوازع الراس : لقد كان الصيقل صادقا ، اذن !

« اللهم اجعلني واضحا » هكذا صلى ابو الوازع . لم يكن حديثه الدامي موجها الى علماء يستعذبون دقائق القضايا الفقهية او تعقيدات علم التوحيد ، بل كانوا اناسا فاض بهم الكيل ولم يعد امامهم سوى العنف يحلون به مأزق وجودهم البائس . وفي العنف تكون الخطوط واضحة ، صريحة ، لا لبس فيها .

خرج ابو الوازع من الدكان وسيفه يقطر دما ، فحمل على الناس فتهاربوا منه . اسرع في الطرقات يضع السيف في كل من يلقاه ، في اعناق اولئك الذين آثروا المذلة والخضوع على الخروج وحرب السلطان، وهو يطلق شعار الخوارج المعروف « لا حكم الا الله ! » . اندفع كالعاصفة يشم نسيم الجنة التي اشترى مكانه بها منذ قليل حتى الى مقبرة لبني يشكر، فدفع عليه رجال حائط السترة فمات لساعته . فكرهت بنو يشكر

ان يدفـن في مقبرتهم « خوفـا ان تجعل الخوارج قبره مهاجرا » .

عند ذاك تبيـن نافع بن الازرق باقصى قدر من الوضوح وجهة نظر ابي الوازع، وادرك الاكذوبة التي تتخفى وراءها «خدعة اللحظة المناسبة»، فاستبدل بلسانه صارمـا وقامت حرب الطبقات . تبعته عشرات الالوف من البؤساء والمعدمين ولسنين طويلة حارب وهزم جيوش « غـوي بنـي حرب » الى ان انهزم في النهايـة ومات .

الجزء الثاني

ـ ١ ـ

الوقوف علــى الاطــــلال

في السابعــة صباحا ، وهــو في وهدة النوم ، دهمــه احساس ممض بالكارثة . في مثل هذه الساعــة من كل يــوم يستيقظ مرهقــا ليذهب الى العمل . خالط ذلــك معرفــة بأن هذا اليــوم هــو يوم اجازته الاسبوعية ، فغاص في غبش الدفء يعاني ثقل الشعور بالذنــب . أحس بذلك ، جسديا ، على شكل صعوبة في التنفس ، يخالط ذلك عبء واجب ثقيــل وضروري يلح عليه ، طالبا التنفيذ .

تململ قليلا ، ثم همد . كان هنالــك شخص آخر صارم ، يفعل ما هــو واجب ، متعال على الضعف الانساني ، ويحتقــر كل مبالغات وهوج الشخص الآخــر الذي يطالب بالراحــة ، ويشكو بافتعال شديد من فرض صرامــة على حياة نهايتها محتومة . استسلم الشخص الآخــر باشمئزاز، وانهــى الحوار قائــلا :

ـ « دلع ستــات » .

يتكور داخل السرير ، مستمتعا باحتكاك فخذيه .

كان هنالــك معرفة قبلية انه خارج المساحــة التي يحتلها جسده في السرير يقف البرد متربصا . للبرد حضور عدواني ، مخاتل ، قسوة طبيب أو ضابط بوليس يحتقــر متعــة اللحظــة ويسعى لتحقيق نتائــج هامة عبر الالم والمعاناة . اطل عليه البــرد منكمشا في السرير وقال :

ــ « دلع ستــات » .

طعم رديء في حلقه . احلامه مملة ، ثقيلة ، تتكرر بلا انقطاع .

يكتشف الخديعــة منذ أول لحظة ، قبل ان تبدأ ، لانه قد عاشهــا قبل ذلــك ، وهــو لهذا يرفضهــا ، ويقاومهــا بعنف . ولكنه المرة بعــد المرة يجــد نفسه في داخلهــا ، ورغم الملل الذي يسيطر عليه ، فعليه ان يبدأ من جديد . هنالــك الرجل رقيق ، دمث ، يقــود عربة حنطور . كان يرتدي ملابس اوروبية كاملة ويمسك بعصــا رفيعة ، طويلة . والحصــان شديد العصبيــة بسبب اللجام الذي يكبح جماحه ــ نظرة الحصان الجانبية كانت تدل انــه يعلم . ورغم الظلمــة فقــد كــان كل شــيء شديــد الوضوح . يميل الرجل الانيق ، الدقيق ، من فوق كرسي العربة ، ويقول ووجهه شديد القرب والدماثة ، انه هــو ايضــا ذاهب الى شارع فؤاد ويدعوه للركوب معه (مــا دمت في طريقــي ، يقول : . ثــم يرســم ابتسامته الجميلة على فمه ويشيــر بكفه الى داخل العربة ويقول :

ــ « اتفضل سيادتــك » .

ولكن هنالك مشهدا آخر ، يراه في نفس الوقت ، او ربمــا قبــل ذلــك . يرى نفسه يهبط من العربية ، وجو رمــادي ــ بسبب الغيــوم والمطر ، او ربمــا لان تلــك الفترة كانت السابقــة على طلوع الفجر ــ اسمر يكتنف الشــارع . يرى الشارع خاليــا تمامــا ، ولكــن هنالــك خــوفا غامضا قادمــا من ميدان العتبة لا يستطيع ان يتبيــن كنهه وذلك بسبب النسيــان او لانه لا يستطيع ان يــركز افكاره تمامــا . يهبط من العربة فيندفع عدد من الاشخاص من بوابة عاليــة للغايــة لاحدى عمارات شارع فؤاد القديمــة ويحاولوا ان يختطفوا منه شيئا او ان يضربوه . يتضح ان سائق العربة متواطىء معهم ، بل هــو قــد قاده الى هذا المكــان ليــزج بــه في هــذا الكميــن . يبدو ان عراكــا قد تم ، انتصر هو فيه ، او ان المهاجميــن قــد كفوا من تلقاء انفسهم ، فالشنطــة ما زالت في يده . يفتح الشنطــة فيجــد فيهــا حلاوة طحينية فيقول : « هذا هــو السبب، لقد علموا انهــا مستوردة » ويقبل عليهــا وهــو يشعــر بجوع لا اشباع له . لسرعــة التهامه لهــا لا يجد لهــا طعمــا .

كيف انتهت المعركــة ؟ لا يدري . الا انه قد اعتبر نفســه قد انتصر عليهم ــ دون ان يكــون مقتنعــا بذلك تماما . وهــو لهذا السبب يرفض ان يركب العربة ، يرفض بحدة ، عندمــا دعاه الرجل الرقيق المهذب . انه يصرخ في وجه ذلــك الرجل متوعدا :

ــ « شغل الفهلوه التافه مش عليا انا ! » .

والرجل يفرك يديه ، ولرمش عيناه بارتباك وحرج واضحين .

لم يكـن هذا هـو ما يضنيه ، بل وجوه الاصدقاء التي تظل غيـر مكترثة عندمـا كان يواجه المازق ، وهم أقل اكترائا عندمـا انتصر . لا أحد منهم يمتدح ذكاءه عندمـا ادرك مقدمـا ما كان يراد به ، ولا احد يثني على شجاعته عندمـا واجه الاربعة ــ ربمـا كانوا اقل مـن ذلـك ــ وانتصر. يزيد احساسه بالاسى خوف ان يكون هؤلاء الاصدقاء قد تيقنوا ان انتصاره لـم يكـن لـه فضل فيه . كـان الصحاب مستغرقين في احاديث طويلة، مسئمة ، لا يستطيع استعادتهـا بالكامل ، ولكنه يذكـر ان احدهم كان يحكي بوقار وثقـة شديدليـن كيف انه يستطيع ان يردد سبع كلمـات، كل كلمة تبتدىء بحرف (ح) فتنهار امامه اية فتاة دون مقاومة . وكان الآخرون من خلال تعليقات ضاحكـة يعبرون عن اعجابهم بهذه القــدرة ويتظاهرون بلوم انفسهم لانهم لا يملكونهـا . وكـن هـو يعلم ان ذلك نفاق منهم ومجاملة . وعندمـا يغادرهم محتجا ، مشمئزا لم يبد عليهم ان ذلك الـار عندهم اي اهتمام ، فيخنقه شعور بالهجر والظلم ، ولكنه يجد ذلـك الرجل الدمث الرقيق مرة اخرى ، يميل نحـوه من فوق كرسيه ويعرض عليه ان ياخذه الى شارع فؤاد لان طريقهما واحدة ، وان ذلـك لن يكلفـه شيئا فيرفض بقـوة وعنف ويهدده :

ــ « فاكرني سايح ؟ » .

وهكذا يمضي الحلم المرة بعد المرة .

يصحو لثوان قليلة ، فيقول لنفسه ، كيف استطاع ذلك الرجل ان يعلم انني ذاهب الى شارع فؤاد لو لـم يكـن هنالـك تربص شريـر . يعـود للحلم ، فيحاول ان يقول ذلـك للرجل ، ولكـن الجملة تبدو لـه طويلة وخارج السياق فيكتفي بالتهديـد والزعيق :

« ــ شغل الفهلوة ده ينفـع مع السواح مش معايا انا ! »

لم يرى نفسه جالسا مع ذلـك الصديق النحيل ، الطويل الذي يوقع باية فتاة اذا نطق سبع كلمـات . ياخذ في شرح مفصل شديد الاملال. انهـا تصحـو وتفتح البلكونة في السابعـة الا ربع وتطل على الشارع . (يراهـا تفتح البلكونة ، شعرهـا الاسود الكث ينساب بخصلات ناعمـة على عنقهـا الشامخ ، فمهـا المكتنز مـا يزال يحمل آثـار روج قـديم ، وجسدهـا يلمـع لمعـة فسفورية تحت قميص نومهـا الرقيق الشفاف) . يكون شارع فؤاد خاليـا ولكـن من المنتظـر ان ياتي السائحون من المطار

وينظـرون الى أعلى ، وفي هذه السـاعـة تقف عربة الحنطور منتظرة ، فللسائحيـن نزوات . (مـن الواضح انهمـا ـ هـو والصديق ـ يطـلان من مكان مـا على شارع فؤاد في تلك السـاعـة بالذات لان المرأة انحنت من فوق البلكونة واخذت تلوّح بيدهـا وتصيح :

« مرحب ، مرحب ، يا اخا العرب »

بينما مد سائح ذراعه من شباك الاوتوبيس السياحي واخذ يلـوّح لهـا) ... ومضى يحكي ويحكي ، لم يفهم كل مـا قاله ولكـن مدلوله كان واضحـا : مـن اجل السـائحيـن يجب ان تختفي الخلافات الداخلية كتلك التي كانت بينه وبين هؤلاء الذيـن اشتبك معهم في شارع فؤاد . وعلى هذا الاساس فهـو قد كـان مخطئا ، ولكـن ذلـك منتظر تمامـا مـن بورجوازي صغير مثله . وفجاة اخذ يزعق بصوت مختنق وبانفعـال ترافقـه الدمـوع :

ـ « ايه رايك بقـى ان الحلاوة الطحينية ما كانتش مستوردة ،لكنها مصنعـة هنـا بيـد واحدة من بنات هذا الشعب الطيب ، امراة عاديـة مثل عشرات الالاف غيرهـا من بنات هذا الشعب ! ايه رايك بقى ..! »

ولكن الصديق يبدأ من جديد .

صحا من النوم مرة اخرى . كان ضجرا ، مجهدا . انتزعه مـن الاستـسلام للخدر المرهق، الدافىء جزع غير محدد ـ جزع يتصل بهـواء الحجرة الذي لـم يتجدد منذ البارحـة ، وطعم كالقيء في حلقه ، يخالط ذلـك ، ويتخلله الاحساس الثقيل الملـح بفعل غير معروف لديه عليه ان يقوم به دون تأخير . يضاد هذا ويوقفه هول مواجهة العالم ـ الخارج ـ البرد ـ الخوف ـ خيبة الامل ثم تكرار الاشياء الممل .

خلال هذا الشلل حاول ان يكتشف الكلمـات التي تبتدىء بحرف (ح) والتي تجعل ايـة فتاة تنهار دون ادنى مقاومة . « حلوة ، حمامة ، حسـناء ... ولكـن لا بد مـن وجـود فعل مع هذه الاسمـاء ، حار حان حلم .. يحن .. هذه هي الكلمة مؤكـدة ، لا ، لا ، لا يمكـن ان يكـون الفعل مضارعا ... وما لزوم الفعل اصلا ، ذلـك في اللغـة الانجليزيـة، حنـون حميم ... حرارة حماية .. كيف تصبح الجملة اذن ؟ هــذا مسئم جدا .. »

تسربت اليه يقظة فاجعـة عبر ذلـك الشـلل ـ كأنك تنتظر موعـد اجراء عمليـة جراحيـة او ان تستدعي للتحقيق ، اي للتعذيب ـ ها هو يكرر الاستيقاظ من النوم لما لا نهايـة ولا تحدث المعجزة .

الخادمة لن تأتي هذا الصباح وقد لا تأتي ابدا « هيه الخمسة جنيه دي فلوس دي ؟ » التضخم النقدي ، للنظام الاقتصادي العالمي ، غانا تصدر الكاكاو الى بريطانيا « كده ؟ » .

« دي الخمسة جنيه الواحدة بتطلعهم في الخضار » يقول لها « يعني بتسمسري ؟ » واقفة بباب الصالون متكئة بكتفها على دفته المغلقة « سمسرت منك حاجة ؟ دول سواح » يكلمها باشمئزاز « بس السواح مش عايزين الواحدة علشان الغسيل والطبخ بس ... انت عارفه ... »

ــ « همه حايبصوا لخدامه يعني ؟ »

« بطلي استعباط »

ــ « وبيقول استعباط ! »

دعاء السيجارة وفنجان القهوة يحمل وعدا بالفرح والتجدد ، وعدا هو البداية والتمهيد للمعجزة التي لم يكن متاكدا من ماهيتها ولا من طريقة حدوثها . لكنه كان على يقين ليس له اي سند منطقي او واقعي انها سوف تحدث هكذا فجاة محطمة كل ضغط الحياة الذي يختنق في دوامته .

راقب اليقظة تسري في اعضائه ، متخذة من الاحساس بالذنب اداة لها . نهض من السرير واخذ يبحث عن الشبشب بقدميه ، وهو يصغي لصوت العالم ، محاولا ان يستدل من اصواته المدغمة على ما يحدث فيه . لبس الشبشب وتوقف ، فعرّاه البرد وخذل ساقيه . ثم سار في عتمة مليئة بالكمائن المحتملة ــ قد يصطدم بكرسي او بطرف المكتب الذي يصيب الركبة دائما او قد يتعثر بالحذاء ــ . توقف امام زجاج الباب المؤدي الى البلكونة واطل من فتحات الشيش . لم يلمح للشمس اثرا على البلكونة في العمارة المواجهة ، لم ير جارته تنشر الغسيل على بلكونتها يثقل نهداها فتحة قميص نومها ،لم يسمع اصوات النسوة والاطفال تنبعث من ابواب المطابخ المطلة على سلم الخدم . كان ذلك باعثا على الاكتئاب . ارتفع بجسده ووقف على رؤوس اصابعه ليرى قضبان الشرفة . شاهد قطرات الماء عالقة بها . تولته رعدة .

عاد وليس البلوفر . (هاكم مصلحة الارصاد ! ولكن تلك مشكلة عالمية) . فتح زجاج الباب عدة سنتيمترات . نفذ صقيع له ملمس . لسع انفه فارتعشت عيناه ــ لسع دقيق ، سريع ، كضربة حد الموسى . اقنع نفسه ان الهواء يتجدد الآن : الهواء النقي المغسول بماء المطر يدخل

ولانه ثقيل فهو يطرد الهواء الراكد الدافيء الى اعلى ، يحدث تيار الخ ...

خرج من حجرة النوم . لبابها صرير فاضح. اضاء المطبخ ، نور المصباح الكهربائي اصفر، اعشى، خائر. رائحة رطوبة محملة بروائح بقايا طعام متعطن، ونفثة من البوتاجاز في الجو. وضع الكنكة فوق الموقد، اشعله، ثم عاد الى فراشه. دفء السرير ذكره أن قدميه تثلجتا. انطلقت منه تأوهة متعة وكن تحت الغطاء . (يلمس كتفها، تستدير اليه. تخفي راسها في صدره وتلتف يداها حوله. ساقاها العاريتان دافئتان . تضع احداهما بين ساقيه، والاخرى فوقه. ثم ينتظم تنفسها، ولكن. انفاسها دغدغة رقيقة في نحره ..) .

قدر ان الماء قد ابتدأ يغلي . تردد مستمتعا باخر نفحة دفء. (كان طعم ليالي السهر في حلقه ـ النقاش والمشروعات ـ وعندما يغادرونهما كانا يبدآن هما، يشربان بقايا الزجاجة، وربما فتحا زجاجة جديدة. تكون رحمه مشتعلة، لا ترتوي ابدا. انفاسها تتردد في نحره قبل ان تغفو، انفاسها في نحره قبل ان تصحو في الصباح. يجذبها اليه فتهمهم وتزداد التصاقا ...) .

يضطرب في سريره . جاهد ومد يده وامسك بالساعة الموضوعة على الكومودينو، قرب السرير، كانت تشير الى التاسعة وبضع دقائق. (كان بامكاني ان انام ساعة اخرى. ربما بعد القهوة .. انها تغلي الان..). نهض من السرير، اتجه الى المطبخ. لم يكن الماء قد غلى بعد. تكونت نقاقيع على استدارة التقاء الماء بجدار الكنكة (كأن صغرى وكبرى من فواقعها .. عمامة ولحية مدورة .. هكذا ابو نواس في الصور). اخذ سطح الماء يتفزز بانفجارات ميكروسكوبية كأن رؤوس دبابيس غير مرئية تصعد بسرعة الى السطح ثم تختفي تاركة وراءها وجه الماء مكتظا بالبروزات الصغيرة المدببة. (لقد فقدها ابو نواس تلك التي غلى ماء الشباب بها والعمت في تمام الجسم والعصب .. صور جواري راقصات على كؤوس الخمرة ..) .

هنأ نفسه وهو يرى الماء يغلي. لقد غادر الفراش في الوقت المناسب (يتغير طعم الماء عندما يغلي كثيرا). وراي في ذلك طالعا حسنا، سوف يمتد وينفذ الى ساعات يومه كلها. اضاف السكر والبن واخذ يحركهما.

عاد بكباية القهوة بلا طبق. وضعها فوق الكومودينو. سوف تزول هذه الرعشة التي تغشاه وتخذل خطواته . مد يده الى زجاجة الروم ،

بجوار السرير، واضاف منها قطرات قليلة الى فنجان القهوة. تردد قليلا، ثم اضاف قطرات اخرى. نفذت اليه رائحة الروم، قوية، مثيرة للغثيان. انتظر قليلا حتى تهدأ معدته. اصبحت رائحة لطيفة : كان يعد نفسه للسرور في هذا اليوم .

مع الجرعة الاولى من كآبة القهوة، وقد تخلل بخار الروم راسه وجعله قادرا على التنفس بحرية اكبر، ومع النفس الاول من السيجارة يرافقه دوار خفيف لذيذ استمتع بالاستسلام له وبالتغلب عليه استعاد سيطرته على اللحظة، وعلى التخطيط لما يلي من ساعات النهار ــ سوف تكون ساعات ممنوحة للفرح وللاكتشاف. ذلك كله مشتمل وموضوع في اطار حس متفائل ورغبة جارفة بالاستمتاع الحسي. حدس خالص ينبؤه بانه في هذا اليوم بالذات سوف تبدأ المعجزة في الحدوث، أحس بنفسه متفتحا لها وقد اخذت بوادرها تبدو .

الروم يفتح مسارب مغلقة في صدره وطعم القهوة عتيق اليف. انفعاله تحول الى ايقاع ... كان ذلك الايقاع القديم . تعود اليه الدار، ومجلس الرجال (حكايات الفرسان والحب والاشعار ولحن الربابة)، واصوات النساء ثرية منغومة (حكايات الرعب : الاشباح والارواح الشريرة ونذر الموت) .. طرقات القرية، البيوت المسورة . .ثم فجاة دهمته الذكرى وسط اضاءة بيضاء مبهرة. كان يطل من فوهة البئر. في منتصفه كوم حجارة سمراء، بيضاء، بركانية سوداء، يحيط الكوم دائرة من الماء الاسود اللامع، على اطرافها ظلمة وامتدادات صخرية زلقة، في تلك الامتدادات كانوا يجدون عش الحمام فوقه بضع بيضات صغيرة الحجم، ومرة لمس افعى ... فكر أن يصرخ في باب البئر ليسمع صدى صوته يرتد اليه متتابعا. عندما رفع راسه رأى الفتاة البدوية، راعية الغنم، تقف في مواجهته، تراقبه . في وجهها ضحك كثير، وعيناها براقتان بالشر والحيوية. اقتربت منه حتى توقفت امامه . كانت اقصر منه قليلا. رفعت راسها اليه، تسطع عيناها بضوء اسود ، والعرق يبلل جبينها. فجاة احاطته بذراعيها، امتد جسدها واستطال، تعلقت به وهي تقف على رؤوس اصابع قدميها ثم قبلته على خده قبلة سريعة انطلقت بعدها .

كان يقرأ رواية ماجدولين . انهكته حتى الاختناق والدموع الالام التي يعانيها العاشق، وقرب نهاية الرواية، على ما يذكره رأي العاشق بعيون اخرى غير عيني حبيبته ففوجيء به رث الثياب، مهمل الهيئة بينما كان قد تصوره فتى أنيقا وجميلا. ازعجه ذلك فتوقف عن القراءة.

تحت ظل الصخرة التي يجلس تحتها راى منطقة نشع الماء فيـــها، وراي عيون السحالى ترقبه بتلك النظرة العارفة، المخوفة . احيانا تمرق امامه وتتوقف وقد مالت براسها قليلا نحوه، فيراقب بطنها الاخضر ينبض .

ثم سئم ذلك كله، العاشق الزري الهيئة والسحالى ونشع المـــاء تحت الصخرة وكل شيء فقرر ان يطل في البئر ويصرخ ليسمع رجـــع صوته، فخرجت اليه الفتاة البدوية من احد الكهوف. كان قد راى الماعـز ولكنه لم ير راعيتها ــ لم يحاول ذلك على اية حال ــ الى ان رآها واقفــة امامه. ثم قبلته وتمطقت وعيناها العسليتان ترقصان بالشر وتتوهجـــان بنور شرس . انفصلت عنه ووقفت قريبة، وكانت تحمل عصا قصيـــرة، بيضاء، تشير بها عندما تتكلم. سالته عما يفعله في هذا الحر (قالت : في هذا الموت) وحيدا وبعيدا عن القرية، وضحكت. كانت عبارتهـــا تتضمــن تلميحا بذيئا ادرك معناه واخافه . اخذت تدفع عصاها في صدره المـــرة بعد المرة وهي تقول اي شيء كنت تنوي ان تفعله، قل لي، ولماذا لا تــرد، ولماذا اصبح وجهك احمر بالخجل كانك بذ متايها الولد النصراني؟ لمـــاذا لا ترد، هل انت اخرس؟ ... يتذكر الان بدهشة ان وجهها كان غاضبـــا، رغم انها كانت تنفجر بين آن واخر بالضحك. ثم القت بالعصا بعيــــدا واحاطت جسده بذراعين قويتين، واخذت تضغط وتضغط، ثـم قبلتـــه. كان يختنق بين ذراعيها قال لها :

ــ « اتركينـــي ! » .

فتزايد ضغطها. كانت هي ايضا تلهث. قال بصوت شاك، مختنق :

«اتركيني، بقول ليكي، اتركيني!» .

حاولت ان ترفعه عن الارض فلم تستطع . ثم ارخت يديها قليلا لترى وجهه، فامسك بكتفيها ودفعها، ثم انفلت منها وراح يعدو. كانت الفتاة قد سقطت جالسة. نهضت واخذت تطارده وهي تعربد بالضحك والصراخ. توعدته قائلة انه لو عاد مرة اخرى الى هذا المكان وعاود افعاله القبيحـــة فسوف لن يعود سليما الى امه. رآها خلفه، ممسكة طرف ثوبها بيدهـــا، وساقاها عاريتان، وهي تعدو وراءه، وتصيح : توقف يا ولد يا نصرانـــي، لـــن افعل بك شيئا، كنت امزح فقط. اقسمت انها لن تفعل به شيئـــا، ولكنه ابتعد عنها وقد اخذ يشعر بالامان . توقفت الفتاة وامسكت حجرا ورمته في اتجاهه . فعلت ذلك بطريقة الصبيان فسقط الحجر قريبا منـــه واخذت تواصل القاء الحجارة ولكنه كان بمنجى منها. يلتقط حجرا ويصوبها نحوها، كاد ان يصيبها، تفاجأ وتتوقف ثم تنطلق بسيل من البذاءات لـــم

يكن يعتقد قط ان فتاة يمكن ان تتلفظ بها .

شرب جرعة من كباية القهوة ففاجأه طعمها الغريب، ثم تذكـــر انــه اضاف شراب الروم اليهـا .

يستعيد ما حدث مع الفتاة البدوية، يصيغه من جديد محولا ايــاه الى حلم يقظة . رآها تنبثق من تلك الصخرة الرمادية التي تبرز من الهضبة الوعرة ، تبدو كتلة سوداء تنمو وتتحدد كلما اقتربت منه. تقف فـــي مواجهته، يطل من عينيها مرح جامح. تحيطه بذراعيها، ولكنه ينفلت منها بسهولة ويحيطها بذراعيه. يحس بضغط ثدييها على صدره فيرفعها اليه ويبادلها القبلات . تجوس يداه، تداعبان ظهرها برفق وهو يواصـــــل تقبيلها. عندما يشعر انها استسلمت تماما يحيط خصرها بذراعه ويسيــر بهــا الى الكهف. هناك يعريها برفق ويأخذها . يتابع الخطوات نحو العملية الجنسية باستمتاع غير متعجل الوصول الى النتائج النهائية .

يتجدد حلم اليقظة وقد اخذ مسارا ثابتا. ان ذلك اللقاء الذي لــم يتـم مع الفتاة البدوية سيظل دائما يجد منفذا الى احلام يقظته .

دق جرس الباب دقا تـمتقطعة ملحاحة فاختلج قلبه باللهفة. بدا له ان ما يحدث هو بداية تحقق المعجزة حيث انحلت صلابة قوانين العالــم فجاء ذلك الجرس لدفع الذكرى من منطقة حلم اليقظة الى الواقع المتحقق. عندمــا فتح الباب حاولت رغبته المستحيلة، الخانقة، اليائسة في تحقيق المعجزة، ان يلقي على تلك الكتلة المرتجفة الواقفة امام الباب تمؤ باستجداء لاهث، خشن صورة فتاة بدوية. كاد ان ينجح، كان عليه ان يفعل شيئــا مــا، مجموعة افعال صغيرة متتالية بسرعة وحسم حتى يتحقق ذلــك ـ ولكنه تردد، نسى ما يجب عليه ان يفعله، لم يكن يعرف اصلا مــا يجـب ان يفعله لان ذلك لم يكن يحتاج الى معرفة بقدر ما يحتاج الــى الهـام، فتبعثرت قدرته على التركيز : كوني تلك الفتاة! غير انه لم يكن مستعـدا، فافلت الخيط منه، وهجم عليه الزمان والمكان، احاطا به واماداه الى حيث يقف، فكان من بالباب رجل لا يكف عن الارتعاش. (يحيطها بذراعيــه، ثدياها يضغطان ...) ولكنها ظلت مجرد كلمات تنزلق فوق رسوخ الموقف.

قال الرجل من خلال لهاثه :

ـ « الظالمين ، الظالمين ....! » .

ويمضي، لا يبين، في همهمة متحشرجة تبتلع تحدد الكلمات . ثـــم مـد يدا قد احنى كفها الى اسفل مواصلا ارتعاشه وقال انه مصـــاب بالسرطــان .

ـ « سرطــان ؟ » .

ويتدفق الرجـــل :
ـ «الظالمين ، طردوني من القصر، الظالمين، علشان فقير ومش بتاع حركات ...» .
حاول ان يتحرر من حصار الرجل، ولكن الصوت اللاهث لاحقـــه ملحا، ثقيل الوطء : سرطان (ويمد ذراعه على زعم انها مشلولة) والطـرد مـن القصر العيني، وعنده تسعة أولاد، وزوجته شيء ما غير واضـــح بحدث لهـا ...
قال لـه بحـدة :
ـ « كام ولـد ؟ » .
توقف الرجل عن الاهتزاز ونظر اليه بدهشة، وقال بصوت خـــلا مـن حماســه السابـق :
ـ « ربنا يخليك يا بيه، يطول لك عمرك..» .
ـ « بسأل كام ولد عندك » .
ـ « تسعـة » .
تردد الرجل قليلا ثم قال انه عائلهم الوحيد. قال ذلك وهو يلتفـت خلفه. امسك هو بالباب وقال للرجل :
ـ « شكرا » .
ثم اغلق الباب وعاد الى حجرة النوم . (فكرته ـ هذا المتشرد الوقح ـ عن السرطان ساذجة للغاية. ما العلاقة بين اصابته بالسرطان وكون يـده مشلولة ؟ ماذا قلت ؟ اقول : ربما اراد ان يقول انه مصاب بالسرطـــان، وانه بالاضافة الى هذا يده مشلولة. ولكن لو اكتفى بالسرطان وحده لكان ذلك اوقع، فليروح في ستين داهية، ليست مهمتي ان اعلمه كيف يتقن اساليب الشحاذة، فليذهب الى الاشقاء السواح فســـوف يعطونـــــه سوتيانات بثمن رخيص .. بالفعل سوف يكون تاثيره اشد لو انه وقــف بالباب بكل هدوء وقال : انا جائع .. وانا مالي .. فليغر عني ..) .
عاد الى السرير : لقاء عشق . كانت الذكرى ـ حلم اليقظة ينتظرانه هنالك . اكتشف بخيبة امل انه لم يعد راغبا في الاستمرار بهما. اخـذ غيظه يتصاعد على الشحاذ (هذا البواب الذي لا يفعل شيئا ســـوى ان ينهض ويقول : صباح الخير يا بيه ومساء الخير يا بيه ...! كيف يسمح لمتشرد مثل هذا ... بقولك ايه يا حاج ، يعني الواحد الصبح في يـــوم الجمعة عايز يرتاح له شويه، تقوم ... يجب ان اهبط الى البـــواب واطلب منه ان يشتري لي افطارا وصحيفة الصباح، الا يستطيـع الواحد في يـوم الجمعة ان يرتاح قليلا ؟! الا تعلم ...) .
شرب الجرعة الاخيرة من القهوة لقد بردت .

ـ ٢ ـ

البكـــاء علـــى الاطـــلال

يتمطى في السرير يلم الغطاء حول جسده ويحكمه . يفكر انه اصبح شبيها بمومياء فرعونية. ماذا كنت اقول؟ فرعونية، موميـــاء فرعونيـــة. يترقب حركة عزة في المطبخ. يعلم ـ يتذكر فجاة ـ ان عزة ليست هنـــا، لـــن تجيء اليوم ولا في الايام القادمة . يستكن في السرير، لا يفكـــر في شيء ، وينتظر المستحيل : ان يدق جرسها ويدور مفتاحها في البـــاب ـ تفعل الاثنين سويا في العادة ـ . يمسك تنفســه ليصغي .. يعلم تمامـــا ان لا فائدة ، ولكنه يترقب همس المفتاح وهو يوضع بثقب الباب .. قالت انهـــا تخاف ان يدق جرس الباب فيصحيه من النوم وينسى انها موجودة فيفتح الباب. قال لها ان هذا يستحيل حدوثه، وحتى لو حدث، فمـــن يزوره لا يدخل حجرة النوم، وبالمناسبة، هل تخاف ان يعرف احدا عـــن علاقتهما؟ تقول لا، لا تخاف. انها ليست من النوع الذي يخاف، فهـــي عندمـــا تفعل شيئا فهي مستعدة ان تدافع عنــــه. ليس هذا ما تعنيه، ولكنهم عندما يأتون ويفتشون فلن تخفى عليهم .

قال لها انها صديقة تزوره، هذا ما سوف يقولانه . قالت ، فعـــلا، صديقة تزوره عارية في السرير. قال لها انها اذا كانت تعتقد ان هـــــذا الوضع مهين لها، فليتزوجا .

ترد بعصبية انها لا تريد ان تتزوج، لماذا، ليه؟ لانها لا تريد وهـــــذا

كل شيء. تضع يدها على فمه وتقول :

ـ « علشان اريحك مش عايزة الجوز دلوقتي» .

يصمتـــان .

متمددة على ظهرها باستقامة ، اللحاف موضوع تحت ذقنها، قدماها ترفعان اللحاف من طرفه الاخر، تطالع السقف بنظرة ثابتة. كانت متأهبة للشجار. يكبح رغبته في تقبيل وجهها. كان فرحا بها للغاية. وجههـــا عندما تكون غاضبة يدفعه للضحك. ترمش عيناها، تتنهد، انها تعود .

ينحني فوقها. يرفع الشعر عن جبينها، يتأمل وجهها ، ثم يقبلهـــا، يقـــول :

ـ « شكلك زي العبيطة وكلامك اهبل و ...» .

ـ « عايزه اشرب شاي » .

يرتعش جفناها. يداعب شعرها باصابعه، وهو يدقق النظر فـــي وجهها. عيناها هاربتان منه، يقول :

ـ « وبليـــدة كمـــان » .

تقـــول :

ـ « حانام شوية ولما تخلص الشاي تصحيني» .

تدير له ظهرها وتطوي ساقيها. اشبهت صورة الجنين في داخـــل الرحم الذي في كتب الطب. يقول :

ـ « ولمضة كمان، وايه كمان، ايه كمان، وعبيطة وبليدة، وايه كمان، كمـــان ...؟ » .

تلتفت اليه، وجهها جاد ـ الجدية قناع تخفي وراءها معابثتها، وتقول:

ـ « مش ممكن عبيطة ولمضة في نفس الوقت » .

ـ « ليـــه ؟ » .

ـ « مش ممكـــــن » .

ـ « مش ممكن ليه يا أخت عزة؟» .

تتحرك شفتاها دون صوت. تتأتيء «عل.. علشـــــان» وتصمت . جفناها يرمشان بمحاولة الكلام . ثم تصاب بالجنون دون تمهيد. تقبلـــه، تشد شعره، تضرب كتفه عدة مرات بقبضة يدها، ثم تقبله وتقرص خده. وجهها في وسط شعرها المنساب وجه طفلة، وجسدها الفتى المرن يختلج بعنف وحيوية، وهي خلال ذلك تقول :

ـ « انت عبيط واهبل وبليد وغلباوي وعبيط وبليد ولمض وغلباوي واهبل، وما فيش غير ازاي وليه ومين ولعل وعسى وازاي وازاي ودقنك

خشنـــة ... » .

ــ « يا مجنونـــة ... ».

وتمضـــي :

ــ « وحا ادبحك وحاموتك .. » .

ــ « يـــا مجرمـــة » .

ــ « وحاعملك كفتة واخليك تعرف ان الله حق، وتعــرف الاخــت عزة تبقي مين ...» .

وتضع كفيها على كتفيه وتضغط : « تحرم ؟!» ثم تقفز من فوقـــه بمهارة لاعب الجمباز وتسرع الى الخارج، ثم تناديه من المطبخ :

ــ « بتشرب شاي ؟ » .

ثـــم تكلـــم نفسهـــا :

ــ « ما انت بتشرب اي حاجة» .

ثم يعلو صوتهـــا :

ــ « مية المطر نزلت من تحت باب المطبخ. فين المسحة ؟ عارفـــة، عارفة حاتقول ايه » .

ــ « حاقول ايه ؟ » .

ــ « مش سامعة !عارفة حاتقول ما تكلمينيش لما يكون كل واحـــد في اودة . بس المطبخ مش اودة يا حلو. اسال لجنة تقدير الايجـــارات اذا ما كنتش مصدق ...» .

يسمعها تتحرك في داخل المطبخ وهي تهمهم. يقدر انها تضع المسحة تحت الباب لتمنع تسرب المياه من الخارج. يتصورها تفعل ذلك فيكربـــه بعدها، يشتاق لقربها منه، الى تأكيد حبها له. يبلغ ذلك حدود اللوعـــة والالم. يبدا انها لن تنتهي ابدا من ذلك المطبخ، ينادي :

ــ « ايـــه ؟ » .

يسمعهـــا تقـــول :

« حسن جـــدا ».

فيعلم انها انتهت من وضع المسحة تحت عقب الباب . يسمـــع خطواتها خفيفة، سريعة. واندفاع الماء من الحنفية . تغني وكأنها تلقـــي خطبـــة :

ــ « طبعا ما انا امالبطل..».

لتوقف فيناديهـــا :

ــ « ايه بالضبط اعتراضك على شريفة فاضل ؟ » .

لا تــرد .
ينـــادي :
ـ « ما بتغرديش ليه ؟ » .
ـ « قلت ايــه؟ » .
يقــول :
« وطرشا كمــان . بقول ايه اعتراضك على شريفة فاضل على وجه التحديد ؟ » .
ـ « انا مش معترضة عليها

«Iam against her raison d'etre (1)

- « Trying to he brilliant ?» (2) .

- « No, Just philosophical » (3) .

يتذكر عندما راى عزة لاول مرة. بدا وجهها مالوفا له وفجـاة غـاص قلبه. (لا يمكن ان يكون ذلك حقيقيا، من المستحيل ان يكون ذلك حقيقيا) كانت هي نفسها الفتاة التي احبها يوما ما، منذ خمس عشرة سنة. كـان يعرف تماما انه كلما تاملها اكثر فان التشابه سوف يزداد بينهما. احنـاءة الراس عندما تسير والمشية المسرعة، واهتزاز الجديلة متواقتا مع ايقـاع خطوها ... كاد ان يصرخ وهو يشهد ذلك مناديا :
«نادية ! » .

واختلطت في ذهنه الاماكن. يكاد يرى في اعتصام الطلبة في ميدان التحرير امتدادا لذلك المعسكر الذي كانوا يتدربون فيه ايـــام العدوان الثلاثي ... يحاول ان يستعيد احساسه بالواقع ولكنه ينفلت منـــه ، يتسرب الميدان وحشد الطلبة الى ذلك المعسكر البعيد في منطقة القنال. «هل يعود للحياة بعد ذلك الموات الطويل؟ هل كانت هذه السنين العشرة التي مرت مجرد حلم مزعج وانتهى؟» . كانت ترتدي بلوفر أسود برقبـة وكمين طويلين وبنطلون قطيفة كحلى. لم يكن يبدو انها مهتمة بالنقـاش السياسي الذي يدور، بل كانت تتنقل بين مجموعات الطلبة بروح عمليـة للغاية. لقد ظلت في الميدان حتى الخامسة صباحا حيث اعتقلت .

كانت عينه تلاحقها اينما ذهبت. وكان يستطيع تمييزها على الفور مـن بين الالاف (يتذكر نادية في تلك الندوة الاسبوعية، كان الجميـع

---

(١) انا معترضة على علة وجودها .

(٢) اتحاولين ان تكوني ذكية ؟

(٣) لا، مجرد حالة فلسفية .

يتناقشون ويتصارخون، ولا احد يصغي للاخر. اما نادية فقد كانت تجلس صامتة، متميزة، وجهها الساكن الحساس يبدو جديداً في كل لحظة وكانت بشكل يصعب تحديده تبدو وحيدة وخارج هذا الجو ـ كانت الوجه الذي تتركز عليه الكاميرا في جمع حاشد ـ ... يتذكر نادية : عندما كنا نكلمها، كانت وجوهنا تتقلص وتئن بالحماس والتوتر واللهفة بينما هي تجلس بيننا شامخة، ممتدة، واثقة تصغي. لو مدت يدها في وسط هذا الجو المتوتر المغبش لساد الصمت، واختفى دخان السجائر، وتلاشت رائحة الاجساد الحرّيفة ...) يلاحق بنظراته تلك الفتاة بملابسها السوداء ينتظر المعجزة منها، ان تمد يدها وينتهي ذلك الحلم المزعج الطويل ، ذلك الكابوس، تلك الحياة التي تعانق الموت في كل لحظة .

يسمعها تغني «طبعا ما انا ام البطل». لم يكن اتقان الاداء احد ميزاتها . تناديه :

ـ « صوتي حلو ؟ ».

ـ « مذهل » .

ـ « شكرا » .

ـ « ممكن استغلاله لتطفيش اليهود من سينا » .

ـ « شكرا . عايز تحكي نكتة عبد الحليم حافظ ؟ » .

كان قد حكى لها نكتة، ان احد اساتذة الجامعة سمع عبد الحليم حافظ يغني، فقال له :

ـ « صوتك كويس . ما بتغنيش في الاذاعة ليه ؟ » .

وقد حكاها لها اكثر من مرة ، وقد نبهته الى التكرار واصبحت بعد ذلك تقول له :

ـ « غريبة قوي، النهار ده ما قلتش نكتة عبد الحليم حافظ للمرة المليون » .

كانت تواصل خطبها الغنائية :

When the poor hath cried, Caesar hath wept (1). Wasn't it nice of him to do ust that ?» (2) .

قال :

ـ « فعلا، كان قيصر كويس كتير، بس رغاي وبيقعد عشرين ساعة

---

(١) «عندما تأوه الفقراء كان قيصر يبكي» من خطبة انطونيوس في مسرحية شكسبير يوليوس قيصر » .

(٢) الم يكن لطيفا منه ان يفعل هذا الشيء بالتحديد ؟

علشان يعمل كباية شاي » .
ـ « وكان عبيط ؟ ».
ـ « كـــان » .
ـ « ولمض ؟ » .
ـ « لمض قوي » .
ـ « وبليد، وكل شوية يقول ازاي ، ازاي، وليه يا اخت عزة، ويقول النكتة الف مليون مرة ؟ » .

في ميدان التحرير كان رجال الاتحاد الاشتراكي ينتشرون بين الطلبة يناقشوتهم ويحاولون اثناءهم عن الاعتصام :

ـ « قبل ما تقول نحارب ونطلع اسرائيل من القنال لازم نبطل منظره».
ـ « يعني ايه ؟ » .
ـ « انت طالب في كلية ايه ؟ » .
ـ « فــي الهندســة » .
ـ « تقدر تقول لي كام طالب بييجي الكلية بعربية ملاكي يتمنظـــر بيهـــا ؟ » .

يتدخل طالب :

ـ « اللي بييجوا الكلية بعربيات مش موجودين هنا، اطمئن» .
ـ « طيب، قبل ما تقول نحاربه . . .» .

كان هو قريبا منها عندما وجه احد رجال السلطة الحديث اليهــا . اصغت اليه بصبر وادب وعندما انتهى لم ترد بكلمة واحدة:استدارت ومضت بمشيتها المتعجلة وقد احنت راسها قليلا . عندما رآته هو حيته بحركـــة خفيفة من راسها. اذهلته المفاجاة فارتبك ولم يرد تحيتها .

★ ★ ★

تاني في الضباح. يكون هو نائما. الجرس يدق دقات متقطعـــة، سريعة . يفتح لها الباب ويسالها ان كانت قد ضيعت المفتاح. تدخل وتقول:

ـ « لســه نايم ؟ » .

تجلس واضعة ساقا فوق ساق، قدمها العليا تهتز بعصبية، وتقول:

ـ « حاسة اني بتخنق ..» .

ولا تضيف شيئا. تكون عدوانية في البداية دائما. يفكر وهو يحلــق ذقنه في نادية. عندما كان يصحو في الصباح كان يجدها قد نظمت الشقة واشترت الافطار واعدت الشاي «اما هذا الجيل ..» ويبتسم لنفســـه،

ثم يكتشفها واقفة بباب الحمام تطالعه وهو يحلق ذقنه، وجهها جاد منذر بالغضب، تقول انها قررت ان تسافر الى اوروبا في الصيف، وتضيف بحدة :

ـ « عارفة ، عارفة حاتقول ايه ... » .

ثم تختفي .

يخرج من الحمام يراها واقفة، عابسة، تتأمل الكتب، تلتفت اليه وتقول :

ـ « عليها تراب كتير » .

ثم تتأمله :

ـ « ما لبستش هدومك لسه ؟ » .

في الشارع تقول وهي ما تزال منقبضة انها سوف تأتي يوما في الصباح وتنظم الكتب وتزيل التراب منها، ولكن ذلك المشروع ظل دون تنفيذ ... يتذكر السير مسافات طويلة على الاقدام. لم يكن ما بينهما حوار متصل . كانت تسير صامتة، مستفزة، ثم فجاة دون مقدمات تحكي ما حدث في الكلية مثلا او في البيت. كان يحب حكاياتها، يستطيع ان يصغي ساعات طويلة لها باستمتاع .

كان دائما يستغرب ـ ونادية في خلفية تفكيره ـ كيف تستطيع عزة ان تحب بعنف وان تمارس الجنس والحياة بحدة وان تكون غير قادرة على منح المودة والحنان في الوقت ذاته . يفكر : «جيل من الشياطين هذا...» ... يدخلان اقرب مطعم فول (لم يكن الطعام بالنسبة لها اكثر من ملء المعدة)، والجلوس على كازينو، ثم مواصلة المشي، ثم الجلوس على المقاهي مع شلل المتناقشين في السياسة، وبعدها الغداء في المطاعم الرخيصة او الاكتفاء بسندويتشات الطعمية والفول .

في التاسعة مساء تكون قد اسلمت الروح. يكونان جالسين في كازينو (قصر النيل)، تمسك هي الولاعة بين ابهامها وسبابتها وتديرها بينهما. عيناها تراقبان الولاعة وهي تدور بغيا بـواستغراق . في وجهها ذلك التعبير المنسحب الذي يضع العالم بين قوسين. في تقاطيع الوجه ـ في الانف والعينين خاصة ـ رقة والتهاب كأنها انتهت لتوها من البكاء. كان ذلك يكسبها جلالا من نوع خاص. تتثاءب باستمرار دون ان تبعد عينيها عن حركة الولاعة بين اصبعيها. عندما تنتهي من التثاؤب تبدو وكأنها انتهت من شجار عنيف كانت هي فيه الطرف الاقوى وقررت بعدها ـ ثقة بالنفس وكبرياء ـ ان تلتزم الصمت الكامل وان تتجاهل الخصم كلية .

في تلك اللحظات تصبح خطرة للغاية تستفزها الى اقصى حد عبارات التودد . يكفي ان يسألها ان كانت جائعة او هل تريد فنجانا من القهوة حتى تثور وتصبح جارحة. وتجعله يشعر بأنه اصبح جدة سنتيمنتالية .

تقول دون ان تنظر اليه (كانها تحدث نفسها) انها عندما تعود الى البيت فسوف تتشاجر مع اخيها اربع ساعات. تضيف، اربع ساعات على الاقل، وتتثاءب. ماما تحاول تهدئتهما، ثم تصاب بحالة هستيرية بعد قليل. تمسك بخصلة من شعرها وتلفها حول سبابتها وتتثاءب. تحاول ان تمسك بوسطاها خصلة اخرى ولكنها كانت تفلت منها باستمرار . اخذ يتوتر. فكر ان يلف تلك الخصلة حول اصبعها الاوسط وينهي الامر، ولكنه كان يعلم انها في حالة غير مناسبة .

يقهره انفصالهما. يشتاق الى تقبيل عينيها الملتهبتين قليلا ، يده جائعة لملامسة شعرها، لتخلله باصابعه . ولكنه لا يفعل شيئا. يفكر وهو يتاملها : (كان لم يكن بيننا اية علاقة ... كاننا خصمان حتى الموت ولكننا نحافظ على المظاهر). يعزم ان يحدثها عن ان جوهر الحب هو الحنان والمودة، ولكن ذلك يبدو خارج السياق، لو قاله فسوف يتشاجران .

تتحدث عن اخيها بكلمات متقطعة وهي محنية راسها. تقول انه سوف يتشاجر معها لانها تأخرت. كأن الواحدة لا يمكن ان تمارس الجنس الا بعد السابعة مساء. تقول انها قالت له ذلك مرة فلم يستطيع ان يرد. تدير الولاعة بين اصبعيها وتصمت قليلا، تتنهد، ثم تقول :

ــ « يا ريته يتخانق معايا نص ساعة بس، ويسيبني بعد كده انام».

يقول لها ان عليها ان تكون اكثر مرونة. اسف على العبارة بمجرد ان نطقها . اضاف :

ــ « الواحد كان لازم يقول جاحة » .

لا ترفع رأسها ولا ترد . يقدر انها لم تسمعه . يؤلمه ذلك . تنفجر ضاحكة فجاة :

ــ « اشمعنى نص ساعة بالتحديد ! » .

تنتعش وتتوهج . تنظر اليه ضاحكة، وتنادي الجرسون تطلب منه فنجان قهوة، تطلب اليه ان يأتي به قبل ان تمر سنة كاملة . ها هي قد خرجت من حالة المونولوج التي كانت بها. يقول لها لقد هرب حمار النوم. تقول : «ايه؟» ولكنها سمعته فتقول ان تعبير «حمار النوم» تعبير لطيف، لم تسمعه من قبل، ثم تضحك ضحكها المعدي، فيضحك هو .

ومثل كل مرة، تعود الى البيت في الواحدة بعد منتصف الليـــل. يمسك بذراعها عندما يعبران الشارع فتنزعه منه بعنف، وامام باب العمارة التي تسكن فيها تكون متوترة، متعجلة ، عيناها المراهقتان تطالعان الشارع بنظرة رصينة. وكالمعتاد لا تقول كلاما لطيفا عندما تودعه بل تهمس بسرعة:

ـ « حاكلمك بكرة » .

ولسرع عبر الباب . يرقب قامتها الرشيقة وهي تصعد السلم، راسها منحن، ومشدودة الجسد. تضغط على زرار المصعد فيصلصل على الفـور ناشرا مظلة من الضوء الاعمش. ترفع راسها وتنظر اليه، فيرى المنظـــر الجانبي لوجهها، ويفكر انها تبتعد. قبل ان تدخل المصعد تلتفت اليــــه، ترفع يدها وتحرك اصابعها كأنها تعزف لحنا سريعا على البيانو. ابتسامة مغتصبة، مجاملة، على وجهها الجنائزي .

لا يبحث عن تاكسي على الفور، يتمشى قليلا، محاولا ان يستعيـد السكينة من خلال السير السريع في الشوارع الخالية. يفكر في ناديـة. في مثل هذه الساعة كانت تدعوه للصعود معها، وعندما يصعد كانت تحتفل بـه. تكون رقيقة، رقيقة ... اين هي الان؟ اين انتهت بهـا الايام ...؟ يسرع في المشي ويفكر : لم يعد هذا العالم عالمي .. يلسعه اشتياق الـى الجبال والوادي العميق، والنهر ينحدر من جبال عالية ويندفع نحيـــلا، متعرجا في الوادي، يشبه الخرائط المرسومة له في الكتب .

ـ ٣ ـ

الشعــور بالذنــب

يحاول الا يتذكر ذلك، ولكنه يلح عليه. ينهض من الفراش يتمشــى قليلا، يعيده الى السرير البرد وخوف ان يصاب بالزكام .

ـ « ما بقتيش صغيرة .. ولازم تفكري في مشكلة حياتك» .

ـ « حياتي ما فيهاش مشكلة » .

ـ حياتنا كلها مشكلة، بس انت بشكل خاص ...» .

ما الذي بالفعل سوف يحدث لرحمة عندما يتقدم بها السن وتصبح عجوزا سمينة مترهلة، عندما يزهد بها العشاق والباحثون عن المتعة فلا تجــد من يأويها . «حاعيش في بيت ابويا». عليه ان يتقبل هذه الاكذوبة ـ ذلك الاب الذي دفعها الى هذا الطريق والذي لا يكف عن ابتزاز النقود منها ـ . «بس بابا مش حايعيش للابد، دا راجل عجوز..» تشعل سيجارة وتشرب كاس البراندي دفعة واحدة، تقول :

«كفاية بقى، زهقت من الزن في الموضوع دا ...» .

لم تكن تستطيع الاحتفاظ بأية نقود، كانت تبعثرها بمجرد ان تقــع في يدها . ولم يكن لديها اية مهارات ـ سوى المهارة القديمة قدم الانثــى ذاتهــا .

مرة قررت ان تتعلم الضرب على الالة الكاتبة . كان حماسها لذلــك جارفا. دفعت تكاليف ستــة شهور مقدمــا . لامها وقال لهــا انه كـــان

بامكانها ان تدفع شهرا بشهرا. ترد انها فعلت ذلك حتى لا تدع لنفسها مجالا للتردد او النكوص. في اليوم الاول ذهبت وامضت ثماني ساعات تتعلم . قالت انها لم تكن تتصور ان التعلم سوف يكون سهلا الى هذا الحد. كادت ان تتقن الكتابة في يوم واحد. ثم ذهبت في اليوم التالي، وانقطعت عنها تماما بعد ذلك. (قالت انهم رفضوا ان يجعلوها تتعلم على الالة التي تعلمت عليها في اليوم الاول). تصبح عصبية وعنيفة ، وقد تندفع الى حالة هستيرية تنتهي بالبكاء، اذا ذكرها بدروس الالة الكاتبة.

ـ « حارجع لك الستة جنيه اللي دفعتهم لي ومش عايزة كلام تاني في الموضوع دا ...» .

كانت عاجزة عن التفكير في الغد. قال لنفسه مرة : « انها تؤمن هي الاخرى بالمعجزة». ولكنه عندما يفكر في ذلك الان يعتقد ان رعب غدها كان ماثلا امامها على نحو لم تكن تستطيع ان تفكر فيه ابدا باي قدر من الهدوء والموضوعية . مرة شربا كثيرا. توقف هو، ولكنها هي واصلت الشراب وحدها. نام وصحا وهي ما تزال في الحجرة الاخرى تواصل الشرب. وقفت امام السرير، وقالت :

ـ « فيه عندي سر حاقولهولك يا حضرة المثقف ..» .

قال لها :

« خشي السرير، الدنيا برد ...» .

قالت له أنها تفهمه تماما ولكنها سئمت من ممارسة الجنس في كل وقت. قال لها انه بانتظار ان تتحدث عن السر . قالت انه دائما يريد شيئا ما. قال، افعلي، اذن ما تريدين. وادار ظهره لها وجذب اللحاف حول جسده . دخلت بجواره، وضعت مخدة تحجز برودة الجدار عنها واتكات عليها برأسها واخذت تدخن بنهم. ثم باحت له بالسر. قالت انها عندما تصل الى مرحلة ... تتوقف قليلا ثم تقول ... «مش مهم...» . لم يفهم من كلامها ان ما تعنيه هو عندما تصل الى مرحلة يزهد بها فيها العشاق فانها سوف تفتح عشر زجاجات ويسكي وتدعو أصدقاءها، وتشرب، وتشرب حتى تفقد الاحساس بكل شيء، ثم سوف تنتحر امام الجميع. في نهاية هذه الحكاية كانت تجذبه من كتفه بعنف وتقول ان شبحها سوف يظل «يؤرقكم طول عمركو» ويقول لنفسه وهو في حالة غثيان «انا اللذي شجعتها على قراءة هذه الروايات الرديئة..». افاضت ليلتها في تفصيل هذا السر. ذكرت اسماء المدعوين واحدا واحدا. سوف تكون مرحة في البداية، بتحفظ، ولطيفة معهم لطفا ورقة لم يعهدوها من

قبل. وفجاة تقول للمدعوين : «مش عارفين ان الليلة ليلة فرحي». فلا يفهم احد معنى ذلك. ثم تقول كلاما يكتشفون فيما بعد انه يتضمن قرارها بالانتحار. ثم تدينهم جميعا واحدا واحدا، لقد اخذوا منها ما يريدون ثم اداروا ظهورهم لها. تمد سبابتها : « انت . . . » قال لها انها اجمل شيء في حياته، ثم بعد ذلك ماذا حدث ؟ «وانت .. امراتك مش بتفهمك ... مش كده ؟ انا الوحيدة اللي بتشعر معها الخ...». ثم تغيب عنهم لحظة قصيرة وتعود ومعها ذلك الخنجر المزخرف الذي تحتفظ به في الدولاب وتسدد هنا، في موضع القلب (الواقع انها لم تكن تشير الى موضع القلب بل الى منتصف المسافة بين نحرها ومفرق ثدييها). تسأله ان كان سيبكي عليها وان كان سيذكرها كثيرا؟ يطلب اليها ان تتوقف عن هذا الهذيان، ولكنها تثور :

« حتى مش عايز تجاملني ؟ » .

ثم تتلبسها حالة هستيرية .

لم يكن ياخذ ذلك بشكل جدي، ولكنه كان يخيفه، ويدفعه ان يلح عليها ان تفكر في مشروع تؤمن به مستقبلها .

المستقبل؟ انه يحس به في جسده ، يحس بالهدم الذي لن يرمم ابدا. لم يكن يستطيع ان يفكر فيه سواء بالنسبة لنفسه او للاخرين دون فزع .

★ ★ ★

اخذ الملل يتخلل علاقتهما وينخلها نخلا. يكاد يستطيع ان يحدد تاريخا لبداية ذلك. لقد استهلكا علاقتهما في فترة قصيرة. ما بين الحديث المتصل، وممارسة الجنس، والشرب، والجلوس في الكازينوهات لم يكن يجد وقتا كافيا للنوم. في لحظة ما من اوقات الليل او النهار يكون فيها جالسا على الكنبة، او متمددا على السرير وهي في الحمام يغشاه النوم كانه حالة اغماء. يصحو دون ان يعرف انه نام، ولكنه يجدها جالسة، مرتدية الروب وهي تشرب. يرى منفضة السجائر ممتلئة بالاعقاب. يسالها ان كان قد نام، تقول بضيق :

ــ « انت نمت نوم ..!» .

ــ « نمت كتير ؟ » .

تقول له انه نام ثلاث ساعات على الاقل، وتنظر في ساعتها، تحسب، ثم تقول :

ـ « اكثر من ثلث ساعات » .

تضيف ان كل محاولاتها لايقاظه قد فشلت. يلاحظ انهـا فتحـت زجاجة براندي واستهلكت اكثر من نصفها. تنهض وتقترب منه وتقـول وهي تضع زجاجة البراندي والكأس على الكومودينو :

ـ « خشي جوه يا حلوة خليني انام جنبك » .

ويبدأ كل شيء من جديد .

وفي يوم جاء من الخارج. كانت تجلس على الصوفا، متكئة بكوعهـا على مخدة وضعتها جوارها. نهضت بحيوية وكأس البراندي فـي يدهـا وعانقته بلهفة يختلط فيها السكر الذي لم تكن تصحو منه والتخلص مـن الملل . قالت :

ـ « تأخرت يا مجرمة » .

كانت رائحة البراندي في فمها لا تطاق. ابعدها عنه وقال انـــه يختنق. سقط وجهها وعاودت الجلوس. قال لها انه صعد السلم علــى قدميه بسرعة. ولكنها لم ترد ، ظلت تحدق في كأس البراندي وتبـدو كطفلة على وشك البكاء . لم يحاول ان يعتذر. لم يكن يستطيع ذلك . كان يفكر : «الى متى يستمر الاغراق في الخمرة والسهر والجنس؟ انه لـم يخلق لمثل هذه الحياة » . اما هي كما بدا له فانها تستطيع ان تستمـر هكذا لما لا نهاية. وحاول في داخله ان يجعل من ذلك قضية هامة وحـادة حتى يتغلب على شعوره بالذنب .

قالت بصوت مريض ، هادىء، بطىء كأنها تخاطب نفسها انه لم يكد يمضي على علاقتهما ستة شهور وها هو يفعل كالاخرين : يرتوون منهـا ثـم يودون ان يتخلصوا منها باسرع ما يمكن .

قالت ذلك بعبارات جارحة، واكثر صراحة من هذه. كان ذلك مؤلما للغاية وظالما، وقال ذلك لها. قال لها ايضا ان الانسان لا يمكن ان يكـون فـي كل الاوقات في حالة واحدة. كل ما يريد قوله ان هنالك اعمـالا اخرى بجانب الحب. تألم كثيرا ان يصبح تكرارا للاخرين الذين كلمتـه عنهم والذين ادانهم في اعماقه .

قالت ان هذا شيء جديد. قال ما الجديد ؟ قالت انها تعطله عـن اعماله. انه يذهب الى عمله كل يوم تقريبا، وكانت دائما تحترم هـــذا. وليتجنب الشجار قادها الى السرير بسرعة. اصبحت هذه الوسيلة انجع السبل لتجنب نقار مؤلم وجارح .

★ ★ ★

مات الحديث بينهما. اصبحت تكثر من النوم. تصحو لتقوم ببعض الاعمال المنزلية وتأكل ثم تعود للنوم. كانت تأخذ معها رواية بوليسية تقراها في السرير، وكاس البراندي بجوارها وعندما تنهيها، تتمدد على ظهرها مفتوحة العينين الى ان تنام. عندما يحاول ان يفتح معها حديثا كانت تصغي اليه بادب، تتثاءب احيانا وتعتذر، وبمجرد ان يستدير ليذهب الى الحجرة الاخرى تعود الى الرواية البوليسية. واذا دخل الحجرة عليها مرة اخرى تكمل الجملة التي تقراها، وتضع الرواية على المخدة بجوارها، وترفع عينيها متسائلة، تنتظر ان يبدأ الحديث .

يتذكر عندما كان ياتي بعض الاصدقاء للسهر معهما. كان هناك تقدير عام لهذه العلاقة الحرة بين الاثنين وكانوا يعاملونها بمودة حقيقية. كانت تعد لهم الطعام والقهوة وتجلس معهم قليلا صامتة، تحرج كل من يوجه اليها الحديث، ثم تتثاءب وتعتذر. تقول انها مرهقة وتدخل حجرة النوم . اصبح وجودها يثير التوتر، وكانت تتعمد ذلك. وبعد ان ينصرف الاصدقاء كان يجدها متمددة في السرير كاس البراندي في يدها وتقرأ رواية بوليسية. يخلع ملابسه صامتا، غاضبا وتواصل هي القراءة باستغراق تام . كانت تجيد لعبة الصمت والتجاهل. وعندما يتمدد بجوارها كانت تضع الرواية مقلوبة على الكومودينو وتعطيه ظهرها وتنام.

يقول لها ان سلوكها مثير للاشمئزاز . تلتفت اليه بوجه محايد، متظاهرة بالدهشة وتقول :

ــ « حصل حاجة ؟ » .

يقول لها انه يتحدث عن طريقتها الفظة في معاملة اصدقائه وانصرافها منهم الى قراءة رواية تافهة. ثم تنفجر، تقول ان اصدقاءه لا يطاقون، كلهم وانت كذلك ينقصكم الذوق. فهي تجلس معهم ساعات طويلة دون ان يحاول احد ان يشركها في الحديث . (الواقع ان اصدقاءه لم يكونوا يفعلون شيئا اخر طيلة بقائها معهم سوى اشراكها في الحديث . ولكنهم قد تعلموا ان محاولتهم سوف تقابل من جانبها بالرفض) يقول لها ذلك فتقول انهم لا يعرفون كيف يتحدثون معها. لا يشغلهم شيء سوى الثقافة. تلفظ كلمة «الثقافة» باشمئزاز .

كانت في فترة علاقتهما الاولى تحب الحديث مع اصدقائه والاصغاء اليهم. اجتذب اهتمامها هذا الهجوم الذي يشنونه على المثقفين . لم تحاول ابدا ان تفهم السبب الذي يجعل المثقفين يهاجمون المثقفين. اصبح كل شيء يتعلق بالثقافة والمثقفين يثير اشمئزازها وجموح غضبها. ولم

تكتف بالخلط بين الثقافة والمثقفين الذين ينصب عليهم الهجوم، بل سحبت ذلك على كل شيء جاد في الحياة. لقد جعلها هذا الاعتقاد الذي كونته عن كلام لم تفهمه تماما تستعيد توازنها النفسي، وولد عندها قدرا كبيرا من الرضى. اصبحت ترد على الكثير من نصائحه لها حول الاهتمام بمستقبلها بقولها :

ـ « بطل عقد مثقفين » .

قالت مرة لاحد اصدقائه :

ـ « تصور عايزني ابقى مثقفة، عايزني اتعلم ماكنة » .

وكانت تأخذ ردود اصدقائه المجاملة حول امثال هذه الموضوعات ماخذا جديا للغاية، وتستشهد بها عندما يحاول ان يزيل هذا الخلط المضحك الذي كون عقيدتها، وبالتالي موقفها من كل شيء .

يرهقه التذكر فيبحث عن اللحظات المتعة في تلك العلاقة . حين يعود مقرورا في الليل كان يجد حجرة النوم مضاءة . (يعود حاملا اللاجدوى واستحالة الانجاز ، من المناقشات الطويلة والاتفاقات المؤكدة على مشروعات تنسى مع صباح اليوم التالي ـ « راحت عليا نومه » و « التليفون ما بيردش » و « مر عليا واحد عطلني » . . ثم يضيع كل شيء في فقدان للذاكرة يولد عذاب ضمير يدمر كل تماسك وثقة بالآخر ـ . . . يعود حاملا معه المياه الطينية الراكدة في شوارع بلا مجاري ، وارهاق المنتظرين المقرورين على محطات اتوبيسات لا تأتي، وشوارع شحيحة الضوء ، شبه مهجورة . . . يعود وفي حلقه طعم الليالي البيضاء : التهاب الزور والجيوب الانفية من رطوبة بيوت بلا تدفئة ، والسجاير ، وارتفاع نسبة الحموضة في المعدة ، والشاي الثقيل والقهوة السادة . . . يعود ضجرا لان كل خيبة الامل ، والعجز يتكرران بلا نهاية . . .) . حجرة النوم المضاءة ، ورحمه والسرير الدافيء معجزة مستحيلة ، ومتحققة في الوقت ذاته ، يندفع نحوها ملهوفا .

كانت رحمة تنام في الضوء لانها تخاف الظلام . تقول انها تختنق في الظلمة . لا استطيع ان ارى يدي حتى لو وضعتها امام وجهي، تقول. وفي كل ليلة في نومها يتكرر الكابوس ذاته: تفتح باب الشقة، استعدادا للخروج ، في الخارج ظلمة كثيفة ، متراكبة ، حية بالمتربصين في قلبها . تسمع همسهم كالفحيح ، وتستطيع ان تميز عبارة : « هيه دي . . اهه خارجة » تحاول ان تقول :

ـ « مين ؟ »

ولكن صوتها محتبس ، فلا تخرج . عندها تعلم ان كل السبل قد سدت امامها . تسرع بالخروج ـ تهرب ـ الا انها عندما تهبط السلم تكتشف ان بعض الدرجات قد ازيلت ، فتسقط ...

يكون احيانا مستيقظا ، فيرى تنفسها يثقل ، ثم تنبهر انفاسها وتطلق صرخة خافتة ، مختنقة .

تحاول النهوض وهي محملقة العينين . يناديها :

ـ « رحمة »

تنظر اليه بعينين لا تريان . يقول :

ـ « فيه ايه ؟ »

تقول :

ـ « رجلي اتكسرت » .

ثم تتنبه وتقول :

ـ « الكابوس »

ـ « تاني ؟ »

فتهز راسها .

تجذب قدمها من تحت اللحاف وتنظر اليها ، يضحك ، وتشاركه هي الضحك .

في اول الامر كان يعتقد ان باب الشقة الذي تخرج منه في الكابوس هو باب شقته هو . ولكنه تبين فيما بعد انه باب شقة اهلها .

لذلك كانت رحمة تنام في النور .

يكتشف ان قدميه باردتان . يسوّي البطاطين فوق اللحاف ، ويشده حوله . ماذا كنت اقول ؟ يجذب قدميه الى منتصف السرير ، الى منطقة الدفء . اجل ، تذكرت ، الكابوس . يصغي لردود فعله .. لا ، قبل ذلك . شيء يبعث السرور .. كانت رحمة تنام والحجرة مضاءة ... تذكرت .. اعود مقرورا ..

يدخل حجرة النوم ، فيجدها مضاءة . رحمة في الغالب نائمة في عرض السرير ، راسها يكاد يلامس الجدار ، وقدماها دفعتا اللحاف الى الطرف المقابل . يخلع ملابسه بسرعة ، يستحثه البرد الشديد والوعد بالدفء . يلمس كتفها فتصود براسها الى الخلف ثم تزحف عبر السرير بسرعة غريبة وتتوقف في نهايته . يدخل تحت اللحاف فتستدير ، مهمهمة ، وتضع راسها في صدره . يحدث كل ذلك وهي

مـا تـزال نائمـة .

يضمها اليه . تقول : « تأخرت فيـن ؟ » فلا يجيب لانه يعلم انهـا مـا تزال نائمة . انفاسها ، دافئة رقيقة ، مثل المداعبات الاولـى التـي تسبق جنون الرغبة ، تتردد في نحره وصدره . شعرهـا في فمه وانفه، يداعبه بذقنه ، يشم رائحته الخاصة التي يمازجها عطر خفيف . يرفـع شعرهـا من وجهها ، يقبلهـا قبلات خفيفة ، سريعـة وكثيرة على الجبين والعينين والانف والشفتين . الشفتـان طريتان ، ساخنتان كانهـا تعاني ارتفاعـا في درجـة الحرارة . تهمس شاكيـة :

ـ « كنت فيـن ؟»

تفتح عينيها باندهاش ، يبهرها ضوء المصباح الكهربائي ، فتغلقهمـا على الفور ، وتصدر عنهـا همهمات لها جرس سؤال وكلمـات مبهمة ، ثم تحني راسهـا وتخبئه في صدره ، محتميـة به مـن الضوء . تـزداد التصاقا به يكـاد اقترابهـا منه يكـون تشبثا . يحس بهـا على امتداد جسده اليفة ، مرتعشة ، نابضـة . يسالها :

ـ « عايزة تنامي ؟»

تقـول :

ـ « تأخرت »

قبلاتها خفيفة ، ساخنة ، سريعة . تقول بصوتها الشاكي ، الانثوي، الراغـب :

ـ « صحتني ليـه ؟ »

تنبثق الرغبة . كانت تحب ان يمارسا الجنس في تلك الساعة . يلتحمان ، مجنونين بالرغبة ، حتى الفجر .

يتذكر ، انه فيما بعد ، كـان يعود . تندفع نحوه ، فيضمها اليه. يمد يده ويطفىء النور . عند ذاك تهمهم :

ـ « تأخرت »

تنبثق الرغبة وتظل معلقة . لم تعـد بعد تلـك الرغبة الجنونية التي تجتاحه بحماها ، كمـا في السابق . اصبحت الان مقترنة بنتائجها: فترة الهمود ، والذهاب للحمام في هذا البرد . وهـو يعلم ان بدأ فلن ينتهيـا الا فـي الصبـاح .

يكتفي بضمها اليه ويستجلب النوم . تنتظم انفاس رحمة بعد قليل وتستغرق هي ايضا في النوم . متى حدث هذا التحول ؟ الاحداث واضحة في ذهنه ، ولكـن ترتيبهـا الزمني يختلط عليه ، ويضيع منه بالتالـي

سياق العلل والمعلولات . ولكنه يعرف انه اصبح يتاخر كثيرا .

في الصباح تساله متى عاد . لقد ادرك فيما بعد ما يختفي وراء هذا السؤال من كمائن . فاخذ لا يذكر ساعة محددة لانها بذلك تستطيع ان تكتشف كذبه . اصبح يقول انه غير متاكد ، لقد حاول ان يعود مبكرا ، لكن المواصلات « اكثر من ساعة وانا مستنى اي مواصلة ـ اوتوبيس، تاكسي، حتى عربية حنطور ، لكن ما فيش فايده .. » .. او اسباب قهرية اخرى تعرف هي مدى جديتها . كما اكتشف انه عندما يحدثها عن تعقيدات العمل فانها تضجر بسرعة ، ولا تعود تصغي اليه، وان كانت تتظاهر بذلك .

ولهذا اخذ في تلك الفترة يكثر من شرح مشاكل العمل فيما مناقشات طويلة ، مؤلمة .

في تلك الليلة ... يحاول الا يتذكر ...! ولكنها تتسلل اليه من خلال تحويل ما حدث في الماضي الى حلم يقظة يمكنه ان يعيد صياغته حسبما يشاء . وفجاة يتذكر بوضوح فائق .

لما عاد في تلك الليلة ، في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كانت الحجرة ، كما هو منتظر ، مضاءة . الا انه فوجىء ان رحمة ما تزال مستيقظة . جو الحجرة مضبب بدخان السجاير وهي مستغرقة في قراءة رواية بوليسية . تظاهرت انها لم تتنبه الى دخوله ، وذلك نذير يعرفه . حرك ذراعه كانما ليطرد الدخان ، ثم انحنى فوقها ، راسما تعبير دعابة على وجهه ، محاولا ان يقرأ معها في الرواية : « كان الصمت مطبقا وجذبت انتباهها حركة وراء الستارة ... » فادارت خدها ليقبله. لمسه بشفتيه مرات عديدة وعندما اقترب من اذنها ابتعدت قليلا ، وهي خلال ذلك تواصل القراءة والتدخين وتخرج الدخان من انفها . وقف ونظر اليها . كانت منفضة السجاير ممتلئة بالاعقاب ، ثم شاهد الاعقاب في كباية الشاي والطبق . كان يكره استعمالهما كمنفضة ، وهي تعلم ذلك تماما .

الجو منذر بالشجار ولم يكن هو مستعدا له . كان يشعر بالفرح ويبحث عن نسيان سريع لان هذا البرد اصبح حقيقيا ، فهنالك البرد والمطر وصوت العاصفة ـ اصوات قديمة ، مالوفة ، تثير حنينا لا يغالب الى البيت الكبير ورائحة العطور البدائية ورائحة البن ـ ولان الوعد بالدفء قائم وممنوح : المراة والسرير وكوب الشاي والسيجارة . ود من اعماقه ان تصغي وتستجيب لهذا النداء للسلام والمصالحة هذه الليلة .

وعد بينه وبين نفسه ان يجعلها ليلة خاصة لها .

ارتدى جلابيته الكمتور الثقيلة ليتيح لنفسه ملامسة جسدها وتمدد بجوارها . كن في حضنها كما يكن الطفل في حضن امه ، ولكنه كان يدرك انه يلعب لعبة لا يستطيع الاستغراق فيها. وضع وجهه في صدرها وقبل منبت النهدين وداعبهما بانفه ، ثم صعد بشفتيه الى نحرها ، تأنى ليحس نبضه هينا ، رقيقا على فمه ، ثم علا الى حنجرتها ، وشعر بها حية ، زلقة ، تتفلت من بين شفتيه . جذب جسدها اليه ، ذراعه يلتف حول خصرها ـ ذلك الاسفنجي اللدن، القوي ـ . لم تستجب له . كان ذلك مستحيلا ، لم يحدث من قبل قط . غشته خيبة الامل كانها موجة باردة واطفات الرغبة . اصبح كل ما يريده النوم ، الآن . مدت ذراعها فوق رأسه ، وعيناها على الكتاب، والقت عقب السيجارة في كباية الشاي . طشت السيجارة . راى راسها متفحما ، مدببا، يستقر في بقايا الشاي وراى الشاي يصعد ببطء وثقة، يصعد رماديا في جسدها الابيض ، الانيق ، ويتوقف عند بداية الفلتر .

تاهت افكاره في الرواية البوليسية التي كانت تقراها رحمة « كان الصمت مطبقا وجذبت انتباهها حركة وراء الستارة ... » اذا لم يكن المترجم قد اساء الترجمة فالجملة ضعيفة ... ان المؤلف يخبر القارىء فقط ولا يحاول ان يجسد له الصمت وحركة الستارة . كل ما يريد ان يقوله لنا ان المراة وحيدة وهنالك شخصا وراء الستارة ، اما كيف كانت المرأة تحس بذلك الصمت ، وبتلك الستارة وهي تتحرك فذلك ما لم يخطر على ذهن المؤلف المحترم. يفكر الان ان يبحث عن تلك الرواية، ولكنه كيف يستطيع ان يجدها وسط اكداس الكتب ، وهو على اية حال لا يعرف عنوان الرواية...البيت من ذلك الطراز الانجليزي القديم، والمراة جالسة في تلك الحجرة (هنالك ايضا قاعات واسعة ، والمكتبة التي يجلس فيها صاحب البيت، فيقتله المجرم كانها صنعت خصيصا لذلك) المراة جالسة تنتظر عودة الزوج ، الساعة دقت الواحدة بعد منتصف الليل ولم يات . يحاصرها الفراغ الواسع والصمت ، لم يجذب انتباهها حركة الستارة . كانت ترى ذلك ولا تفكر فيه ، لم انتبهت مذعورة الى ما يعنيه ذلك ... وراء الستارة .. خنجر ؟ (ما الذي ينتظره المجرم حتى ينفذ جريمته ؟) خنجر ؟ لا .. لا .. بل مسدس فيه كاتم للصوت ، او دبوس طويل يسلطه المجرم عادة الى القلب .. يضحك

فجاة عندما يتذكر فيلما جنسيا ، الرجل والمرأة يمارسان الجنس بهمة واندفاع غريبين ، وهنالك فتاة تقف خلف الستارة تراقبهما مهتاجة وهي تمارس العادة السرية ، يقفز الرجل بخفة ويرفع الستارة فنشاهد الفتاة في هذا المشهد الغريب، ولكنها تنظر الى الرجل برعب .. ماذا كنت اقول ؟ حركة وراء الستارة .. لا .. شفتاه تلمسان حنجرتها المنزلقة ، المتفلتة ، وهي لا تستجيب له .

ثم ...

ثم اخذ ينظر الى السقف ويصغي الى صوت العاصفة. فمه ممتلىء بالكلام، والرغبة تصعد مطالبة باكتفاء سريع، ثم تهبط مخلفة حالة فراغ تام. كانت تعرف ذلك وتتجاهله من خلال التحديق في صفحات الرواية. ويذكر انه كان خائفا، يغالب خوفه بوضعه في سياق محايد، كانه يحدث لانسان اخر : انها مشكلات المعيشة المشتركة .

اشعلت سيجارة اخرى، القت نظرة اخيرة الى الصفحة التي تقراها ووضعت الكتاب على الطرف البعيد من الوسادة. اخذت تدخن صامتة بعض الوقت، ثم قالت انه اصبح يتاخر كثيرا. لا تكاد تراه. صوتها هادىء، غير مكترث، وعيناها تتجاوزانه ولا تنظران الى شيء محدد. يعرف من تجربته هذا الصوت الهادىء الذي تداخله خشونة قليلة، ويعلم جيدا انه يخفي اقصى درجات التوتر وجموح الغضب .

حاول ان يتفادى الشجار بالثرثرة. المسالة طبعا كان يجب ان يكون هنالك، هي بالطبع تعرف ذلك، عارفة هي انه هو اول من اقترح ذلك المشروع، ولكن عليها ان تتصور نقاشا متصلا لمدة ست ساعات .. اية ست ساعات ؟ فلتقل سبع او ثماني ساعات، اليس كذلك؟ ثم لا شيء، ثم موعد اخر ليناقشوا كل شيء من جديد .. الجميع متوترون، لا احد يترك للاخر فرصة ان يتم جملته، (يضحك) مثقفون، (يتحدث ـ محتدا) شيء قاتل، شيء جنوني، حقيقة، فلتتصور، لم ينتبهوا الا اخيرا ان المشروع بحاجة الى مال ، سعر الورق طبعا، تعرف، جمع الحروف ، والكليشيهات، هي تعرف بالطبع ما هي الكليشيهات، الزنكوغراف ، ولكنهم رغم تظاهرهم بعكس ذلك، لا يعرفون شيئا عن هذه المسالة، بل هم لم يفطنوا، وهو منهم طبعا، ان هنالك مسائل مالية ... ان اي فهم صحيح، صحيح بمعنى عملي، يشير الى ان المسائل المالية اساسية، بالطبع هنالك حلول مستحيلة، مستحيلة لانها ساذجة، ان يضع كل واحد منا (يضحك) خمسة قروش في حصالة كل يوم ... وهنالك بالطبع اراء مثل الاتصال بالمجلس

الاعلى للاداب والفنون .. (يضحك) الا حكاية الحصالة دي ..

واستمر على هذا النحو، خائفا ان يتوقف ، كانت عيناها مسبلتين، وعلى وجهها تعبير الم. للحظة ادرك ما يدور في داخلها: انها تسمع دويا متصلا لا تصغي اليه لانها تلمس فيه ما وراءه من احساس بالذنب ورغبة في تفادي الشجار. قاطعته قائلة :

ـ « سمعت الكلام دا كله من قبل» .

ومضت، مسبلة العينين، تواصل تدخين سيجارتها. لم يقل شيئا عن هذا الموضوع من قبل، ولكن يبدو انها تشير الى طريقته في تتويه الموضوعات من خلال الاستفاضة في شرح تفاصيل العمل. قال وهو يضحك ضحكة كان يدرك افتقارها للمرح :

ـ «المثقفين؟» .

قالت بلهجة قاطعة :

ـ « انت بتهيالي زهقت».

ثم اضافت كأنها تكلم نفسها :

ـ «كنت عارفة ان دا حايحصل.. كلكوا كده...» .

ـ «ايه .. ايه الحكاية؟»

ـ «كنت بضحك على نفسي، بقول يمكن تكون مختلف عنهم .. القصد.. » .

ها هي تلعب لعبة شهيدة الذئاب البشرية الذين يخدعون الفتيات الغريرات . انه يعلم تماما اية فتاة غريرة هي! وبالرغم من هذا فانها كفيلة ان تكتب الى المجلات «في ساعة غاب فيها العقل وحضر الشيطان فقدت اعز ما املك». فكر ان هذا ليس هو الوقت المناسب لفضح هذا الابتزاز الممل . قال :

ـ «بس ايه علاقة اني زهقت بالكلام اللي كنت بقوله!؟ باين انك ما كنتيش سامعاني» .

ادرك انه اقرلها انه زهق. استدرك قائلا :

ـ «يعني لمجرد اني انشغل بموضوع انتي عارفة اهميته بالنسبة لي قد ايه فده يعني اني زهقت؟ همه كام ليلة .. يعني فيه مسائل معينة، مسائل بالذات انتي عارفة كويس قوي..»،

لم يجد ما يضيفه او ينهي به الجملة. نظر في عينيها ليرى مدى جديتها فزاغت نظرتها منه، وادارت وجهها راسمة عليه تعبير « لقد سئمت ذلك كله»، قال :

ـ «كنت بقول ايه؟» .
كانت عبارة فضح نفسه فيها. قالت :
ـ « مش فاكرة » .
ـ « عايز اقول .. » .
قالت :
ـ « ما ترهقش نفسك. ممكن لتتكلم لغاية الصبح وبرضة المسالة تفضل زي ماهيه.»
ـ « يعني ايه » ؟
ـ «انت فاهم كويس يعني ايه» .
ـ « مش فاهم » .
قالت :
ـ « بعدين حالفهم » .
ـ « بلاش الغاز وحياة ابوكي » .
ـ «انا فاهمة كويس قوي، فاهمة ان وضعنا بقي مستحيل،مستحيل ... مستحيل يستمر» .
قال وهو يعلم انه مهزوم :
ـ «ايه اللي مستحيل فيه» ؟
ادارت له ظهرها وواصلت القراءة. وضعت الكتاب جانبا مرة اخرى واشعلت سيجارة، ثم عاودت القراءة. حاول ان يقودها الى العملية الجنسية. استسلمت لقبلته الطويلة وبادلته اياها، ثم ابتعدت عنه، ووضعت يدها في شعره، وواصلت القراءة والتدخين باستغراق مبالغ فيه. حاول أن يجذبها اليه ولكنها ابتعدت وقالت له :
ـ «لما عايز حاجة ممكن تجيب واحده من الشارع بخمسين قرش».
ـ «اشمعنى خمسين قرش بالتحديد» ؟
لا ترد .
ـ «اشمعنى واحده من الشارع. واحده في السرير مش كفاية، والا ايه ؟ » .
على التو ادرك انه اخطأ، وهي باللذات، كما يعرفها، سوف تحمل عبارته اكثر مما تحتمل. طوت صفحة الكتاب التي كانت تقرأها،ووضعت الكتاب على طرف الوسادة ونامت .
لما عاد في عصر اليوم التالي، لم يجدها. حاول ان يقنع نفسه ـ دون ان يكون هو مقتنعا ـ انها ستعود بعد قليل. لا يوجد من مكان تذهب

اليه سوى بيت ابيها الذي لا تطيقه. خرج الى الصالة . بدا له المكان واسعا اكثر مما يجب. لفت انتباهه لمعان على مائدة الطعام . اضاء النور فاكتشف انه مفتاح الشقة، وتحته ورقة كتب عليها كلمتان :«شكرا. رحمة»

لا يريد ان يتذكر ما حدث بعد ذلك. كان مؤلما وكفى. يتقلب في السرير يبحث عن وضع مريح، يتوافق مع اشتياقه لرحمة ــ للدفء والجسد. لم يغادر البيت عصر ذلك اليوم، ولم يذهب الى العمل في اليوم التالي، ورحمة لم تجيء. كان طيلة الوقت جالسا يتابع كل حركة في الخارج منتظرا ان تدق الجرس. ثم ما حدث بعد ذلك لا يرغب، لا، لايجب تذكره ، يجب محوه من الذاكرة. ذلك اللقاءالعاصف (كانت ترتدي بضائع مستوردة: بالطوبعنق فرو، وفستان ماكسي طويل من الصوف الانجليزي ...) وهي تضحك ضحكات غريبة وتصرخ :

ــ «كنت مطمئن طبعا .. قلت، حاترجع زي الكلبة، هيه حاتروح فين؟ مش كده؟» .

وتخرج علبة سجاير مطلية بالذهب وقد كتبت عليها الاحرف الاولى من اسمها، وفي العلبة ولاعة. تدخن وتخرج الدخان من انفها .. يجب نسيان ذلك كله .. انتهى وخلف وراءه ألما كبيرا .. ثم تلك العملية الاستعراضية وهي تفتح شنطتها لتبحث عن قلم الروج ــ لم تكن تستعمل اية مساحيق من قبل ــ وتقذف بثلاث قطع نقدية من فئة العشر جنيهات ومجموعة اخرى من فئة الخمسة والجنيه. كانت تفعل ذلك بطفولة جعلته يرد بالايجاب على سؤالها ان كان يحبها ... فلينس ذلك لانه مؤلم، خاصة تلك المكالمة التليفونية .. ثم يتذكر : عزة تكلمه بالتليفون :

ــ « عزة »

ــ « هالو ؟ »

يعلم انها هي :

وتتكلم عزة بسرعة :

ــ «حاتعمل ايه بكره؟ بكره اجازة، مش كده؟».

ــ « حاقابلك و.....» .

ــ « طيب، طيب، الساعة عشرة في الكازينو » .

ــ «عشرة الصبح ولا بالليل؟»

ــ « باي » .

ــ « عزة .. » .

وتقطع الاتصال وتخلفه مبهورا، ضاحكا. ما الذي حدث لهذه الانسة؟

ايـه الحكايه يا اخت عزة، لم يكد يقول اكثر من كلمة واحدة حتى قاطعته «طيب، طيب!» مالك ملحوقة كده يا اخت عزة؟ ما احبش ارغي كتير فـي التليفون . كده؟ يتقلب في السرير ويضحك .

كانت حكاية رحمة هي الشبكة التي اصطاد بها عزة . رسم لرحمـة صورة اجمل بكثير من الواقع، وقدم نفسه في صورة الوغد الى حد مـا. يقول لها انه ليس شريرا ولكنه لا يدري لماذا فعل هذا الشيء او ذاك. وهي لا تكف من «ليه يعني ليه، ازاي، مش فاهمة...» ولكنها في النهايـة احبته. حاولت ان تجعل من رحمة انسانة سيئة (تقول انها بحكم كونهـا فتاة فهي اقدر على فهم نفسية المراة منه هو). وخلال هذه المحاولات، وعبر التبرير والتفسير ازالت ملامح الوغد التي حاول ان يتقمصها. وقد قـاد ذلك الى نشوء العلاقة بينهمـا .

لم تستطع عزة ان تدرك الخدعة، ولم يكن في عزمه ان يخدع. ولكنه فوجيء بالفتاة قد تصاعد اهتمامها به، فرأى ان حبا قد نشأ دون ان يسعى اليه اي منهما. كان يحكي قصة رحمة لكثيرين ويصغي لتعليقاتهم بشغف، ساعيا لازالة شعوره بالذنب نحوها، واذا بشيء يحدث احل حبا جديـدا في قلبه وازال كل اثر لرحمة .. قالت رحمة :

ـ «لسه بتحبني؟» .

كانت تتحسس العلبة المذهبة الموضوعة على مسند الكنبة الاسيوطي باصابعها. اندفع جذعها الى الامام عندما القت سؤالها. كانت النقـود وبعض ادوات الزينة ما تزال متناثرة على الارض .

ردا على سؤالها، نهض وجلس على مسند كرسيها، احاط كتفيهـا بذراعيه وقبل شعرها ـ لمسه بشفتيه ـ ثم نهض وعاد الى مكانه .

نظرت اليه بوجه غريب، بذلك التعبير المتسائل الفرح حين ينطبـع على وجه طفل، ثم، وهي تنظر اليه، خلعت البالطو، وسارت الى حيـث يجلس. وقفت امامه واحاطت راسه بذراعيها واحنت رأسها واخذت تفرك خدها براسه. وجهه منضغط على بطنها الاسفنجي، يشم رائحتها ويتوغل فيها. ثم امسكت براسه بين يديها وجذبته الى اعلى، تنفسها ثقيل ووجهها غائب . ينابيع عطش وشوق لها تفجرت في داخله بعنف لم يعرفـه ابدا. سارت به الى حجرة النوم وهي تقول :

ـ «مع انك ما تستاهلشي» .

هل كان ذلك جنونا؟ لم يتوقف ليسأل، لاول مرة فـي حياته نسـي نفسه تماما، ونام الاخر الذي في داخله، الذي يراقب دائما . امطـت

رحمة بسخاء. كان جنوننا استمر بضع ساعات. لم يرها قط في مثل هذا المجد : عيناها ساطعتان ، وجهها الاسمر اكتسب حمرة داكنة : نـــار تنبض تحت غشاء اسمر، وجسدها طويل، قوي كأنه انبثق مـــن الارض انبثاقا عارما، عنيفا، مدمرا.

كانت قد نظرت في ساعتها وقالت :

ــ « يا نهار اسود » .

واخذت ترتدي ملابسها بسرعة. قالت له :

ــ «حارجع الساعه تسعه» .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة .

ولكنها جلست في الصالون وجلست وهي تقول :

ــ «اتأخرت» .

ولكنها تجلس وتواصل الجلوس .

ثم نهضت بخطوات متراخية ومضت نحو الباب، كتفاها متقاربـــان التفتت اليه قبل ان تمضي وقالت :

ــ «الساعة تسعة . ما تنساش» .

ومضت .

كيف ينسى؟

كانت اخر مرة يراها فيها. لم تجيء في التاسعة، ولا في اليوم التالي ولا بعده. بعد بضعة ايام وجد ورقة القت بها من تحت الباب ، تطلب اليه ان يتصل بها بتليفون كتبت رقمه. ورغم ان اياما قليلة قد مرت على اخــر لقـــاء بهـــا فقد بدا له ان زمنا طويلا قد فات وان رحمة قد اصبحت مجرد ذكرى. كلمها بالتليفون فرد عليه صوت رجل، كانت لكنته غريبة. فانهـــى الاتصال. تلك الليلة الغريبة يجب ان ينساها، تلك المسيرة حتى طلـــوع الشمس وحيدا، مختنقا بالالم والتعاسة . . . يجب ان ينسى ذلك كلـــه، يجب ان ينسى ذلك كله. . ضاق به الفراش وتولته رغبة ان يفعل اي شيء.

قرر ان يصنع فنجانا من القهوة. ومضت في وعيه : «القهوة تضيق شرايين القلب . . ستة فناجين. . » رعب يصلح ليتحول الى نكتة، تلقـــاه بنصف وعي كخلفية لعزمه على النهوض من السرير. تردد الرأي قليـــلا، ترجرج، ثم غاب، مخلفا وراءه خوفا مبهما، مصمتا، غائرا في عمق مجهول. يغادر السرير (في واقع الامر تسرب منه وانزلق) واخذ يبحث بقدميه عن الشبشب. القدمان تعرفان الطريق اليه. يقف، يبغته البرد . اللحاف جلد اخـــر، اذا ما انتزع تعرض اللحم الحي، العاري، باعصابه المكشوفة الـــى

سياط البرد الفظة. يئن ويتوجع. يلملم نفســه ويدب مقهورا الى المطبخ.
يحوطه الهواء الراكد فيمتنع عن التنفس قدر ما يستطيع. وضــع الكباية تحت الحنفية وجعل الماء يندفع بقوة في داخلها. هذه كانت وسيلته لتنظيف الكباية من بقايا القهوة. وضع الكنكة على موقد البوتاجاز واشعله. يداه وقدماه تثلجت فانفصلت عن جسده، اصبحت مجرد اثقال من الحجر ملصقة به. يغادر المطبخ، ثم يشعر انه يريد شايا لا قهوة، يعود فيبــدل الكنكة. يندس تحت اللحاف ومذاق الشاي في فمه . قدماه تجوبان السرير تبحثان عن الدفء الكامن في السرير فلا تجدانه . خيبة الامل (انتظر رحمة في التاسعة، انتظر، وانتظر، دق جرس الباب، لم تكن هي) ماذا كنــت اقول؟ خيبة الامل، اجل، خيبة الامل (عندما لم يجد منطقــة دافئــة فــي السرير) كانت اشبه بالعطشان في حر اغسطس عندما يتناول كوبــا من الماء يعتقد انه مثلج فيفاجأ بعد تذوقه انه فاتر .
قدماه تفتش عن ملمس الدفء الطري الناعم، المغوي ولكن السريــر محايد، لا يمنح دفئا ولا يستلبه. للبيجاما على جسده ملمس مبلول. ينهض متعجلا. كيف لم انتبه الى ذلك، كيف؟ اغلق زجاج النافذة بعد ان اخترقه دفق الهواء البارد . وفكر : لقد تجدد الهواء بما فيه الكفاية . وبهــذا تم اغلاق اخر منفذ له يطل منه العالم عليه ، فانطلقت حرية مؤجلة ، منتظرة.
اصبح حــرا تمامــا .

★ ★ ★

صوت سقوط المطر على الشيش يصلهما بوضوح، رتيبا، ملحاحــا. كــان ذلك اشبه بمجموعة من الناس تتهامس دون توقف.
انصرفت الى المطبخ وعادت بعد قليل تحمل صينية من النحــــاس الاصفر تزغلل العين بلمعانها مما جعل من الصعب تأمل الوشى الدقيـــق المحفور على سطحها. كان منظرها يوحي بدسامة وثقل . فوق الصينيـــة براد الشاي، نعناع اخضر في طبق ،كوبان والسكرية. رغم فخامة الشقــة فقد احتفظت ببعض اللمسات الشعبية. تناول عودا من النعناع واخــذ يمضغه. طالعته بنظرة متساءلة، باسمة. ثم اقترب حاجباها واخــذت تصب الشاي. قالت ان الشاي اجنبي : ليبتون . فكر ان كل الشـــاي اجنبي. تكونت فقاعات كبيرة على سطح الكوب وهي تصب الشاي(يصغي وهو في سريره للماء يغلي في الكنكة وكأن شخصا يتفرغر، والكنكة تهتــز مع الغليان محدثة ايقاعا ما. يتولد في حلقه طعم الشاي الممزوج بالروم).

قالت :

ــ « كنا بنقول ايه؟» .

نهض واطفأ البوتاجاز . لا يريد ان يشرب شايا. يتذكر وهو واقف في مطبخها، هي تعد الافطار وهو واقف بجوارها، والشمس على زجاج باب المطبخ تحيله الى قطعة متلألئة، وجهها جاد. عندما تلتفت اليه تسطع ابتسامتها .

يعود الى سريره مولولا «مش معقول البرد دا» .

تمسك كباية الشاي وتقول : كنا نصنعه على نار الحطب .

ــ «كنت عايز تقول حاجه» .

الشاي على نار الحطب، انه يتذكر ذلك تماما. يقول لها انه يرجوها ان تستمر .

تقول : وتكون في الداخل نتدفأ بنار الحطب ونعد الشاي فوق النار. الشاي المصنوع بنار الحطب مختلف تماما عن الشاي الذي يعد فوق البوتاجاز . (كأنه لا يعرف ذلك. وكذلك الطعام المسوى بنار الحطب ، في قدور نحاسية او حلل فخارية..) كان بيتا على الجبل، وهنالك في الخارج عواصف تصرخ وتصرخ والثلج يتساقط كأنه ندف القطن. تتمايل ندف الثلج شمالا ويمينا كأنها مخمورة ثم تسقط على الارض ميتة. كنت اضحك عندما ارى الثلج يسقط هكذا، وكان هو يقول انني جننت» ، فاضحك واضحك. قالت ان ذلك حدث في لبنان، على الجبل، مع شخص لم يكن يستحق الا القتل .

تتنهد وتغيم عيناها، تغيب، وهو يفكر : من كان يتصور انها من هذا النوع من النساء ... هذه المرأة التي عرفت كل شرور الدنيا ــ كما يتصور هو الشرور ــ : تجارة الحشيش يقولون ، وتأجير الشقق المفروشة للسائحين وما يرافق ذلك من عمليات، وتقول العمارة ان عصابة من الفتوات يأتمرون بامرها، وعددا من سائقي عربات الاجرة التي تملكها ... كانت تستطيع ان تحلم كطفلة. يتذكر الان ، وهو يتلوى على السرير بشوق مخبول اليها، يتذكرها جالسة على طرف الكنبة في شقته، وقد تركزت عيناه على ركبتيها العاريتين، يتذكر الخجل والارتباك : عيناها ترمشان وخداها ملتهبان بالخجل، وهي تمسك بطرف الجونلة تحاول ان تسبلها على ركبتيها دون جدوى، وهي تنظر اليه مبتسمة بخفر عذراء. وظلت تكرر تلك المحاولة الفاشلة طيلة الوقت .

تتحدث وهي غائبة، تقول لقد استولى على نقودها واختفى فجأة.

ومرت ايام لا يعلم بها الا الله، ايام عصيبة. جاءت، وتحملت المهانة ...
ولكن ... ولكنها عندما تتذكر ذلك البيت ونار الحطب والعاصفة والثلج ترغب بجنون أن تعود الى ذلك المكان. تريد ان تعود الى ذلك ، سوف تفعل ذلك يقينا ليس مع ذلك الاخر ولكن معه هو .

تصمت ويغشي وجهها حزن جليل، ويجلس هو منفيا عن عالمها المخيف. يفكر ان الشوق يقتلها الى الاخر. يراها تشمخ، جسدها يستقيم ويمتد عنقها عاليا، ويندفع صدرها الى الامام .. يكاد يلمس عنقها ذاك الذي يحوطها كمجال كهربائي ـ عندما فكر هكذا تذكر الهزة التي يحدثها سلك الكهرباء المكشوف لما امسك به خطأ ـ يشعر بالنبذ (انها تفكر فيه، تفكر فيه ويبهظه العجز والمهانة). يقرر ان ينبهها الى وجوده باعلان عزمه على الانصراف. ينتقل عذابه اليها، فتطالعه بعينين تائهتين، تتحدد النظرة فتبتسم، وينساب منها العنف . تميل نحوه .

ترق وتحنو، وتكون قريبة وحانيه، وتمسك يده تداعبها . يحس باختناقة البكاء في حلقه. تقول : سوف يعيشان اياما جميلة، فليدع ذلك لها. يقول لها بصوته المختنق انه سعيد : اي انفجار للبهجة المضيئة في وجهها ! يهدأ .

يمد يده الاخرى. يتذوق الشاي. لا يستطيع ان يميزه عن اي شاي اخر ولكنه يمتدحه. ثم يضيف ـ لمجرد ان يقول شيئا ـ ان هناك نوعا اخر من الشاي، نوعا ممتازا، اسمه شاي الولد. تقول بلهفة عندها منه، شاي الولد، هل يريد كوبا منه ؟ يقول لا،لا، لم يكن هذا قصده. تصر ، وتتحفز للقيام، يقول ان ما اراد ان يقوله ان شاي الولد نوع ممتاز ولكن هذا الشاي، ليبتون، احسن منه .

تعود الى الحديث عن لبنان والجبل ونار الحطب ... الفواكه هنالك كثيرة وممتازة ورخيصة : التفاح طبعا! ايوه، التفاح الامريكاني الحلو.. تستطيع ان تأكل الفاكهة من على شجرها، تقول ان طعمها يكون مختلفا.

يقول: كل شيء في لبنان مختلف، يعرف ذلك. كل شيء مستورد.

تتوقد بفرح يغلبها ، يصبح لها وجه طفل. يستطيعان، تقول،الذهاب الى ذلك الجبل، الى ذلك البيت بالذات. هناك حتى البحر يبدو بحرا اخر ، يبدو عن البعد، من فوق الجبل، مع الثلج يبدو مختلفا. يكون رماديا ناعما .

يسافران في الحلم الى هناك .

عند ممارسة الجنس تكون فاترة، تغمض عينيها وتدع له جسدها.

وكان اذا طلب منها ذلك تضحك ضحكة عصبية وتقول ليس الان ، بعد قليل، ثم تأخذ في رواية حكاية دون ان تنظر اليه. ثم تكتشف انه غاضب. تتوقف وتقول :

ـ «انت عايز بجد؟» .

كأنها لا تعرف ذلك. يرفض، ويصر على الرفض وقد بدت الاهانة واضحة في وجهه . يقول :

ـ « كملي الحكاية» .

تضحك وتقول :

ـ «اتقمصت؟»

يقول :

«ابدا، ابدا، بس مش عايز دلوقتي» .

تقبله تلك القبلة الغشيمة وتمسك بيده وتقول :

ـ «قوم بقى» .

وهو يصر على الرفض :

ـ «مش عايز حقيقي» .

تقول بصوتها الانثوي المتموج :

ـ « قوم بقى، قوم، ما تكسفنيش بقى!» .

وهي تجذب يده .

تقوده الى حجرة النوم . تمنعه من اشعال الضوء ، تتخلص من ملابسها متعجلة وتختفي تحت ملاية السرير . يبثها حبه ، تفتح عينيها لمدة ثانية ثم تخفي وجهها . يأمل ان تكون مختلفة هذه المرة .

ولكنها ، مثل كل المرات السابقة ، تجعله ينتهي بسرعة . تدعه مرهقا ، مخدوعا وتمضي مسرعة الى الحمام ثم تفاجئه بدخولها . وعندما يعود من الحمام يجدها قد ارتدت ملابسها ، شفتاها ترسمان تعبير الم ، ووجهها حزين ، حزين ، ومنكسر . كأنها سوف تشرع في البكاء او قد انتهت منه : وجه طفلة عنفت وهي في قمة مرحها بلا سبب . تنظر اليه ، وعندما تلتقي العيون تروغ نظرتها منه ، وتنهض متنهدة، وتخرج الى الصالة ، تاركة اياه وحده يتم ارتداء ملابسه وحده .

يقول لنفسه : انني عجزت عن اقناعها . ذلك الرجل الذي اقام معها في لبنان هو القادر على ذلك . امتعها فمنحته كل شيء .

يقرر ان ينصرف منها ولا يعود اليها ابدا . ولكنه كان دائما يعود، يرجو ان تكون مختلفة هذه المرة .

يخرج اليهـا فيجدها مستعدة للحديث . يراها مستغرقة ، تدخن سيجارة ، وتضع ساقـا على ساق ووجهها شديد الجديـة ، مأساويـا. يستقـر في عظامه انه اتـى بعمل مخجل . يتفادى نظرتها . تبدأ الحديث باحكام عامة على الحياة ـ معناها وهدفها وجدواها ـ . تكـون احكامـا شديدة المرارة والتشاؤم ، مبعثها خيبة الامل : كان تتخيل الاشيـــاء مختلفـة ، ولكنهـا عندمـا تتحقق تصبح مخيبة .

يعلق هـو محاولا ان يكسر جدة هذه المرارة . تسود بعدها فتـــرة صمت ، ثم تروي الكثير من الحكايات ، تكـون فيها دائما الجانب الضعيف والمظلوم . وخلال ذلـك يتخذ البواب والبقال والطالب العربي الذي يسكن في الشقـة الصغيرة المجاورة لشقتها طابعا فظا ، متجهما ، يختفـي وراءه تآمر دنيء ، سيء النيـة . عالم غريب تنسجه يصبح فيه الجميع اشرارا حبا في الشر ذاته . ويكون دائما الحق بجانبها فتنهزم او تتخلى عــن موقف صحيح لانهـا ضعيفـة وهم اناس لا يجدي معهم حوار ولا اقناع. تكـون نائمة تمامـا ، فيدق ذلـك الطالب العربي جرسها ، فتفتح الشراعة والنـوم في عينيها ، وتسأله ماذا يريد ، فيقول انه يريد الدخول ، فتقول انهـا نائمة ، فيقل ادبه ويقول انـه يصدر من شقتها اصوات مزعجـة ولا يستطيع النوم. فليتصور ، تكون نائمـة ولكنه يقول هذا. وبعد هذا يتقصدها . فكرت ان تخبر امها لتأتي وتهزئه . قررت ذلك بالفعل، ولكنها عادت وقالت لنفسها : يا بنت، اقصري الشر .

يقول لها ان ذلـك لا يبدو عليهم ويعبر عـن اندهاشه انهـا تأخذهم بكل هذه الجدية . فتقول طبعـا انت رجل ولن يستطيعوا ان يفعلوا لـك شيئـا . فيعجب ويعجب ولا ينقضي تعجبه . وتضيف عنهـم حكايـات اشـد هولا . البواب متقصدها ، مثلا ، فقـد تأتي امها فيقف امامها سادا الطريـق ويقول :

ـ « الست مش موجودة » .

رغم انها تكون موجودة تنتظر امها . بل انها تتفق مع النجار ان يصنع لهـا كرسيـا واشياء كهذه فيرفض البواب ان يدخله المصعد .

الجميع متقصدينها لسبـب او لاخـر : ربما كان هذا هـــو جوهـر كل هذه الحكايـات التـي ترويهـا .

ولكنه هو الذي يتحيـن كل فرصـة ليجعلهـا تتحدث من ذلـك الذي هجرهـا في الجبل والثلج يقول : هل من الممكـن انها تشجعهم على ذلـك ؟ يشحب وجهها قليـلا لاحتمالات الادانـة الكامنة فـي السؤال.

يضيف ، مثلا ذاك الذي كان في لبنان ، هل تحبه ؟ ويفكر : اية علاقة بين السؤالين ؟

تقول له ان ذلك الرجل قد انتهى من حياتها ولا تحب الحديث عنه بعد . يعيد السؤال : هل ما زالت تحبه ؟ تنظر اليه بدهشة وتقول محتجة :

ـ « بعد كل اللي عمله ؟ »

يسألها ان كانت تحبه قبل ان يهجرها . تقول ، كيف يمكنها ان تحب انسانا فعل معها كل هذا ؟ يقول لها انه يسألها ان كانت تحبه قبل ذلك ، قبل ان يهجرها ؟ تقول لقد كانت مخدوعة به .

ـ « يعني كنتي بتحبيه ؟»

ـ « مش ممكن احبه » .

ـ « دلوقتي ، بس قبل كده؟»

ترجوه أن يفض هذه السيرة .

ـ « ليه ؟ »

تميل نحوه وتقبله قبلتها الغشيمة التي تشبه قبلة الاطفال عندما تطلب اليهم ان يبوسوا عموه . ثم تدفن راسها في صدره وتقول له :

ـ « اسكت ، الله يخليك ، علشان خاطري » .

وكطفل كان يريد منها ان تلعب دور الشجيع الذي يمزق اعداءه دون رحمة . يقول لها ان عليها ان تنتقم منه . لماذا لا تفكر في البحث عنه والانتقام منه ؟ تنظر اليه باسمة ، مندهشة . بخجل من نظرتها ولكنه يلح ، لماذا لا تفعل شيئا . تقول ،انه لو قابلها في الشارع فسوف تدير وجهها له ، ولن تسلم عليه . يفكر :اهذا كل شيء ، كل ما سوف تفعله.وهي القادرة على اكثر من هذا بكثير ؟ قال لها مرة انه هو يود ان يفعل له شيئا ، هل تعرف اين يسكن ؟ وعلى التو خط له انها قد توافق وتورطه . قالت :

ـ « ارجوك ، ارجوك،يا حبيبي انسى الموضوع دا ، انساه خالص».

ثم تحدث نفسها مبتئسة :

ـ « انا غلطت اللي قلت لك . انس الموضوع يا حبيبي ، انساه علشان خاطري » .

كان هو نفسه يضيق باسئلته ولكنه لم يكن يستطيع التوقف. في مرة طلب منها ان تصف مظهره ، قالت :

ـ « زي الفار » .

شعر نجيبة امل . اذن لماذا احبته ؟ تقول له بصوتها الشاكي انها لـم تحبه ولا تحبه ... يسالها : وانا ؟ عيناها تزهران بشيء كالدموع وتقول:
ـ « انـت ؟ »
وترمشان .

★ ★ ★

★ ★ ★

كانت تسكـن في الادوار العليـا . في الليل تهبط الى شقته ،تدق جرس بابه دقـة خفيفة ، دقـة واحدة صغيرة . يفتح هو الباب علـى الفور ، فيراها تهبط السلم . تشير بابهام اصبعهـا الى اعلى دون ان تنظر اليه وتواصل الهبوط . تختفي وراء منحنى السلم ، يركز ليسمع وقـع قدميهـا ، ولكنهـا تبدو وكأنهـا ذابت . يقف بباب شقته منتظرا ، فيرى المصعـد متجها الى أعلى ، وهي بداخله طويلة ، مسبلة العينين .

يغلق باب شقته ويتبعهـا صاعدا السلم على قدميه . باب شقتهـا يبدو مغلقا ، ولكنه يعلم انه سوف ينفتح بمجرد أن يدفعه بيده . انفاسه متلاحقة ، وخائف ، يدخل متعجلا ، مبهور الانفاس ، يقبلها ، فتدعـوه الى الجلـوس .

تقول له انهـا آسفـة ، شديدة الاسف . تأخرت عليه لان اقاربها كانوا يزورونها ولم تعرف كيف تتخلص منهم . (تقول هذا كلما تأخـرت عليه . ويصمت هو محرجا) . جـو الشقة يعبق برائحة اللحم المحمر ، ورائحة اخرى قدر انها الحشيش .

لم تكـن تستطيع التخلص من انشغالهـا المتوتر الذي خلفه اللقاء مع « الاقارب » الا بعـد فترة قـد تطول . تظل مستغرقة ، تائهة . تخرجمن استغراقهـا للحظـة فتتنهد ، وتبتسم له ، وتقول :

ـ « بتشرب قهوة ؟ »

يقول لا ، فتتوه ، مطلة بعيني قصار النظر ، عينها اليسرى تختلـج قليـلا . وعندمـا تعود اليه ترمش عيناها مرات متتالية ، وتبتسم بخجل وارتباك . تلتقي عيونهما بنظرة سريعة ، تهرب عيناها بعـدها ، ثم تعـود تنظر في عينيه وتهرب عيناها وهي تبتسم بتحرج .

تبيـن له ان الملامسة تعجل في اخراجها من تلـك الحالة . يمد يده ويلمس باطراف اصابعه بخفة وجنيتهـا وانفها وفمها ، تعـم وجههـا

البهجة وتضحك قائلة :

ـ « انت بتعمل ايه ؟ »

وتعاود الضحك .

ينهض وينحني فوقها فيقبل جبينها ، وانفها ، وعينيها ، وهي رافعة اليه وجهها ، مستسلمة ... في وجهها ضحك متجمد وعبث رقيق ، حان. تنفجر بضحكة ثرية وتقول :

ـ « مش عايز تبوس ودني كمان ؟»

فيقول :

ـ « طبعا » .

فيقبل اذنها . يرتعش جسدها كله وتبتعد وقد تزايد ضحكها .

تقول :

ـ « اقعد ، حبيبي ، ربنا يهديك » .

وهي تضحك .

في احيان كثيرة كان يراها واقفة بباب العمارة وهو داخل. تكون منشغلة بالحديث مع اخرين فتبدو انسانة مختلفة ـ جادة، وعملية للغاية. اعتقد انها تتجاهله عن عمد، وكان يستطيع فهم ذلك وقبوله .

ومرة، وهو داخل العمارة، التقت عيونهما. يستعيد تلك النظرة التي اضاءها التعرف، تشع كالجوهرة. (يود ان يهرب من ذلك، فينهض من السرير ليصنع شايا. البرد يدفعه الى السرير دفعا. يعود الموقف اليه). كانت نظرة تحب أن تمسكها. انصرفت عن الاخرين واخذت تطالعه واسعة العينين، ضاحكتهما. كان الفرح في هاتين العينين حافلا ببهجة الحياة وبالترحيب كانه عناق مشتاق. يحتار، يهرب ارتباكا وخوفا . في شقته يظل يذرع الصالة وقتا طويلا، وقد استقرت الفرحة في قلبه كالجمرة. يلوم نفسه خلال ذلك لانه اهان ترقبها الجميل الشجاع عندما ارتبك ولم يرد تحيتها ـ تلك الايماءة ، الخفيفة، الخفية، المتواطئة وقد نقلت عبرها الفة حميمة، ومودة حلوة. يعزم ان يهبط او يصعد اليها ويعتذر، ولكنه لا يفعل. يتأمل ما حدث ويرى استحالة منع حدوثه الان، فيعلم انه لن يفعل .

يرهقه الانفعال والندم فيطوف الشوارع محاولا ان ينسى، أن يعيد بناء ما حدث من خلال حلم يقظة .

في الليل تحكي له باستفاضة كيف راته داخلا، راته قبل ان يدخل، فنسيت ما كانت تقول . اشتاقت اليه بشكل .. وهي تعتذر ان كانت قد

احرجته.. كان ذلك بالرغم منها، حقيقة نسيت نفسها. على كل حال هما جاران ومن الطبيعي ان يتبادلا التحية . طبعا، اذا رغب في ذلك، فذلك يعود اليه، يكفيها منه هذا اللقاء الليلي ... وماذا يهم اذا عرف الناس انهما اصدقاء او حتى حبيبان؟ هي بالطبع تعرف الفارق بينهما (لم يخطر بباله قط ان هنالك فارق بينهما، بل هو لم يدر ما الذي جعلها تعتقد بوجود هذا الفارق الذي لم يشعر به قط نحو اي انسان). ولكنهما كجيران فبامكانهما ان يتبادلا التحية. قد تكون المسالة لا اهمية لها بالنسبة له، طبعا ذلك راجع له ... طبعا في المرة القادمة سوف تسيطر على نفسها ، ولكنها فوجئت ...

وتمضي هكذا. كان يدهشه ان تبدي كل هذا الاهتمام بمسألة كهذه. حدث عزة كثيرا عنها. قال لها انه لاحظ ان النساء اللواتي يمارسن اعمالا ضد القانون والمواضعات الاجتماعية قادرات بشكل تلقائي ان يرسمن صورة لحياتهن تشبه الصورة التي تعيشها المراة العادية، ويبدو ان ذلك يتم بفعل الية تحيل كل احداث الحياة المعقدة والمؤلمة الى سياق الحياة اليومي المبتذل . وقال لعزة ان ذلك يفقر روحها .

كل شيء تحكيه عن مشاغلها يبدو روتينيا ومعادا: زوارها المريبون، رحلاتها المتكررة الى لبنان ، غيابها طيلة النهار وجزء من الليل تعود بعده مرهقة. في احيان نادرة يدق جرس التليفون في ساعات الصباح الاولى. تدعه يدق بعض الوقت وهي تنظر اليه بعينين مبتئستين، صابرتين، ثم تمد يدها الى السماعة بتأوهة الم (تأوهة تقول : لا بد من احتمال فواجع هذا العالم، وها انت شاهد..) ترد بكلام سريع، وكلمات مدغمة تؤجل فيه كل شيء الى «بعدين، بعدين» ثم تصغي مرة اخرى . وعندما تنتهي، تنزع فيشة التليفون وهي تتنهد . تنظر اليه بتساؤل (ها انت ترى، اليس كذلك؟.. هل كونت افكارا خاطئة؟) تتوه بضع لحظات، ثم تنتفض كأنها تبعثرت ، ثم تعيد بناء نفسها، مطلة على ذلك كله بابتسامة مجاملة .

كان يقول لعزة ان ما كان يفقرها هو اختلاط الامور لديها. فقد كانت تعتقد فيما يبدو ان المغامرة العظمى هي ان يعيش الانسان حياة بورجوازية صغيرة محافظة . قالت عزة، بل هي النمط المبالغ فيه للبورجوازي الذي يخفي كل شروره تحت سطح من التظاهر الكاذب (١). اما صخب الحياة

(١) لقد ذهل وهو يسمع عزة تقول هذا. احس في تلك اللحظة بالتشرف ان فتاة كهذه تحبه. ولكنه كان يعلم انه لو قال لها ذلك لاصبحت عصبية .

فقد كان بالنسبة لها توترا مملا، لا يستحق الرواية، او هو بذاءة يجب اخفاؤها بكل حرص. قال لها مزة انه يود أن يدخن الحشيش، فقد سمع كثيرا عن تاثيره ويحب ان يجربه. لقد اذهله الرعب الذي ارتسم على وجهها .

ـ «يا نهار اسود!» .

قالت وهي تتأمله بجدية ناحبة. ثم، لماذا يقول لها هي ذلك؟ وهل صدق بعض الالسنة الشريرة، البواب، وذلك الطالب العربي..؟ واخذت تحكي له حكايات عن رجال شربوا الحشيش فتابدوا في السجن ، وتشرد اولادهم في الشوارع، وخربت بيوتهم. ولاول مرة، منذ ان عرفها ، بدات هي بالتمهيدات الاولى لممارسة الجنس. كانت تقول له خلال القبلات والمداعبات الرقيقة ان عليه ان يعطيها وعد شرف ان يبتعد عن الحشيش والا يذكره ابدا .

في تلك اللحظة انكسر الوهم في داخله وضاعت الى الابد الرومانسية العميقة الجذور للمومس الفاضلة، وسقطت المراة في سياق الحياة المبتذل.

كانت عزة تحب ان يحدثها عن هذه المراة، تكثر من الاسئلة ولا تريده ان يتوقف. وعندما تكون في هذه الحالة كانت تنفر من الملامسة . ترغب ان يستمر في هذا الحديث وحسب . تقول انها تود ان تراها، هل يمكنه ان يعرفها عليها؟ وفي احدى المرات قالت انها تحلم كثيرا أن تكون هذه المراة صديقتها،ان تجلس معها ويتحدثان كامراتين.،ومرة قالت له عزة انها تحسد هذه المراة ، ليس لها اخ يسائلها كلما تاخرت .

قال لها ان لهذه المراة متاعبها، وهو راسخ العزم الا يحكي عن تلك الحادثة المخيفة التي انهت علاقته بتلك المراة. ترد عزة. انها تعرف ذلك ولكنها تتحدث عن امر اخر. ثم تقول : ما الذي يمنعه من ان يعرفها عليها؟

بدأ تعرفه بالمراة عندما كان يحمل علبة صغيرة بها بعض قطع الشيكولاتة اعدها ليقدمها هدية للطفلة دينا. ورغم انها لم تكن تاكل منها الا قطعة صغيرة، الا ان دينا كانت تحب أن تهدى. تعيد توزيع الشيكولاته بوقار سيدة حقيقية : « خد يا بابا، خد يا عموه، ودي علشان دينا الصغيرة». كان احد امجاد دينا ان هنالك طفلة اخرى، جارة لها، تحمل نفس الاسم وتزعم انها اصغر منها ولذا اصبح اسمها هي«دينا الكبيرة». ومن خلال لعبة الالفاظ هذه اعتقدت دينا انها كبيرة حقا .

عند الظهر كان داخلا العمارة حاملا تلك العلبة وداخله يتبعثر ويتشتت بالضحك عندما يقوده الخيال وحلم اليقظة الى ما سوف يحدث

في مساء هذا اليوم. كان العالم من حوله يختلج بابتسامات مكتومة. (مدت دينا الصغيرة يدها لتتناول زجاجة الكوكاكولا من فوق الطرابيزة ، فلم تطلها. مدت دينا الكبيرة يدها فامسكت بها واعطتها لدينا الصغيرة. هكذا تحكي دينا، تاركة للمستمع ان يخرج بالنتائج الصحيحة. يقول هو :

ــ «علشان هية صغيرة!» .

تقول بجدية :

ــ « دي كبيرة ! » .

ــ «بس ازغر منك» .

لا تجيب ولكنها تقول أن دينا الصغيرة كسرت الكباية وقالت :

ــ «حاقول لتانت» .

رغم انها هي التي كسرتها .

وتواصل دينا الكبيرة تحريضها البارع. عندما ولج باب العمارة راى تلك المراة في المدخل تكلم البواب والنجار ورجلا اخر عابس الوجه ــ ذلك العبوس المبالغ فيه الذي تتخذه الشخصيات العنيفة ــ الشريرة ــ والمهزومة دائما في الافلام الكوميدية ــ يكاد الشعر الاسود ــ كانه مصبوغ بصبغة سوداء ــ الكثيف الخشن يغطي معظم مساحة وجهه، كما يبدو عليه انه لم يحلق لحيته من ايام. وبرزت عيناه الصارمتان ببياضهما الناضع المصمت وسط تلك الحلكة كالاعجوبة. كان وجها تود ان تمد يدك وتنزع عنه قناعه لترى الوجه الاخر المختفي وراءه .

راعه ذلك الوجه الموضوع فوق جسد طويل الجذع، قصير القدمين. ينبعث منه العنف كاشعاع خفي، فتشبثت عيناه به. وكان هنالك وجه البواب الصعيدي الاسمر المدور ، ووجه النجار الشاحب بشعره الاصفر. كانت المراة تبدو وسط تلك الوجوه نضرة للغاية، وقد اكتسب جسدها الرشيق طاقة من العنف المتوتر، الصامت، المتحفز يخفيه فستانها كالديناميت. ازدادت تلك الوجوه بتفاعلها مع وجه المراة شقاء وتعاسة، واستلبت رجولتها وبريقها. في مثل تلك اللحظة يعشق القادم بهوس يصير به الى حافة الاختناق، تتولاه رغبة جنونية يائسة ويتوه تماسكه، كانه يسير على ارض زلقة. لم ينتهي الحب وتعقبه مرارة الادراك باستحالة الاستجابة من الطرف الاخر، تشتعل احلام اليقظة وتنطفيء لساعتها نتيجة خبرة عريقة باليأس. يتخلف وراء ذلك طعنة نافذة في القلب! هذا الحرمان اصبح طابعا لحياته، للحياة، يرافق ذلك استبصار بأن الموت يقترب والحياة تمضي وسوف تمضي هكذا دون أن تحقق لنا ما

نرغب فيه بحدة. يتكرر ذلك كثيرا في اليوم الواحد، بدرجات متفاوتـــة، وكأنه جزء من وجودنا ولكننا لا نستطيع ابدا قبوله او تعوده :

طفا وجهها في الفراغ نحوه، فكان هو والوجه وحدهما، وللحظـــة سقط كل ما عداهما في العدم. تشبث باللحظة، كاتما انفاسه، صارخـــا يضرع لها: لا تبتعدي، لا تتوهي، توقفي.. ثم ضحكة تعرف تتلالأ فـــي العينين، على شكل ومضات ضوء سوداء متصلة، ثم انصرفت عنه الى الامور العملية التي كانت تناقشها مع الرجال الثلاثة. هل استمر ذلك ثانية، ام دهراً؟ لا يمكن التحدث عن زمن محال الى الية صماء تجزئه الى ثوان ودقائق وساعات . بعدها انبثق العالم من جديد بطنينه المعتاد، المعاد. ثم اضطرب بالمفاجأة وارتاع حين سمع صوت الطفلة التي لم يكن قد رآها يصيح بـه :

ـ «يا قليل الادب، مش عيب عليك تعاكسني!»

تقول ذلك، وهي واقفة في مواجهته، تهز رأسها باستنكار، وجديلتاها تهتزان مع حركة الراس. في نهاية كل جديلة وردة زرقاء من البلاستيـك قـد شبكت بشريط ازرق. من اذنيها تتدلى سلسلة ذهبية في نهايتهـــا قرطان ذهبيان على شكل زهرتين صغيرتين. كانت عيناهـــا غاضبتيـــن وشفتاها مزمومتين بتحد .

فكر ان يحتج، ثم تبدت له فكاهة الموقف، فضحك وحاول ان يلمس راس الطفلة. مدت المراة يدها وهي ما تزال تتكلم وامسكت بجديلتي الطفلة جاذبة رأسها الى الوراء. الطفلة ما زالت تنظر اليه باستنكار وهي تقـاوم جذب المراة. التفتت اليه المرأة بنظرة صغيرة، عملية، مؤدبة، وقالت:

ـ « لا مؤاخذة» .

كانت عبارة مقتضبة، مهذبة، لا تسمح بمزيد من الحوار، وتحمـــل نوعا من التحذير خفيا، غير مؤكد، ولكنه كامن في نقطة ما من مسار هذا الاشتباك اذا سمح له بالاستمرار. وكان ذلك يعني انها قررت ان تتجاهلـه، بل انها لم تكد تشعر بوجوده. وجه البواب اكتسى بتعبير غاضب، تقي. رفع ذراعيه وفرد كفيه كأنه يتهيأ لاستقبال حمل القي اليه من اعلى، وعاد بكتفيه الى الوراء وقال بحدة :

ـ « عيب يابت » .

فتح هو العلبة واخرج قطعة صغيرة من الشيكولاتة ومد يده بهـــا الـى الطفلـة وقال :

ـ «خدي سلكي صوتك علشان تعرفي تشتمي كويس» .

اطلقت المرأة ضحكة صافية، حقيقية، وراحت الطفلة تدير عينيهـا

الفزعتين بالمطلين عليها، ثم تركزتا بقطعة الشيكولاتة دون ان تمديدها. اما البواب فقد تناول قطعة الشيكولاتة منه ومدها الى الطفلة زاعقا :

ــ «خدي يابت، خدي من الاستاذ» .

وعندما أصرت الطفلة قال للمرأة :

ــ «قولي لها تاخد» .

قالت المرأة للطفلة :

ــ « خديهـا » .

وواصلت حديثها مع الرجلين الاخرين، وراح البواب يؤنب الطفلة، ثم توجه الى الاخرين قائلا بجدية بالغة :

ــ «يا سلام على الاخلاق» .

وعندما استدار لينصرف قال البواب من وراء ظهره، بقصـــد ان يسمعـه :

«هيه دي الناس المتربية صحيح» .

داس زراز المصعد وصوت البواب ما زال يدوي. كان يقارن بيـن مسلك الطفلة، قليلة الادب، وبين مسلكه هو، اذ سمع شتيمته باذنيه ولكنه تغاضى عنها وارتفع فوقها وقدم لمن شتمته قطعة من الشيكولاتة. ثم اعلن انـه احسن ساكن في العمارة .

احب في المرأة انها لم تلتفت الى ضجيج البواب بل انصرفت تكلـم الرجلين كأن شيئًا لم يحدث وهي ما تزال ممسكة بجديلتي الطفلة تجذبهما بين الحين والحين كأنهما عنان فرس .

صعد الى شقته . كانت رائحة الطبيخ عالقة في المدخل، وفي الصالة عتمة يتكور في داخلها الضوء القادم من شباك الحجرة الاخرى كـأنـه ضباب. جلس على كنبة في الصالة عاجزا عن حزم امره : هل يستعـد للغداء ام يهبط مرة اخرى. اشعل سيجارة وفكر ان السجاير تسبـب سرطان الرئة. انحسم الموقف. قرر ان يهبط ويدير حديثا مع البواب يسأله متى انصرفت الخادمة ويواصل معه الحديث الى ان تنتبه المرأة الى وجوده. خطـر له انه يعرض نفسه للمهانة وهو يهبط السلم. ثم اخذ يعد نفسـه بثقة اكبر ــ لتكرار الموقف الذي مر به منذ قليل .

وعندما انتهى الى المربع الذي امام المصعد اكتشف ان الجميع قـد اختفوا، كأنهم لم يكونوا هناك قط. بدا له مدخل العمارة غريبا، كأنه مدخل لعمارة اخرى يدخلها للمرة الاولى : لقد زالت الالفة عنه فاصبح موضوعـا للمراقبة والاستكشاف .

افتقد المراة فقدان هجر. كانت ضحكتها تموج في داخله باعثة دوارا خفيفا يجعل كل خطوة من خطواته مجازفة . ماذا الان؟ لا يستطيع ان يعود وهو قد هبط لتوه. ابتسم عندما تذكر الرجل القائم، الكثيف الشعـر. سار الى باب العمارة، نسي، ثم تذكر. نادى البواب، فلم يجده .

★ ★ ★

★ ★ ★

صوت المطر في الخارج تالفه الاذن كانه يحدث كل يوم، صوت قديم، عريق في الذاكرة. يتصاعد فيصبح كسياط تشق الهواء، يجهد ويلهـث فيتحول الى دبيب ارجل بعيدة، مسرعة. يفتقد عصف الرياح الثلجية بين الشجر، تئن وتموء وتزأر. في مكان ما، تسقط قطرات الماء بصوت كالتمطق.

يتراءى له الشارع واسعا وخاليا ورماديا. ارضه تحولت الى عجينة سوداء. كتل سوداء، لاهثة تعبره مسرعة، مكروبة كانها تخطو على نـار. ارجلها تخلف في الارض حفرا طينية. الصمت ثقيل، له ثقل الخوف المبهم وثقل الحزن. يقبض قلبه شوق ان يدق جرس الباب، وتعبره عزة مقرورة، ثرثارة ، صاخبة. يقبل شفتيها الملتهبتين، ملمس انفها البارد على سطـح وجهه . يقبل عينيها .

الصمت كبير، كبير، وواسع، وخانق.. وكان الجميع ماتوا وهـو وحده ينبض في وسط الكون .

★ ★ ★

★ ★ ★

يصبح التذكر خلق من عدم .

ماذا كنت اقول ؟

من عدم .. ماذا؟ .. الطفلة. يبتسم. تلك الطفلة كان لها رأس غانيـة باذخة ـ القرطان بسلسلتيهما الذهبيتين، الوجه الاسمر، الخيف السمرة، اللامع بالصحة، والعينان الكبيرتان، لونهما بنفسجي ـ ولكن الوجـه الصغير الجاد يثير الضحك (يجعلك تحس بتلك السادية التي تدفعك الـى التهام وجه ما، ولان ذلك مستحيل فانت تضمها اليك ، تقرصها ، تشـد

شعرها، ولعبر عن تحببك بكلمات من نوع : حاكلك، حاموتك..) يغرق في الضحك، فيخاف. ماذا كنت اقول؟ تلك الطفلة .. القاتم، ذلك الرجل القاتم بعبوسه المضحك، يلبس قناعا هو الاخر، لماذا قلت هو الاخر؟ تذكرت لان الطفلة كانت تلبس قناع غانية.. يجب الا انحدر الى تلك الحكم البليدة من نمط : كل انسان يلبس قناعا، او اقنعة..المنفلوطي، وماجدولين وتلك الفتاة البدوية . ذلك الرجل القاتم . سالها مرة عنه . اصغت اليه، لم تكن تصغي تماما، قالت :

ـ « آه، دا النجار» .

قال لها انه يعرف النجار ـ نحيل، اصفر، عيناه عجوزتان ـ فدكانه في الشارع الصغير المواجه للعمارة ، ولكنه يعني ذلك الرجل الذي كان يقف بجوار النجار. حاولت ان تتذكر . سالته :

ـ «كان لابس ايه؟» .

اندهش (ما اهمية ماذا كان يلبس؟). كيف يكون هذا الرجل حيا في ذاكرته هو بينما هي لا تكاد تذكره. قال لها ليس المهم ماذا كان يلبس، بل شكله ذاك الغريب الذي لا يشبهه انسان اخر، كان كثير الشعر كانه عنزة، واستطرد في وصفه. قالت :

ـ « ايوه ، ايوه » .

تنفست بعمق كانها تطرد خاطرا مضجرا، وقالت، انها تذكرته، انه رجل من «الحتة»، اي يسكن قريبا من بيت اهلها. غالب خيبة امله وقال لها انه يذكره بذلك الرجل الضخم، العابس، العنيف، الذي كان يظهر في افلام شارلي شابلن القديمة، هل تذكره؟ عابس وسمين؟ يبدا في ممارسة العنف على نحو يقبض القلب، ولكن الرجل الصغير، شارلي، يتسلل من بين قدميه، يزوغ من ضرباته، ويهزمه في النهاية، دائما يهزمه. لم تجد ما تقوله ردا على ذلك. هزت راسها، وقالت :

ـ « ايوه ، ايوه » .

ومنذ تلك اللحظة اخذ الرجل يشحب في ذاكرته . (لمست الذكرى وترا حساسا في داخله: يندهش ويحب اشياء كثيرة، وعندما يجد الاخرين يعتبرون ذلك شيئا عاديا، تموت في داخله الدهشة خوفا من ان يكون مختلفا عن الاخرين..). يتقلب في السرير وهو يقول لنفسه : علينا الا نبدا بذلك، بمحاسبة الذات ..

ذلك الرجل القاتم شحب وشحب في ذاكرته حتى اندثر. ولكنه الان يستعيده طازجا كانه يقف امامه .

بعد يومين من ذلك الموقف مع الطفلة لقيها مرة اخرى. كان عائـداً الى البيت في ساعة متأخرة من الليل، والجو بارد، ممطر، موحل. كانـت عودة تبهظه باحساس ثقيل بقدرة الزمن على الهدم الدائب: ها هو يـوم اخر يمضي، مقتطعا من العمر المحسوب دون ان يحدث شيء، ها هو فشل اخر وانطفاء لحلم الصباح الطازج المتفائل بأن هذا اليوم سوف يكون مختلفا.

دخل من باب العمارة فراى المصعد في الدور الارضي مضاء مـن الداخل. كان ذلك يعني ان شخصا بداخله. من المستطيل الزجاجي الـذي بباب المصعد راى جزءا مستطيلا من روب نسائي ويدا جميلة ـ تلك الايدي الافريقية الجميلة ـ تمسك بالروب وتضمه من فتحته. يقين صلب انبأه انهـا هي التي تقف بالداخل، يقين تركه خائر القوى، يختنق بضربات قلبه المتعالية. وهو يقول لنفسه : « احزم امرك واقدم الان، الان ، والا فسوف تضيع منك الفرصة الى الابد». ولكنه كان يدرك عجزه ورعدته في ساعـة الحسم. فتح الباب وولج المصعد وواجهها. تظاهر انه فوجيء ، كان قـد فوجيء فعلا وكاد يعتذر، بل هم ان يغادر المصعد. بصوت اخشنه التوتـر قـال :

ـ «مساء الخير » .

كان ذلك اشبه بسؤال. ردت تحيته همسا. تردد واحتار، واضافت هي بعينين مسبلتين كأنها تود ان تنهي الموقف انها تبحث عن البواب ولكنه لا اثر له. كانت تتحدث ببطء، وبيأس اشعره بان وراء هذا الجرس الهادىء المهموس غضبا مكتوما تغالبه وقد نجحت بالكاد .

كانت ترتدي بيجامة كستور، وفوقها روب من نفس القماش يصـل الـى ركبتيها، ارضيته بيضاء ناصعة، مطبوع عليها زهور زرقاء صغيـرة. قـال لها انه قادم من الخارج ولم ير البواب او مساعده. كان يتملى وجهها، مستغلا اسبال عينيها. باغته بنظرة مستطلعة فارتبك. قال ، هل يستطيع مساعدتها؟ شكرية وقالت انها سوف تنتظر قليلا فلا بد للبواب ان يعـود في النهاية. فكر ان يلح، ولكنه شعر بالخطر الكامن في خلفية ذلك الصوت الهادىء، الناعم، البطيء فعدل. مرت لحظة صمت، وبدا أن ليس عنـده مـا يقوله، فضغطت على الزرار الموصل الى الدور الذي يسكن فيه (كيف عرفت اين يسكن؟) . خلال صعودهما احنت رأسها وبدا ذلك متعمـداً لتقطع كل محاولة من جانبه لمواصلة الحديث .

اخذ يتأمل عنقها الجميل. كان امامه، ممنوحا، قريبا، معدا للمس، للتقبيل. توقف المصعد وكان عليه ان يغادره، ولكنه تلكأ، وتهيأ ان يكـرر

استعداده لمعاونتها. وقبل أن يحزم امره، نظرت اليه ـ هل كان هنـــالك شبح ابتسـامة؟ ـ وقالت انها اسفة لما حدث منذ يومين. تنظر اليه بعينين هاربتين . قال : الطفلة ؟ فاطلقت ضحكة كان واضحا انها افلتت منها دون ان تستطيع التحكم فيها. قال لها انها طفلة لطيفة وضحك. سألها : هـل هي ابنتها؟ كان يعلم انها ليست ابنتها. قالت له انها ابنة اختها، وانهـــا تسبب احراجا دائما لامها. قال لها انها طفلة «شقية وظريفة»، فقالت ان الطفلة وحيدة ابويها، قال، آه، ذلك يحدث، ثم اضافت وهو يستعـــــد لمغادرة المصعد :

ـ «اصل ابوها بيدلعها قوي» .

ثم التفت اليها وتكلم بجرس قاطع قائلا ان الجو شديـد البرودة ، والساعة متاخرة، ومن المؤكد ان البواب قد اغلق عليه حجرته ونام، فمـا الذي تريده ؟ تعلق بلحظة صمت . . . ثم انتظر ان تطول فتكون خير رد على تقحمه، غير انها قالت وهي تلملم اطراف الروب حول العنق انها لا تريـد ان تتعبه. وعندما الح ـ احس انه مطلوب منه ان يلح ـ قالت ان سجايرها قـد نفدت وتريد علبة سجاير، اي نوع ؟ ، قالت كليوباترا. مد يده فمـدت لـه النقود دون أن تنظر اليه. لقد هنأ نفسه فيما بعد على الخطوة التالية: اخرج علبة سجايره ـ كانت كليوباترا ايضا ـ وقدمهـا اليهــا. ترددت، اندهشت، ابتسـمت ، ثم رفضت وفي النهاية تناولت سيجارة واحتفظـت بهـا في يدها. ثم اغلقت باب المصعد وانزلته الى الدور الارضي. غـادر المصعد، وقال لها ان ذلك لن يستغرق الا ثواني. ثم ارتكب خطاه القاتـــل ـ لم يكن قاتلا الى الحد الذي تصوره ـ وذلك عندمـا رفعت سبابتهـا وشخصت عيناها الى اعلى وقالت :

ـ «دور عشرة ، شقة . . .»

وقبل أن تتم عبارتها، قال :

ـ «عارف شقة ستة وثلاثين» .

غضبت؟ ربما، او قد يكون ذلك وهما .

في الخارج الهواء البارد اعاد اليه توازنه. اكتشف انه قد عرق في داخل المصعد. رغب ان يطيل البحث عن السجاير حتى يجد الوقت الكافي للتامل وفهم الموقف. ولكن ماذا يفعل والدكان الذي يبيع السجاير على بعد خطوات؟ (يسـائل نفسه الان: ما الذي جعله يلتزم بذلك الدكــان ولا يبعـد منه؟ لماذا لم يذهب الى المقهى القريب ويشرب فنجانا من القهوة، ثم يعود؟).

عندما رجع انتظر ان يجدها في داخل المصعد ولكنها لم تكن هنالـك.

لوحة الارقام تشير الى الدور الذي تسكنه. ضغط الزرار فلم يهبط، فاخذ يصعد السلم على قدميه. في الدور الرابع راى المصعد هابطا. فواصل صعوده، وجذبه في الدور السادس .

★ ★ ★

اخذ يستعيد التفاصيل الدقيقة لذلك اللقاء . هبط من المصعد في الدور الثامن (لماذا؟ لان العالم كله يراقبه وسوف يمنعه) . حاول ان يهديء من سرعته وهو يصعد السلم حتى لا يصل الى شقتها مبهور الانفاس، ولكن المتعة المنتظرة في التوقف امام بابها ثواني قليلة وتبادل عبارات الشكر (كأنه لو تأخر دقيقة واحدة فلن يراها ابدا) والخوف من ان يرى، كل ذلك دفعه الى القفز السريع والى ان يصل الى باب شقتها لاهثا، مختنقا بمشاعر يصعب تحديدها .

كان استرجاع تلك التفاصيل الدقيقة لذلك اللقاء له متعة المداعبات التي تسبق الممارسة الجنسية ـ هذه المداعبات عندما تكون امتع لحظات العملية الجنسية ـ . انه يصغي الى صوت المطر في الخارج وانعدام الحياة ويعاني عذاب الشوق الى عزة ، ان يراها مرة اخرى ، فيصبح تذكره هو التمهيد للانتصار على ذلك كله. . كله، بما فيه عامل الزمن .

★ ★ ★

توقف امام بابها ليستعيد تنفسه الطبيعي، لم يطق. مد يده ليدق الجرس، ولكنه فوجيء بالباب ينفتح على الفور ويده ما تزال معلقة. مد يده بعلبة السجاير والنقود ـ اشترى لها من نقوده وعزم ان يبرر ذلك بان البقال لم يكن عنده فكة ـ . لم تمد يدها ولكنها اوسعت فتحة الباب فراى نفسه مسوقا الى الدخول. اجلسته وعندما رات ان الجنيه لم يفك اسرعت وعادت اليه بثمن العلبة. كانت قاطعة في اعادة النقود اليه .

انصرفت تعد القهوة. الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل. اقنع نفسه ان يسمع صوت ساعات المدينة كلها يدق الواحدة . للشقة فخامة الفنادق القديمة، بهرجة حجرات وكلاء الوزارات. كانت مكانا يبعدك عن العالم، يكتنفك كالبيوت المسورة في دمشق وبغداد، كانت حلم يقظة صبي ريفي في بيت فخم . الستائر كثيرة وثقيلة. احب ذلك .

تعود، رائحة القهوة تسبقها، يتسلل اليه ايقاع المهباش : بدت المراة له في غبش الضوء الاحمر غير المباشر تسير بذلك الايقاع، حركة ردفيها

المتموجة، الموقعة جعل لمشيتها طلاقة الرقص. يغص بالكلام ويدرك في الوقت ذاته استحالة توصيل تلك اللوعة. انحنت نحوه تقدم اليه القهوة فتاة في ذلك القرب الحميم .

كان معدا لحبها منذ ان رآها تضحك تلك الضحكة الطلقة، الصافية عندما قدم للطفلة قطعة الشيكولاتة. لم تكن مرحة بشكل خاص، كما كان ينتظر ويحب. جلست امامه رزينة، تشرب فنجان القهوة بتلك الرقة التي انتهى زمانها عندما دخلنا في مرحلة اليونيسكس. وعندما تكلمت كان الحزن بضاعتها، او ربما تصورت ان ذلك خير وسيلة تقدم بها نفسها . ومن خلال حديثها اكتشف انها قد وضعته في اطار فئة الراضين بالمواضعات، وربما تكون احبته لهذا السبب بالذات. وراحت ترسم لنفسها صورة المرأة الضعيفة في مجتمع القساة المتجهمين التي هي بحاجة الى الحماية ـ حمايته هو . كان ذلك مخيبا على نحو ما، فلقد احب قوتها.

في تلك الليلة انصرف من بيتها مباشرة الى عمله. صنعت له افطارا خفيفا، اكلت معه على طرابيزة المطبخ، ثم غادرها في الثامنة. حاول ان ينصرف عدة مرات: بعد ان انتهى من شرب القهوة، بعد ان تعشى، عند فترات الصمت التي لم يكن يعرف كيف يملؤها، ولكنها كانت تبقيه . ثم اصبحت محاولاته بعد ذلك مجرد اختبار لرغبتها في بقائه. يتحفز للقيام قائلا ان الوقت اصبح متأخرا، فتقول :

ـ « نعسان ؟ »

ـ « لا ، بس . . . »

ـ «لا، بجد لو كنت نعسان، خش نام جوه».

وتتحفز للنهوض قائلة :

«حاطلع لك البيجاما . . .»

فيوضح لها انه يريد ان ينصرف لاجلها هي. فتقول :

ـ «بس انا مش نعسانة» .

وقبل ان ينصرف الى عمله، ووجهها ما يزال مشرقا ـ كيف يتأتى لهن ذلك؟ ـ قالت بحماس حقيقي :

ـ «انا سعيدة، سعيدة بشكل. .»!

فكر ان ذلك لا مبرر له، فهو ليس ممتعا للغاية. قال لها انه هو ايضا سعيد. احس انه اهانها برده البارد فاقترب منها وقبل وجنتها فتضرج وجهها على الفور واخذت عيناها ترمشان. كانت قبلته الاولى، قالت :

ـ «لازم اشوفك كتير ، كتير قوى»!

رجعت خطوة الى الخلف ومدت يدها. كانت حركة بارعة ، فالقبلة كانت تحرضه ان يستمر حتى النهاية. امسك بيدها متلعثما فقالت وهي تنهي مصافحته :

ــ «تاخرت على شغلك؟» .

قال :

ــ «طبعا ، طبعا!»

واتجه الى الباب . لحقت به، وفتحت الباب. قالت :

«الليلة .. تعالى الليلة اذا كنت فاضي!»

نظر اليها. قالت :

«حانزل لك!» .

شق صغير من بابها كانت تراقبه منه وهو يهبط السلم، متلفتا.

قالت عزة ان هذه السيدة قد فعلت ذلك حسب خطة محكمة.

قال لها ان ذلك غير صحيح ــ كيف يكون صحيحا ؟ ــ فلم يكن من المتصور انها تعلم في اية ساعة من الليل سوف يجيء فتقف في المصعد بانتظاره. هو نفسه لا يحدد ساعة لعودته. قالت ان ما تعنيه هو ان هذه السيدة قد وضعت الخطة وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذها، والا فما معنى ان تصعد الى شقتها وتنتظره هناك وهي تعلم ان البقال لا يبعد عن العمارة الا خطوات قليلة، كما انها كانت تعرف اين يسكن. قال لها ان ذلك مستحيل، يعني لا يستطيع ان يحزم بذلك، وهي على كل حال لم تسرق قميصه، لم تكن تريد منه شيئا على الاطلاق .

وكان صادقا .

ترددت عزة قليلا. كان وجهها محتقنا. قالت اني يسيء فهمها، دائما يسيء فهمها. ثم اوضحت انها تحاول ان تفسر ما حدث لا ان تدين. كان يعلم انه لو مضى خطوة اخرى في الدفاع عن تلك المراة فسوف تفقد عزة اعصابها. فقال لها انه يعلم انها تفسر، لا تدين وهو يحاول ان يشاركها في التفسير . قالت :

ــ «طيب، طيب، مش مهم» .

ثم اضافت قائلة، وبالمناسبة، هل اقترحت هذه السيدة ان يتزوجها؟

قال لها ان ذلك لم يحدث قط، بل حدث عكسه. كانت تقول انها قررت ان تمتنع عن الزواج بعد ان جربته،وانها قالت له مرة انها رات راهبة تسير في الشارع فقالت لنفسها «سوف اعيش مثلها حتى اموت ـ بلا زواج»

قالت عزة ان الراهبة لا تمتنع عن الزواج فقط، ولكنها تمتنع ايضا

عـن اشياء اخرى. كان وجه عزة غاضبا. قالت:
ــ «ما قلتلهاش كده؟»

يتذكر الرعب الذي ارتسم على وجه تلك المرأة عندما قال لها انه يرغب في تدخين الحشيش، لقد كانت مهمومة بالفعل، ويدرك ان امرأة ناضجـة، عاقلة احبته فيفتقدها .

قالت عزة، هل طلبت منه هذه المرأة ان يشترك معها في اعمالها. قال لها انـه قال لها الف مرة انها لم تفعل ذلك قط. بل انه يستطيع ان يقول ان هذه السيدة كانت تحاول ان تبتعد عن تلك الاعمال. استثيرت عزة الـى اقصى حـد :

«ازاي، ازاي، مش فاهمة .. يعني ما قلتش..» .

اقتربت تلك المرأة من المومس الفاضلة التائبة فاصبحت لا تقـــاوم بالنسبة لعزة . قال لها انه لا يوجد شيء محدد ولكنه احس ذلك. انفزع وجهها وقالت :

ــ «احساس؟ .. ايوه، ايوه» .

صمتت عزة تفكر. رغب ان يطلب اليها ان تتوقف لان هذا الموضوع يجعلها متوترة وعلى استعداد للنقار والشجار. قالت بعد قليل ان كل شيء يبـدو الان في ضوء جديد. وصمتت، مستفزة، مستثارة وهي تهمهم :

ــ «ايوه، ايوه ..»

قالت له عزة بعد قليل ماذا يكون شعوره لو علم انها على علاقة ببلطجي او تاجر حشيش. فكر انها تحاول ان تثير شجارا. قال لها انه اذا تم ذلك فلـن يستطيع منعه. غيرت لهجتها وقالت بجدية :

ــ «بجد، بجد، عايزه اعرف على سايح..» .

ثم اضافت انها تريد ان تسهر في الاوبرج وترى انماطا غريبة مـــن الناس. لن يكون سائحا واحدا، بل سائحين متعددين. فقد يكون الواحـد استثناء. ثم صمتت واخذت تنظر اليه بدهشة، قالت :

ــ «بص في المراية..»

ــ « ليــه ؟ »

فقالت له ان الدم قد هرب من وجهه. حاول ان يبتسم ولكن تصـور ذلك كان مؤلما للغاية . قالت :

« هية دي مساواة المرأة بالرجل ، مش كده؟ اشمعنى عزة بتاعتـك يعني» .

قـال :

ـ « انت غبية ! »

نهضت وقبلته . قالت:

ـ « كنت بهزر» .

ومرة تشاجر مع عزة فانصرفت غاضبة. قالت له انها لا تصلح لـه، وهـو لا يصلح لها. لقد كانت تعرف ذلك دائما. ان تاجرة الحشيش على مقاسـه تماما .

جرحه ذلك، فهو ما يزال يحمل تقديرا حقيقيا لتلك المراة. هو وحده يعلم كم بذلت من جهد، ولا ينسى ابدا ذلك المشهد الاخير بينهما الـذي لـن يبوح به لاحـد .

اعتذرت له عزة فيما بعد ، وكانت صادقة في اعتذارها. قالت انهـا لا تعرف ما الذي جعلها تقول شيئا كهذا. انها عصبية ـ كانه لا يعـرف ذلك ـ وتقول احيانا اشياء دون ان تفكر فيها . وكررت انها تحترم قـوة تلك المراة وصلابتها ، وانها ترغب حقا ان تكون تلك المراة صديقة لها ، ان يجلسا سويا ويتحدثان كامراتين .

★ ★ ★

★ ★ ★

يتذكر ذلك المشهد. كانت بدايته كوميدية. ذلك الرجل الكثيف الشعر قاتما، عنيفا، يخرج من المصعد، بينما هو ينوي دخوله. نظر اليه الرجـل بشراسة، فحاول ان يتفاداه، ولكنهما رقصا متقابلين : يبعد عن طريقه الى جهـة اليمين فيجده امامه، ثم يتحرك الى جهة اليسار فيجده امامه، ثـم اليمين والرجل امامه والى الشمال وهكذا، والرجل خـلال ذلـك يزداد شراسة. ثم توقف فاسرع الرجل بساقيه القصيرتين عبر الفسحة يغـادر العمارة مسرعا وهو يتمتم شيئا. لا بد انه يشتمه. يضحك وهو في داخل المصعد، ويغرق في الضحك. يتوقف فجاة عن الضحك، لقد تذكر شيئـا، في وجه الرجل جرح ـ في جبهته على وجه التحديد ـ . يتولاه ذعـر ويفكر : حدث شيء. ينسى كل التحفظات، يضغط على الزرار الموصـل الى الدور الذي تسكن فيه .

(لماذا لا افكر الا في النساء! بيورتاني من Pure ربما، لولرـمارثن اتاه صوت الرب وهو في...) دق الجرس، دقه طويلا ولم يتلق اجابـة، سمع حركة في الداخل، قال :

ـ «افتحي، انـا ...»
اضاءت العين السحرية (ينفتح باب المصعد، يخرج منه الرجـــل القائم .. هاي .. يضربه بركبته في أسفل البطن، ينحني القائم ، قائـــم grim فيدفع ركبته في وجهه...) العين السحرية اضاءت (هـــاي، يصوب ركبته الى أسفل البطن : انت بواب انت ...) صوتها من خلف الباب فـي شبه صراخ :
ـ «انا عيانــة ..»
ـ « اجيب لك دكتور ؟»
ـ «لا، لا، روح دلوقتي!»
(انا يقال لي هذا!)
ـ « فيه الراجل ...»
ترعـق :
ـ « روح دلوقتي ..»
ـ «دقيقــة» .
ـ «روح دلوقتي»
ـ «حاوقف لغاية الصبح، بكره الصبح»
كان في يدها سكين، عينها سوداء متورمة، يحاول ان يدخل، ترعق:
ـ «مش عايزة اشوف حد» .
تغلق الباب. يسمع نحيبها .
ـ «اجيب لك دكتور؟»
الم اجد شيئا اخر اقوله غير هذه العبارة ! يهبط السلم
في الليل لم تدق بابه. صعد اليها. في شقتها ضجيج اناس كثيرين.

★ ★ ★

ـ ٤ ـ

النحيب وصرير الاسنــان

نهض واتكأ على كوعه ، ومد يده وتناول كباية الشاي. وضعها علــى فمه. كانت فارغة، ليس فيها سوى رائحة الروم. وماذا يفعل الان؟ اعــاد الكباية وهبط في السرير. ذراعاه يؤلمانه لكثرة ما اعتمد عليهما نهوضاوعودة الى السرير وبحثا عن الشاي والسجاير، وجذب الغطاء فوقه. وماذا الان؟ يصنع شايا؟ ان مجرد التفكير في ذلك يقلب معدته ويثير الغثيان. مــاذا اذن؟ قرر ان ينام .

(علي الا افكر فيالنساء.عيب).يضحك ضحكة خافتة. ومدد جسده على السرير، ململما الغطاء حوله، محكما اطرافه. عند ذاك اشتاق لعــزة. كان افتقادها شبيها بافتقاد امتداد جسده، اشبه بكونه يرغب في التمطي والتثاؤب فيجد ان المكان لا يتسع لذلك .

كان ذلك اشبه بالاختناق !

تنتظم انفاسه ويسترخي ـ يود ان يقنع شخصا يراقبه انه نــائــم. يستطيع ان يتقن ذلك. فنجان قهوة وسيجارة مطلبي، بل مطلباي. يتــوه في شبه غفوة. للقهوة ست فوائد، الفول والعنقاء والخل الوفي واللبــن والخل والزيت والليل والاكاذيب، هذا يعني انني سوف استغرق فـــي النوم ... تجتاحه يقظة مفاجئة ـ صرخة : من المستحيل الاستمرار هكذا، المضي في هذا، تغليف هذا الجسد المتوفز، المستفز، الذي اضجره حتــى

الانهاك محاولة استجلاب النوم ومحاصرته باللحاف. لابد ان يحدث شيء، لابد ان يحدث شيء، لا بد أن يحدث شيء .. ويترقب المحال : ان يدور المفتاح بالباب، وتنبثق منه عزة ـ عزة : الطلعة الشامخة، عمود الضياء المعطـر، بتحولاتها المباغتة، عزة تبعث الدفء في هذا الخواء البارد، الراكد الهواء، عزة بتجلياتها : الوقار المستفز، المرح الجنوني، التوهج الطفولي الذي يحيلها الى دوامة من الحركة والتساؤلات والصخب، فلتجيء لتجعل للحيـاة معنى ... ويحس في تلك الهجعة المكروبة، الخانقة، الاسنة، في ذلك النوم ـ الموات الشتائي ان ليس للزمن الا معنى وحيد، الاقتراب حثيثا، دون توقف من الموت، السير الدائب نحوه كأنه هو هدف الوجود، ولا هدف غيـره .

يكن، تاركا جسده يمتص هذا الرعب الاصم .

يمتد مشدودا كما يجب ان يكون السهم وهو يستعد للانطلاق. والزمن يقضم الحياة بالحاح ودأب حتى يأتي عليه . «اني اختنق» ثم تبين انه كان يمسك تنفسه. ابتسم في داخله ، نفشته راحة .

ـ « عزة » ...

ينشق عنها الباب .. «عزة» ...

تراءت له مشمسة، ممشوقة، تمسك كتابا بيدها وتعبر، يـرى منظرها الجانبي .. تلك عزة ؟ ! لا تسمعه كأنه يشاهدها على شاشة سينما فـي فيلم لانجمار برجمان ... اين كان ذلك، ومتى؟ هناك شباك ومشربية ووشي عربي دقيق مرسوم على زجاج .. اين؟ الزجاج المعشق في جامـع ماذا ...؟ لا معنى لهذا التذكر .. تنحني فوقه شعرها ينساب ناعمـا، يتدافع ببطء، مؤطرا وجهها، ثم ينفلت، وجهها يقترب ، يحس لفـح انفاسها على عينيه ـ يمنع نفسه من الضحك وشعرها يداعب وجهـه ـ عطر جسدها ينفذ اليه، تهمس :

ـ « نايم ؟»

يسمع الخطوات المبهمة، ثم همسة المفتاح بالباب ـ صوت يستطيع تمييزه رغم غموضه ومشابهته لآلاف الاصوات ـ ثم وقع خطواتها وهـي تجتاز الصالة، ثم تدخل وتنحني فوقه وتهمس :

ـ « نايم ؟ »

تلمس خده بشفتيها .

يستعيد حس جسدها : الكتفان المدوران، مؤخرة عنقها في يـده، وفمه يداعب نحرها النابض، يحسها لصقه. كاد ان يوجدهـا . ثم ينكسر

الحلم على شكل احساسه بحدود جسده : مومياء محاطة بلفائف ... كان ذلك مبهظا، ثقيلا كيد توضع على فمك وانفك وانت تتهيأ لتاخذ نفسا عميقا. يحاول ان يستعيدها مرة من خلال تركيز حلم يقظته، ولكن الحلم يصبح مجرد عبارات تنبت وتموت، تنبت وتموت .

يهبط من السرير قفزا. ارتدى البالطو واخذ يسير في الشقة. البالطو في الشقة، كان ذلك يضحك عزة. لماذا لا يشعل الدفاية الكهربائية؟ تقول عزة ان الدفاية تلسع ولا تدفيء.

خط سيره يبدأ من باب الشقة وينتهي بدولاب المطبخ. تثقل عليه الاطباق الموضوعة فوق طرابيزة الطعام فيها بقايا طبيخ. يتوقف امامها. قطع مهشمة من البطاطس ،حمراء بالصلصة في الطبق ، وحبات رز متناثرة ثابتة في الطبق، لها رسوخ النتوءات الصخرية. طبق اخر ثبتت فيه بعض قطع الطماطم ومزيج الماء بالزيت،وقطعجرجير صغيرة خضراء كانها مرسومة على حافة الطبق. في الصينية ماء وبقايا جرجير لها رائحة نفاذة، ثلاثة اطباق اخرى فوق بعضها، قطع خبز وبطاطس وسائل اسود على سطح الطرابيزة. ينتزع نفسه من هذا العذاب ويواصل التمشية. فلنر حوض المطبخ، لمجرد الحصر. كبايات بها بقايا شاي، وقطرات ماء عالقة بهـا، فناجين قهوة بها بقايا تفل اسود، سكاكين ملوثة بالمربة والزبدة ...يكفي، يكفي ... يتسرب اليه الضجر سريعا، يواصل التمشية .. وهذا السير الذي لا جدوى منه ولن يؤدي الى شيء، ولكنه يواصل من باب الشقة الى دولاب المطبخ، من دولاب المطبخ الى باب الشقة، الخيار الاخر هو عذاب السرير. .خطوات على السلم،يصعد امامه البواب العجوز بعينيه العجوزتين ولثته السوداء في فم خال من الاسنان «لو تسمع يا عم عبده تلت بيضات و...» تشكل فمه بالكلمات . يتجه الى الباب «كل البوابين يحملون اسم عبده وكلهم عم». اصبحت الخطوات مشكوكا فيها « يا عم عبده» يفتح الباب . تيار الهواء يندفع لولبيا، يتخلل ملابسه فيرتعش ويئن، يقول: «برد»، يقول ذلك من اجل عم عبده. لم يكن البواب هنالك، لا احد هنالك لا احد يهبط السلم. السلم خال، نظيف، ابيض، غارق في ضوء رمادي. يبدو التفافه الحاد الى الدور الاعلى متحديا. يعريه البرد ولكنه يقف: «فليهبط احد، فليصعد احد، فليفتح باب شقة...» لا يستجيب السلم. يظل هناك ابيض، نظيفا، جزءا ثابتا من الابدية، مستغرقا في احدى دورات المادة اللانهائية، صلبا، مصمتا. . لا يستجيب السلم، وفي داخله لهفة للاقدام تجتاحالسلم صاعدة، هابطة،مثرثرة، صامتة،مطرقعة . .لا احد.

يغلق الباب ويواصل التمشية .

انفه بارد وقدماه متثلجتان . يخطر له ان يلبس جواربه (ماذا سوف تقول عزة عندما تراني مثل الكرنبة!). يستمر محافظا على خط سيره بصرامة : من باب الشقة، عبر الصالة، ثم الممر الضيق، المظلم، الذي يفصل حجرة النوم من الحمام، ثم يدلف من باب المطبخ الى ان يصل الى الدولاب، فيستدير لامسا طرفه بالبالطو ويعود من نفس الطريق. كان ذلك اشبه بطقس لا بد منه. يقرر وهو يسير ان يغسل الاطباق والكبايات. قال لنفسه ان ذلك سوف يجعل الشقة مكانا شبه انساني. استهوته الفكرة بفتنة لا تقاوم، سيطر عليه اغواء تلك العملية الانثوية، عندما يتحول الطبق المتسخ الكابي بعد جهد مركز الى قطعة من الصيني النظيف، اللامع، وينكشف له سطح اخر، وعمق جديد. يتسرسب في عروقه دبيب الخلق فرحا وخصوبة، محملا باستثارات جسدية. يحس انه بهذا يصبح قريبا من عزة، تلك القرابة الحميمة التي تجمع بين اثنين يمتلكان بصيرة بجوهر الاشياء. بذا يصبح الاثنان واحدا. اخذ يراقب حركة جسده، كأنها حركة جسد اخر ملتصق به. كان في ذلك متعة خاصة واغواء يصعب تحديده، كأنما عزة في داخله . يركز على ذلك الاحساس ويحاول ان يضعه في كلمات فيراوغه ويتحفز ــ ذلك الاحساس ــ لمفارقة جسده، فيندفع الى الحركة الجسدية كوسيلة للاحتفاظ به .

خلع البالطو وتناول ملعقة مستعملة واخذ يكحت بقايا الطعام من الاطباق ويضعها في طبق واحد، ثم وضع الاطباق فوق بعضها. فتح شباك الصالة المطل على المنور وحمل الصينية اليه والقى بالماء وبقايا الجرجير المتحلل، وفعل نفس الشيء بالطبق الذي جمع فيه بقايا الطعام المتحجرة. ثم يحمل الاطباق والصينية الى المطبخ ــ وهو يسير نحو المطبخ قال لنفسه «هكذا تسير عزة» وحاول ان يقلد مشيتها ــ . كانا يجلسان في كافتريا كلية الاداب بجامعة القاهرة . شمس الشتاء لاسعة فوق وجهه، وحولهما تلك الحركة التي لا تهمد. ينحني نحو عزة ويقدم لها زجاجة الكوكاكولا :

ــ « جربي الشمبانيا دي!»

يضيء المطبخ . يقدم لها زجاجة الكوكا كولا : «جربي الشمبانيا دي» تبتل قدماه وتنزلقان انزلاقا خفيفا. يتخفف من حملة ويتأمل ارضية المطبخ. لقد نفذ ماء المطر من عقب باب المطبخ المطل على سلم الخدم. يغالب يأسا وضجرا دهماه ويقول لنفسه «هنالك عمل اضافي» . يبحث عن

الخيشة التي تمسح بها الخادمة البلاط «هذه الخادمة لا تضع الاشياء في اماكن يمكن ان ترى. لعبة استغماية» يجدها. يدور بها في ارضية المطبخ وعندما يثقلها الماء يعصرها في الحوض «لقد لوثت الكبايات بماء المسح»، يفكر بغيظ . يمسح ويمسح ولا يبدو ان الماء المتسرب قد قل . يقبل على ذلك بعصبية، ويعصر المسحة مرة واخرى في الحوض، ثم يثبتها تحت باب المطبخ . يضع ممسحة اخرى خلفها «خط الدفاع الثاني»، لم يكن يقصد النكتة، بل مرت هذه العبارة في ذهنه واستقبلها بجدية كاملة .

يقف . يداه ملوثتان بلا رجاء، وقدماه ، هل عليه ان يغسل قدميه ايضا؟ يشهد الاطباق المكومة، والكبايات والفناجين والملاعق وغيرها . . . فيتولاه ضجر ثقيل ، ثقيل كالموت. لو بدأ فلن ينتهي قبل سنة كاملة «هؤلاء المتزوجون الذين لا يكفون عن الشكوى من ملل الحياة الزوجية فليجربوا مباهج العزوبية يوما واحدا كهذا اليوم» .

بدا له ان ذلك سوف يستمر الى الابد. يدخل الحمام «جربي الشمبانيا دي!» هنا كارثة حقيقية. زجاجة الكوكاكولا مثلجة مبلولة في يده «تفضلي. .». على جدار الحمام على يساره وهو داخل قد نشع ماء المطر راسما دائرة كبيرة، لونها أصفر خفيف، وفي أماكن مختلفة منها قطرات ماء براقة،، ثابتة محدبة .

يفتح الحنفية ويفرك يديه بالصابونة، ثم يجففها. يحس بهما داخل الفوطة كبيرتين مخدرتين .

يرتدي البالطو ويواصل التمشية :

ــ «جربي الشمبانيا دي!»

تمسك عزة بزجاجة الكوكاكولا دون ان تبتسم. ثم قالت . . . تبين له انه لا يستطيع التذكر بوضوح وهو يمشي. يستحضر الكلمات وتغيب الصورة . ولكن عليه ان يتذكر وان يحول الذكرى الى حلم يقظة والا فان الاستمرار في السير يصبح مرهقا، مملا .

يحني راسه لها :

«تقابلنا فين قبل كده » ؟.

يحني راسه «سيادتك»، لو كنت قد اشتريت تلك الدفاية التي تشتعل بالكيروسين، وفرشت الارض العارية بالسجاد الرخيص، ولكن ذلك يحتاج الى امرأة، زوجة؟ لتمنع تسرب المياه «فين تقابلنا قبل كده؟» عيناها تقلصتا بالتوتر «ماذا لو رآني احد اكلم نفسي؟» حلم اليقظة يكون في السرير واللحاف يخفيه كله، وتقفز أمام عينيه صورة الوجه وراء شباك

اكسلسيور. الراس مستطيل كانه اسطوانة وضعت فوق العنق ـ كانه مجرد امتداد للعنق ـ ووجه له لون البن الفاتح ، صلابته تشي بملمس خشب السنديان. رآه عندما اجتاز نهاية شارع عدلي ماراً أمام السيارات التي يحتجزها الضوء الاحمر من الاندفاع شمالا في شارع سليمان باشا. الوجه صارم، متيبس التقاطيع كوجوه الضباط النازيين في الافلام. عندما يحاذيه يرى العينين: بركتان من الماء العكر، وفمه يتكلم بسرعة. يده اليمنى مرفوعة في الهواء على شكل قبضة متوعدة، تهوي فتخبط سطح الطرابيزة. لا يرى احداً يجلس امامه. يدخل المقهى ويجلس على طرابيزة يستطيع ان يواجه فيها الرجل. كان يتحدث بصوت مرتفع ولكن ضجيج المكان لم يتح له سماع كلماته بوضوح. وقفت الجرسونة أمامه، تابعت نظرته وعندما رات انها تنتهي عند الرجل الذي يحدث نفسه ابتسمت. طلب منها قهوة اكسبرسو، وعندما رأى ان وجهها جميل طلب سندويتشين روز بيف. قالت وهي تبتسم :

ـ «حاجة تانية؟»

اوما براسه نحو الرجل وقال لها انه رجل غريب. قالت انه يأتي كل يوم ويجلس في نفس المكان . رمقت الرجل بنظرة جانبية وقالت انه احيانا يقف ويواصل كلامه واقفا. قال لها انه رجل غريب. فانصرفت ببطء وهي تكتب في دفتر صغير بيدها .

يعود اليه الوجه الان، بعينيه الجاحظتين الرجراجتين فيفكر :

«الاغلب ان ذلك قد بدأ مع الرجل في يوم مثل هذا اليوم، وربما في شقة كهذه، وفي ظروف ... على ان اتوقف عن ذلك ..» يتذكر عبارة في احد الافلام قالتها فتاة جميلة وهي ترى عجوزاً نائما في حديقة عامة وقد غطاه قيء السكر : «لقد كان يوما ما طفلا جميلا، له ام واب يحبانه...» خطر له فجاة : «انا ذلك الملقى في حديقة عامة؟» ويواصل التمشية «على ان افكر في عزة فقط» ينظر الى ارضية المطبخ . لقد اصبح الماء بقعة وراء الباب وتحت الحوض فقط. يستطيع ان يطمئن الان انه لن ينفذ من المطبخ الى حجرة النوم. يتذكر انه غسل يديه ولم يغسل قدميه. يتنبه الى ان الشبشب زلق في قدميه . يدخل حجرة النوم ويخرج منديلا نظيفا من الدولاب ويجفف به قدميه . يتسخ المنديل فلقيه في طرف الحجرة وهو يفكر : «لقد ارتكبت حماقة » .

عاد الى السرير ، عانى في تسوية البطاطين، ثم التف بهما. قدماه كقطعتين من الثلج الصقتا في نهاية ساقية. يفرك بهما المرتبة والبطاطين

واللحاف . دب فيهما احساس بالالم ، ولكنهما ظلتا باردتين. يشعر برغبة في التبول ، ولكنه يعجز عن اتخاذ قرار بالنهوض من السرير، يقول لنفسه انها رغبة غير حقيقية، انما هو البرد وحسب، ويزداد التفافا بالبطاطين. خطوات تصعد السلم، تقف وراء الباب، ثم لا شيء. صوت هين لضغط جسد على الباب ، ثم لا شيء . ثم لا شيء ، ثم لا شيء ، ثم لا شي . «نصفي الاعلى دافيء، والنصف الاخر يزداد بردا» .

ـ « عزة » .

ناداها بهمس مختنق، غاضب، كأنه يستجير .

احس ان حدة الكآبة التي يعانيها والوحدة والضجر والبرد. والرعب من النهاية كفيلة باعادة عزة اليه ـ سوف تجيء لمجرد ان ذلك غير معقول، ان يكون، وان يمضي هكذا بلا نهاية. انتظر ان تلك الرطوبة الثقيلة والعتمة الكابية ونشع الماء في الجدران والماء المتسرب من تحت باب المطبخ والهواء الفاسد المحمل بروائح الطعام والبوتاجاز والبول ... ان ذلك كله سوف يبدأ في التكثف والتجدد، وانه من قلب تلك الظلمة اللزجة سوف تنبعث عزة مشرقة، متوقدة بالحيوية والتوتر، يقظة ودافئة، تسري في القتامة فتمتصها وتذيب وطأتها .. سوف تنهض عزة من قبره هذا منبئة بالشمس في الخارج، والنسيم، والشجر المبتل بالندى . قطراته براقة، مترعة بضوء الفجر ... الان، اكثر من اي شيء، اكثر من الحياة ذاتها، يريدها الان، في هذه اللحظة يريدها، الان ، الان ... يترقب باعصاب مشدودة متوقفا عن التنفس يترقب يدها على الباب، تبحث عن موضع الجرس، قدماها القلقتان تسحقان حباب الرمل الصغيرة المنثورة في مدخل باب العمارة ، يترقب، يترقب، يكاد يختنق بالترقب ...

ثم فجاة انطفأ ذلك الترقب المتوتر الملهوف وذاب في السرير، استرخى بحس من يعلم ان عليه ان يتلاءم مع وضع استثنائي، وقرر الا يفكر في شيء. لم يكن هنالك الا احساسه بجسده : بتنفسه، وبملامسة اعضائه للفراش . كان ذلك شبه نوم، نصف موت، استعدادا طويلا، متأنيا، صابرا للخلاص النهائي .. «قد اكون نائما» ..

قالت عزة انه مجنون اذ يفكر في ذلك وفي مثل هذه الساعة. . ولكنه كان يعلم من هو المجنون في حقيقة الامر. في السابعة صباحا كانت مستعدة. هبطت من السرير مغمضة العينين، تتعثر بالسجادة وتبحث عن الشبشب. اجتاحته الفرحة وهو يرى ذلك الوجه. كانت فرحته رغبة في الضحك. قبل ذلك الوجه. استجابت له وطوقته بذراعيها، وضعت

راسها على كتفه واستكنت.

قــال :

ــ «مايزه تنامي» ؟

انتزعت نفسها وابتعدت وهي تهمهم. ولكنها انتهت من ارتداء ملابسها سريعا، يسيران في الشوارع، في المنطقة التي تفصل شارع النيــــل عن شارع وزارة الزراعة، وبين شارع التحرير وشارع نوال. كان ذلك شبيهــا بالرجوع الى عالم الطفولة . لمسات ذهبية في ذؤابات الشجر وقمم المباني. ضوء بلوري يعم الكون، وفوقهما سماء باردة، متماسكة الزرقة، لهاملمس ومذاق. على الاغصان السوداء العارية تنبت اوراق صغيرة ، شفافــــة الخضرة، وزهور بنفسجية واخرى بيضاء. ولكن الجذوع ما زالت محتفظة بعريها الشتوي، الفظ، الخشن. تتعلق بالاوراق الغضة والزهور الصغيرة قطرات الندى مترعة بالضوء الطازج الخفيف كأنها قطع كريستال صغيرة. البيوت في هذه المنطقة محاطة باشجار ثقيلة الخضرة. تنفتح ضفة بــــاب مطل على البلكونة، ولا يبدو احد خلفها. من نهاية الشارع تبدو مجموعــة طالبات صغيرات بزي موحد يجترن الشارع حمراوات، ضاحكات، يعلــو لثوان هديلهن المختلط، المدغم، تتخلله ضحكات الصغيرات الحادة.ثم يحط الصمت، فليس هنالك الا وقع اقدامهما .

يسيران، لا يودان ان ينتهيا، يبدو لهما عبر شوارع متتالية،متوازية لمحات من الكورنيش والنيل والكازينوهات التي تقع على الطرف الاخــر للنهر ولكنهما ينحرفان ويبتعدان عن الكورنيش .

تقتحمهما عينا فتاة طويلة بنظرة حادة، شريرة، ساخرة، تتــوســط مجموعة من الطالبات كلهن اقصر منها، وتقول وهي تحدق في عينيهبوقاحة:

ــ « يا عيني ع الصبر» .

تضحك عزة وتزيل الضحك بيدها. تنهشه الكلمات ولكنه لا يقــول شيئا. الكلمات بينهما قليلة للغاية. «الشباك المدور اللي هناك»! تهــــز راسها . لقد رأته. ويمضيان . تتعلق عيناها بابراج صغيرة فوق سطح فيلا محاطة بشجر كثيف ثم تنظر اليه. ذلك يعني انهما سوف يتحدثان عن ذلك فيما بعد. تتأمل نقوشا بارزة على وجهة احدى السفارات تبطىء عندما تفعل ذلك. يقول لها :

ــ « بايــن مبنى قديم » .

تهز راسهــا ،ثم تواصل السيــر .

ــ « شفت المنطقــة قبــل كده؟»

تنظر حولها وتقول :
ــ «مريت كتير من هنا، بس ما كنتش بشوفها».
وتلتفت اليه متسائلة . يمسك يدها ، فتكون في يده باردة، ناعمة.
في الثامنة والنصف كانا يسيران على الكورنيش وقد اصبحت تكثر من التعليقات . يتجهان الى الزمالك ، ويبحثان عن مكان ياكلان فيه ويشربان الشاي . تقول وهي حمراء وذهبية بالفرح والبرد :
ــ « انت مجنون »
وتضحك .
الدفء بدا مستعصيا . يحكم جذب البطاطين حول جسده ، يغطي راسه حتى تدفىء انفاسه الفراش . ثم يسأم ذلك كله . ينفض البطاطين وينهض ، فيشعر كأن ماء مثلجا قد انسكب فوقه فيرتعش وتصطك اسنانه . يمارس بعض التمرينات الرياضية ، يزداد بردا ويتولاه الضجر فيعود الى السرير .

★ ★ ★

★ ★ ★

السرير عذاب متصل . يبحث عن وضع لا يؤلمه فيه كتفه ، يجده، ثم يتسرب الالم الى كتفه مرة اخرى . ذراعاه مكدودتان لكثرة ما اعتمد عليهما في تقلبه على السرير . يعزم ان ينهض ويصنع فنجانا من القهوة ، يحاور جسده مصغيا لردود فعله « قهوة بالروم » فيشعر بالغثيان ، ويحس بالقيء يصعد الى حلقه . يهمد في السرير . يفكر ان كمية العذاب التي ... « هل هنالك مقياس للالم حتى اقول كمية ؟ ان كيفية الالم .. المعنى يتغير .. ان الالم ، كمية بمعنى درجة .. فلا توقف . انا ناقص ... ماذا كنت اقول؟ الكيفية ، هي مجموعة كميات، التغير الكمي يؤدي الى ... سارتر هذا : غليان الماء ليس تغيرا كيفيا فالبخار هو الماء وقد ازدادت سرعة ذرات الماء .. بالطبع ستالن .. يؤدي الى تغير كيفي ، نوعي ... بالطبع كل واحد فيه قدر من الجنون، وما يسمى بالجنون فارق كمي .. تحول نوعي ، فاهمه معنى كمي ؟ تهز راسها ــ انها تعرف معنى ذلك .. انت مثلا ، يمكن ان نسميك مجنونة الى حد ما ، اكثر من الطبيعي حبتين ...»
يعاوده الم كتفه .. انت مثلا يمكن ان نسميك .. ينساب من وجهها

حس الفكاهـة على الفور . ترفع جسدها وتغرس كوعها في الوسادة . لا يبدو انهـا استنكـرت ما قاله ، تعبيـر وجهها يحمل تساؤلا وحسب، تقول :

ـ « ازاي يعني ، مش فاهمه ، يعني مجنونه حبتين ازاي يعنـي، يعني مش فاهمه ؟ »

وعيناها ترمشان وترمشان . يقول :

ـ « مثلا . . »

ويتوقف . تنتظر ثم تقول :

ـ « ايوه ؟ »

ـ « مثلا ، مثلا . . مثلا . . »

ـ « مش لاقي حاجة تقولها ؟ »

تقول ذلك في رجاء ، وتنتظـر مترقبة . وعندما لا يجيب تقتـرب منـه وتقـول :

ـ « مش كده ؟ »

لم تكن قد تعودت فظاظة حسه الفكاهي . لذا كانت فكاهته تخيفهـا قليـلا وتستلب منها تماسكها .

تنتظره بوجه مستعطف ، يقول :

ـ « لما تتكلمي بالتليفون » يقلد صوتها « مرة ، عايزة اشوفك ، طيب الساعـة عشرة . . وتحطي السماعة » .

ترمش عيناها عدة مرات في محاولة للفهم ، تبتعد عنه لتراه بشكل اوضـح ، ثم تقول :

ـ « طيب . . . طيب . . مفروض اقول ايه ؟ »

ـ « الاول تقولي صباح الخير وبعدين . . . »

تسترخي وتنزلق في السرير وتجذب اللحاف حولها وقد فقـدت الاهتمـام . تغمض عينيها وتقول :

ـ باين انت اللي مجنون »

ثم تتنهـد .

يقول لها انه كان يمزح . تقول انها تعلم لك ، وتظل مغمضة العينين لا تضيف شيئـا .

ثم تنبه . احساس انباه ان جرس الباب سوف يدق . قال لنفسـه ان احساسه لن يخطيء ابدا . وترقب متوترا، لا يفكر في شـيء ، اصبح هـو مجرد ذلـك الانتظار .

لا يحدث شيء . فليدق جرس الباب ، ولا يحدث شيء .

لماذا لا يدق الجرس؟ لماذا لا يصعد احد السلم او يهبط عليه احد؟ اين ذهب الجميع ؟ اين الاصدقاء والجيران والمثقفون والمومسات والقوادون وكتاب الروايات والقصص القصيرة والنقاد والممثلون والممثلات والمخرجون والمخرجات والمذيعون والمذيعات .. ؟ « هل نمت ؟ » اين الخدامات يطرقن الباب ليقترضن مشابك الغسيل والاطباق والسكر والشاي ، ويعدن بأن يرددن ما يأخذن ، ثم ينسين ذلك كله ؟ اين الخادمات يشكون ظلم الازواج وعدوان الجارة ويمدحن السائح ويغتبن مالك الشقة والبواب ؟ اين ذهب الشيوعيون والناصريون والبعثيون والاخوان المسلمون والقوميون العرب واعضاء حزب التحرير الاسلامي وانصار السنة المحمدية وحزب الله والقوميون السوريون والوجوديون والسورياليون والتروتسكيون والماويون وانصار القطاع العام والقطاع الخاص ..؟ كيف ولماذا ومتى هجره الجميع وساروا وخلفوه وراءهم ..؟ يهدد عزة : « سوف اعد كباية قهوة مغلية واملأ نصفها بالروم ، وسوف اشربها على لحم بطني !»

(يغادر السرير ودون ان يلبس البالطو يهبط السلم ، يندفع غير مكترث بالبرد ، يجتاز الفسحة ويتوقف امام باب العمارة . يبحث عن البواب فلا يجده . لا يجد احدا . الحوانيت والمقاهي والصيدلة مغلقة .

ينادي البواب فلا يسمع ردا . ماء اسود ، اسمر ، يتمجع امام باب العمارة . فلاقفز ، فلاقفز، والشارع خال واسود . يعود ويبحث عن مفتاح الشقة . لقد نسيه في الداخل يبحث عنه ويبحث فلا يجده . يتولاه الذعر ، يدفع باب الشقة بكتفه فلا يستجيب ، يدفع ويدفع ..ومحكوم عليه ان يظل ساعات طويلة في الخارج بملابس خفيفة .. سوف احطم هذا الباب .. اين النجار ... الماء الاسود الاسمر .. يعدو ..) يتمطى ،يحكم شد البطاطين حول جسده . يدق جرس الباب (هل دق فعلا) تدخل عزة طويلة ، صامتة ، جادة ، تلبس بالطو اسود وتقف في وسط الصالة. تقف كتمثال : مصمتة ، نحيلة . يقبلها ، تمنحه خدها في صمت . تعبر الصالة ، متصلبة ، وتدخل حجرة المكتب ، تراقب فوضى الكتب بحياد « هذا ما كنت اظنه » يقول ذلك الحياد . ينتظر قرارها بقلق . كل شيء يحدث في صمت : لقد انتزع الصوت من العالم . تدير له خدها ليقبله ، ثم تدير ظهرها وتواصل قراءة الرواية البوليسية : (جريمة فوق السحاب) . في الصمت ، عالم الاشياء والناس يصرخ ويصرخ دون صوت.

ينهض ، يلبس البالطو وينزل للبواب . يلبس البالطو ، يلف اللفحة حول عنقه « عايز اربع بيضات وعيش وجبنه وزيتون اسود وطعمية وجبنه وعيش بلدي وثلاث بيضات وزيتون اسود .. » يرتدي البالطو والشبشب، يعاكسه الباب ، لقد جعلته الرطوبة صعب الانفتاح والانغلاق ، يهبط السلم دور ودور ودور ، يتحسس جيوبه ، يتأكد من وجود المفتاح، يلبس البالطو ، ينظر من باب العمارة الزجاجي الى الخارج: كوكب آخر، خال من الحياة ، اوراق الشجر على الرصيف المقابل ترتعش بلا توقف، والعالم رمادي ، بلا صوت ، يبحث ويبحث : هنا ، لاهنا ، لا ، هنا، انا متأكد انه هنا ، هنا ... لقد نسي المفاتيح في الداخل .

ـ « ما كنتش تطيق ابعد عنك ثانية واحدة » .

تذكره بذلك ، تجرحه عبارتها ، لا يجد ما يقوله . « ماكنتش تطيق ... » تنساب من فوق السرير ، الى المطبخ لتعد الشاي او لتسخن الطعام فيشعر انها غابت وقتا طويلا . يناديها : هل انت مت او نمت؟ يسمع خطواتها مسرعة : ماذا حدث ؟ .. تأخرت ، ايه الحكاية .. ماذا تصنعين في المطبخ ؟ تقترب وتنحني فوقه ، يجذبها ويضمها ، تنفلت :

ـ « دقيقة واحدة ، دقيقة واحدة بالضبط وجايه لك . »

وست ساعات نقاش ، لا تعلق ، يعلم انها تضجر فانت تقولين انهم دائما يكررون نفس الكلام ـ لانك لا تسمعينهم فيخيل اليك انهم يكررون نفس الكلام . لا تجيب وتخرج الدخان من انفها ، تجذب نفسا عميقا من السيجارة وتخرج الدخان من انفها . فلينهض ، ويذهب الى اي مكان .. ويعيش الوحل والبرد والتاكسيات المسرعة التي ترفض التوقف والاتوبيسات المزدحمة القليلة والعراك ، وفي الداخل البرد والرعب من النشالين .. يدق جرس الباب دقة خفيفة ، خافتة الى حد انها قد تكون وهما .. الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل. الصمت . يفتح الباب في حذر يراها تصعد السلم . سبابتها تشير الى اعلى ، وتواصل الصعود دون ان تنظر اليه . يهبط مسرعا ، يركب المصعد من الدور الارضي وينتظرها في الدور التالي .

تدخل المصعد ، سبابتها على فمها مشيرة بالصمت ، يتلقاها ويضمها اليه، فمها لصق فمه يضحك. بمجرد ان تفتح باب الشقة تضمه اليها وتلقي رأسها على كتفه . لاول مرة تكون هي البادئة ، تقوده الى الكنبة وتجلس، وراسها على صدره، صامتة .

يمتلىء العالم حوله بالضجيج « سوف اصاب بالجنون ان لم اتوقف،

لن افكر في شيء ، يجب الا افكر في شيء ، في لا شيء ، لا شيء على الاطلاق،على الاطلاق .. » عزة تقتحم عليه الحجرة مشمسة ، مجنونة، صاخبة ، تغلي ، وتبرق ، لها عنف الشوارع والزحام وشمس الصيف « وذلك يعني ان عندي ارادة ، قررت الا افكر في شيء ، فلن افكر في شيء ..لن افكر في شيء قد تعني انني لا افكر في شيء محدد بالذات ، وقد افكر في اشياء كثيرة دون ان افكر في شيء، وقد تعنى ، حاضر ، لن افكر في شيء .. هاكم لغة دقيقة ولهذا فلن ... » . لم يعد يشعر بشيء او يفكر في شيء ، انصرف بكليته الى تلك الرغبة الملحة ، المؤلمة في التبول . كان هناك احساس عام بكلية جسده محددا بالبطاطين . ثم في لا شيء .

ــ « شمبانيا »

ــ « مفروض اقول ايه ؟ »

ــ « مش عارف » .

تمسك زجاجة الكوكا كولا وتقول :

ــ « شمبانيا جوني ووكر »

ــ « جوني ووكر نوع ويسكي » .

تهز كتفيها . يسألها :

ــ « ايه حكاية الجوني ووكر ؟»

تقول انها وقفت امام احدى الفترينات فرأت زجاجة عليها صورة رجل يمشي بسرعة ، ويلبس قبعة غريبة كالتي يرتديها حرس بكنجهام مكتوب عليها جوني ووكر .

ثم نام .

أيقظه الالم الناتج عن الرغبة الشديدة في التبوّل . خيّل اليه انه لم ينم الا دقائق معدودة . اسرع الى الحمام وهو يفكر ان عليه ان يرتدي البلوفر .

في الحمام ، وهو يتخفف ، فكر انه لامر طيب ان يكون ذلك قد انتهى . ولم يكن في ذهنه تحديد و اضح لما « قد انتهى ». يعود الى حجرة النوم فيفاجا بالسرير ،كان ذلك غير متوقع . يرى فيه ما يراه السجين الذي اخرج من زنزانته لبضع دقائق راى فيها ضوء الفجر ومآذن المساجد ، وانفساح العالم ورحابته ، ثم دفع بعد ذلك الى زنزانته . يقف مترددا . البرد يسوطه الى السرير ولكن جسده المرهق يأبى ويعاند .

هار حجرة النوم والبرد يعريه ويغلبه ، فراى نفسه منتصرا ،متقحما، يشق طريقه عبر الاهوال ، ولكنه يقف فوقها. اخذ يتجول فـي الشقة : هكذا يرقصون الباليه، هكذا يلعبون الاكروبات .. ثم دخل المطبخ ، وهـو يغني « ما اشربش الشاي، اشرب جازوزه انا » ، يشعل البوتاجاز ، ويضع البراد فوقه . يتنبه بحس فاجع انه رغم قراره فكل شيء يبدأ منجديد.

ود ان يبكي « لن اعـود الى ذلك السرير حتى لومت » . يغالب ارهاقا مفاجئا استولى عليه . يمد يده الى مفتاح الضوء ويضغط لا يحدث شيء ، يكرر ذلـك ، ثم يطرأ لـه « التيار مقطوع » يدور فـي الشقـة يجرب كـل المفاتيح . ولكنه يعلم ان التيار قـد انقطع . يعـود الى المطبخ ويقف امام البراد . يفكـر ان ذلـك اكثر ممـا يجب ، تعدى كـل حـد يمكـن قبوله . لا عدل فـي ذلـك ، لا بـد من حد ادنى مـن المعقوليـة والذوق . « لن اسمح بذلك ... » . لـم يكـن يعلم ضد من يوجه كل تلـك الاحتجاجات . يفتش عـن موضوع لغضبه ــ في حقيقـة الامر يحاول ان يتذكـر ــ فيمسك بالمدفع الرشاش ، يوجهه الى العجلتين الخلفيتين للعربة ويدوس على الزناد ، تلتف العربة المسرعـة حول نفسهـا وتتـوقف . « ارفعوا ايديكم الى اعلى ، انت ايضا .. » يطلق رصاصة تمر بينهـم « الى اعلى » . يرتعش غطاء البراد بالغليـان ، يشغل بـه ويسكب منـه الشـاي في الكباية . « ارفعـوا ايديكم » . يحمل كبايـة الشاي الى حجرة النوم، يضعهـا فوق الكومودينو . يبحث عـن زجاجة الروم ، يجدهـا، تندفع منها كميـة من الروم اكبر ممـا اراد الى الكبايـة . « حصل خير، حصل خير .» ويدخل السرير . يمد يده ويبحث عن الرواية التي كـان يقراها ، يجدها ، يضعهـا على الوسادة ويمد يده الى مفتـاح الضـوء ويضغط ، يفاجأ ، ثم يتذكـر ان التيار قد انقطع . « حتى هذا » . يطالع الظلام «وهذا غير عادل . اين الذوق؟» وتذكر والغيظ يأكله انـه قال هذا لنفسـه منذ قليل . الجرعـة الاولـى من الشاي احدثت غثيانا . لقد حدث ذلـك من قبل ايضا . يتلاشى الغثيان ويتسرب اثر الروم المبهج بطيئا. يفكر ان الكارثـة لم تحدث على ايـة حال . يكـاد يضحك . لا . ان هـذا الضغط على حلقه وعينيه ، هذا الاختناق هـو الرغبة في البكاء .

يمد اليهـا زجاجة الكوكا كولا :

ــ « جربي الشمبانيا دي »

تمد يدها ، مسبلة العينين ، تمسك الزجاجة ، باطراف اصابعهـا وتقـول :

ـ « مرســـي » .

يغلق باب المصعد ويعمد الى حجب المستطيل الزجاجي بظهره ،ينحني ويقبلها . يرى نفسه وهـو يقبلهـا في مرآة المصعد ، تضحك وفمه لصـق فمها ، يمـد زجاجة الكوكا كولا :

ـ « شمبانيا مدام ؟»

ـ « مش بشرب الصبح . »

ـ « ليـه ؟ »

ـ « في السينما بيقولوا كده . »

ـ « ما دام بيقولوا كده في السينما فـ .. طبعا ..»

تجتاحه موجة فزع : انه هـو الذي يشرب في الصباح .. يمد يده الى كبايـة الشاي ويشرب جرعة كبيرة ، واخرى . تثور معدته . يتنفس بعمق تتوقف الرغبـة في التقيوء .

يستكن في السرير . لا يفكـر في شيء ، لا يرغب في شيء . يمـد يـده ويشرب بقيـة الشاي المخلوط بالروم كانه يؤدي واجبا . يعـود الـى الاسترخاء بحس من يستسلم في النهاية . تمر عبر ذهنه اغنيـة شائعة، يجعل من تنفسه ايقاعـا لها. يكتشف انه يغنيها فيتوقف .

صمت . مـوت .

الروم يبعث استرخاء مقترنا بدوار خفيف . للذكـريات ايلام المجهود العضلي الشاق فتتوقف منتظرة . يتسرب اليه مرح ورغبة في الضحك. تدخل المستحيلات في مجال الممكنات . تنبعث عزة وتتجسد . يريدها ، يريدها الان، الآن ، في هذه اللحظة ، لن ينتظـر دقيقـة اخرى ، يجب ان تأتـي .. شعر ان مجـرد وجود تلـك الرغبة المؤلمة ، الملتاثة في ان تجيء سوف يجعلهـا تقتحم عليه المكان .

يكـاد يسمعهـا واقفـة بالباب .

- ٥ -

جملة اعتراضية

رآها تدخل صالة فندق شبرد . بدت له نحيلة وتعاني من خطأ ما في تكوينها . جلست قريبا من الطرابيزة التي يجلس عليها ، واخرجت مجلة شهرية من شنطتها المصنوعة من الجلد البني الطري واستغرقت في القراءة على الفور . لم ترفع راسها عن المجلة حتى جاء الاصدقاء الذين تنتظرهم فطوتها واعادتها الى شنطتها .

تفحصها ليجد ذلك الخطأ في تكوينها الجسدي . كان لها جسد رشيق يحتفظ باستقامة الجذع رغم احناءة الراس وهي تقرأ . فمها واسع، يحمل تعبيرا كأن صاحبته تمنع نفسها طيلة الوقت من الضحك. فكر انه ربما كان الخطأ في الفم ، ففي كل لحظة ، تكاد الشفتان تنفرجان. غير أن ذلك الفم لم يكن هو الذي اثار احساسه بوجود تشوه خلقي ما في تكوينها الجسدي .

جاءه الجرسون بالقهوة والماء المثلج فاستعجل انصرافه بلهفة ، وواصل تفحص المراة . كان نهداها كبيرين ، بارزين ، دون تناسب مع جسدها النحيل . اقنع نفسه بان ذلك هو مصدر احساسه بوجود خطأ ما في تكوينها . ولذا انصرف عنها واخذ يشرب فنجان قهوته باستمتاع، ويراقب الداخلين والخارجين الى صالة الفندق الكبير . ولكن اللهفة التي تولدت في داخله انبعثت مرة اخرى . قد يكون الخطأ في

الاسنان ، قال لنفسه دون ان ينظر اليها . ثم ابتسم عندما حاور نفسه قائلا : ولكن ما هو المطلوب مني بالضبط ؟ ان امد يدي وافتح فمها بالقوة ؟ واخذ يشرب قهوته .

ثم فكر : انني لم ار اسنانها . ربما كان الخطأ ذلك الوهم الذي اعتراه عندما اعتقد في اول الامر انها فتاة يعرفها ـ انتظر ابتسامتها وتوجهها اليه عندما دخلت تنظر حولها ، تبحث عن شخص ما .. وعندما تأملها جيدا تبين له خطأه . الاغلب ان ذلك قد تم هكذا : هذه هي عليّه ، واستعد لقبولها هكذا ، ثم حدث تشوّه ما جعلها فتاة اخرى . المرجح ان ذلك هو مبعث احساسه . وعلى اية حال فالامر طال حتى باخ وعليه ان يتوقف عن هذا .

كان يعاني ليتوقف .

نجح في نسيانها ولكنها ظلت في الخلفية هما يثقل عليه ويدفعه الى مواجهته بصراحة . ثم ، وكان ذلك ثم بمجرد المصادفة عاود مطالعتها، فرأى ان شيئا كالمعجزة قد حدث . لقد اصبحت الفتاة جميلة جمالا مذهلا . تبدلت بعض خصلات شعرها واكتسب وجهها تعبير قوة وحيوية كامنة وهي تواصل القراءة . واخذت تفاصيل جديدة تتكشف له: الخصر الدقيق ،الردفان القويان ، العنق الشامخ الممتد ، الذراعان في انسجامهما المنساب ، وفكر : « انا اعلم ان ذلك لن يتوقف ، وسوف يحكم علي باللوعة . »

وكما يحدث في الافلام الرديئة جاء الاصدقاء المشتركون ، وتم التعارف . انفصلوا عنهما، واستغرقاهما في الحديث. اجتاحته بسرعة اذهلته .

ثم كان بعد ذلك لقاء قصيرا ، حميما، حلوا ، منحى اليه بكل البراعات التي تكوّنت لديه ولاسباب بدت في الظاهر عملية بحتة ، انتهى كل شيء كما ينتهي يوم شتوي دافيء ، مخلفا احساسا للديذا، دائما . لقد كان لكل منهما علاقة تعذبه ، ويحاول ان ينهيها . واتفقا ان نفس الشيء حدث لكليهما ـ كل منهما اضفى على من يحب صفات رائعة ليست به ، ثم تكشفت له بعد ذلك الحقيقة المرة .

كان لقاؤهما مجرد تقاطع طريقين ، تاه بعده كل منهما عن الاخر على وعد لقاء لن يتحقق .

كانا يجلسان في الصالون . نهضت وقالت فليتمشيا لان الجو في الداخل خانق . غادر الحجرة وتوقف في الصالة . عندما تبعته استدار

نحوها فرفعت نظرتها اليه وتوقفت . امسك وجهها بين يديه وقبل شعرها ومرغ وجهه بملمس شعرها اللدن الهش . كان يغري بمضغه ، فوضعت راسها في صدره. انتظر ان تقبله هناك ، ولكنها كانت متكئة فقط . وعندما رفعت وجهها اليه تتأمله قبل عينيها واحس باختلاجة الجفن بين شفتيه . علا حبها في داخله واحس ان الزمام سوف يفلت منه، وسوف يصبح عنيفا . ابتعدت عنه وقالت ان ذلك لا يصح واخذت تسوّي ثوبها وشعرها . كانت عيناها مسبلتين .

سارا طويلا ويدها تمسك بيده . كانت ودودة ، مطواعة طيلة الوقت . احس انها تتخلى مختارة عن عنف هو جزء من تكوينها حتى لا تجرحه . ذلك السلوك المهذب كان مثل كرم ياتيك دون توقع او تبرير . وعندما ودعته قالت انه حين ينهي كل منهما هذه العلاقة التي تهينه وتعذبه (قالت له : عليك ان تنهيها ، وكذلك سوف افعل انا ذلك) فسوف يقيمان علاقة رائعة .

(قالت صداقة رائعة) . اراد ان يقول لها : فلنفعل ذلك الآن ، فلنبدأ من هذه اللحظة وليذهب الاثنان الى الجحيم . ولكنه لم يقل ذلك . كان يدرك انها كانت تحب رجلا اخر رغم كل شيء .

ان قرارات مثل قرارها لا تتحقق في العادة ، ولكنها جميلة عندما تقال . اذ تظل بين الاثنين رابطة حية وعميقة لا تنتهي ابدا لانها بداية حب ورمة لحظاته الاولى ، فهي لهذا تجسد طراجته وتحتفظ بها الى النهاية .

يجب التوقف للتحدث عن عينيها . حين رآها تدخل صالة الفندق كانت العينان هما اول ما اجتذب انتباهه . غرابتهما جعلته ينسى كل شيء آخر . وعندما جلست كانتا اول ما نسي . ولكنهما الحتا عليه وجعلتاه غير قادر على تحويل نظره عنها . اصبحتا جزءا من الثروة النادرة من الذكريات التي يحتفظ بها للايام القادمة ، مثل حبه لعزة وقبلة الفتاة البدوية ومشهد الاعدام في سجن عمان المركزي .. ومثلما تعيش في داخله شخصيات ابي الوازع الراسبي ، ناتاشا (الحرب والسلام) ، سوان (البحث عن الزمن الضائع) ، لونج جون سيلفر (جزيرة الكنز) ، سوردو (لمن تقرع الاجراس) .

لم تكونا العيون المصرية المتماسكة السواد حيث تتمايز القرنية وتستقل كانها مثبتة فوق البياض . ولا العيون الاوروبية الزرقاء التي توحي بنظرة عمياء ، بل عينان ذهبيتان تتعدد مراكز اشعاعهما ، اذ تنحل

القرنيتان في البياض ذهبا داكنا ، سائلا . نقاط بنية شفافة تبدو وتختفي في الجزء الملوّن من العين ، فتأخذ العينان طابعا رجراجا ، سريع التحول . فوق سطح العينين يطفو وهج قرمزي كغمامتين ناعمتين يوحي بحرارة قديمة واليفة . (اللمعة القرمزية هي التي اوحت اليه ، عندما رآها للمرة الاولى ، بأن صاحبتهما مصابة بمرض ماء او بتشوه غير محدد) .

عندما تطالع عينيها عن قرب يتكشف لك تعبيرهما الذي يحمل الحرج المحض (ترى بعين الخيال وانت مستغرق في مصيدة العينين يدين تمسكان بطرف الفستان وتشدانه فوق الركبة لان عينين وقحتين اقتحمتا تلك الهوة المظلمة التي تفصل بين الفخذين) . كان حرج امراة تحمي كنزها بقلة حيلة .

تحمل العينان كل هذا ، غير ان صاحبتهما تجلس مستقيمة ، متماسكة ، طلقة الحركة . كأنهما عينان اضيفتا اليها بفعل خيال سوريالي .

عندما تصغي اليك تحب ان تلمس الحدقتين بشفتيك ، أن تذوقهما ولا تدري كيف . وحين تلقى عليها سؤالا تتردد قليلا ، فتشع العينان وتراوغان . عندها تحب (او حتى ترغب بسادية ان كنت من ذلك النوع) ان تداعب صاحبتهما وتقسو عليها كما نفعل مع الاطفال عندما نريد ان نخرجهم عن حيادهم الجميل . اذا اقتربت منهما اكثر مما يجب فانك ترى حولا خفيفا . زئبقيا ، فهي لهذا لا تستطيع ان تطالعك او ان تطالع اي شيء آخر بتحديد جازم . عينان هاربتان ابدا ، مراوغتان كأن صاحبتهما تخشى فضيحة (او ربما كارثة) اذا التقت العيون ، تحاولان وتحاولان وتحاولان ان تحددا النظر فلا تستطيعان فتستمر المحاولة الى ما لا نهاية .

العينان مفتاحها وقناعها ، يرهق عينيك الضحك فيهما الذي يكتسي قواما من ضوء رجراج ، مختلط ، سائل فلا تعود ترى غيره، ولن يصلك منه اي تعبير سوى هذا التحرج الطفولي المحض الذي يقف في النقطة الحاسمة بين الضحك والبكاء ، وهذا الرد الدفاعي الانثوي الخالص ، تتمثل في تلك المحاماة الواهنة التي تسير في طريق القبول والرضوخ لذكورة جسورة . ولكن هذا التوتر المذاب هو هي ـ هو جوهرها وحقيقتها . لذا كانت كالشعاع مستحيلة الامساك، دائبة الهروب ، الا انها تتعرض دوما كامكانية لتعتقد انك تستطيع

محاصرتها واكتنافها .

لما رآها في المرة الثانية وقف مترددا . لم يستطع التأكد انها هي. لقد عادت امراة نحيلة تعاني من تشوّه ما لا يستطيع تحديده . وربما كان قد انصرف عنها بخيبة امل لو لم ترفع راسها اليه ولبتسم له وتتحول ابتسامتها الى شبه ضحكة . وظل مترددا امامها وهي تسأل يطرح نفسه عليه : لمن تبتسم هذه المراة ، وماذا حدث لها ان كانت هي فعلا المراة التي جاء الى لقائها . ظلت تبتسم له ، وخطا هو نحوها وهو يفكر : هذه هي المراة التي تنتظرني ، وهو يحاول ان ينزع الغرابة والدهشة من هذه الحقيقة التي يصعب عليه قبولها .

قالت :

ـ « نسيتني ؟ »

شعر بالخجل وقال :

ـ « شكلك تغير » .

وندم .

كان يفكر فيها كثيرا خلال المدة التي تلت لقاءه الاول بها ، ولكنه في خياله كانت عيناها نقطة انطلاقه ، فيراها امراة متحرجة ترتدي ملابس قصيرة .

قال لها :

ـ « كنت لابسه جونله في اول مرة ودلوقتي لابسه بنطلون ... »

عبارة غبية ، قال لنفسه . اندهشت وابتسمت . قال :

« الهدوم بتغير شكل الست » .

قالت انها كانت بنطلون في المرة الاولى .

ـ « بنطلون ؟ »

بالفعل يذكر انها كانت تمسك طرف الجونله وتشدها فوق الركبة. ولكن ما لم يستطع قوله لها ، وهو يغالب خيبة توقعه ، انها في المرة الاولى كانت امراة جميلة ادارت رأسه وانها الآن امراة عادية لا تجذب الانتباه . ولكن خياله يتسارع من جديد مطالبا بان تكون كما كانت في المرة الاولى ، معيدا بناءها من جديد ، فتستجيب المراة له ، ويتولد امام عينيه المذهلتين جسد رشيق، متماسك، ممتد . ينمو ويتصاعد افتتانه بها وهي تتخلق ببطء امام عينيه .

يطالع نظرات الجالسين في الفندق تحوطها ويتساءل :

كيف يتقبلون معجزة التحول هذه ؟ ولماذا يكتفون بتلك النظرات

التي تتظاهر بان دافعها هو حب الاستطلاع ـ مجرد العلم بالشيء بينما تختفي في داخلهم احلام يقظة مجنونة يدفعون فيها هذه المراة الرائعة الى السرير وينزعون عنها ملابسها ويفترسونها ؟

ويفكر : « ان الناس لا يرون ما ارى لانني لا ارى الاشياء بوضوح كاف؟ مثل حكاية الجونله ، لقد كانت تلبس بنطلونا في المرة السابقة »

تقول انها عند دخول الشتاء لا تلبس الجونلات . يتردد ويرتبك ثم يقول لها ان شيئا غريبا قد حدث . يحدث نفسه انه قد تورط ويحاول التوقف ، ثم يجد نفسه محاصرا فيبوح لها بما حدث . يحكي لها عن عينيها . تصغي له كانه يحكي عن حدث يصعب تصديقه ، فتنذهل وتتنفس بعمق وهي تعدل وضع خاتم غريب في يدها ، ثم لا تقول شيئا .

قال لها انه آسف . تقول :

ـ « ليه ؟ »

فيقول لها انه كان سخيفا ، والاغلب ان ذلك بسبب انه لم ينم جيدا البارحة . ضحكت وقالت انها سعيدة لانه قال ما قال .

★ ★ ★

الجزء الثالث

- ١ -

البحث عن جمال الديـن الافغاني

المشهد الختامي ...

تلـك اللوحة ـ عندمـا يستعيد ذلـك المشهد ـ من صنع رسـام هولندي من القرن السابع عشر : الضوء الشحيح والالوان القاتمة تسيطـر على المكان (يفكر . ذلـك يشبه الايقونات، ايقونة العذراء مريـم والطفـل والشمعـة تشتعل امامهـا في عتمة الدار الكبيرة) . ويخوض زحمـة الشـارع .

اللوحة هكذا : الاب بوجهه الكبير ، الاسمر قاتم ، عابس ، مزموم الشفتين . الام محتقنة الوجه غيظـا وهي تخلع ملابس الطفلة التي بللت ثيابهـا (وبللته هـو . يذكـر ذلـك) . والطفلة ملقاة على حجرها . الاب والام يجلسان على كرسيين متجاوريـن ، وهـو يجلس فـي مواجهتهما يطالع مـا يحدث امامه . في وجهه تعبيـر خشيـة وتوجس . كما تنقل اللوحـة للمشاهـد رغبة في الهرب يتبينهـا المشاهد ـ ربما ـ من حركة الجسد (التفاتة نحـو الباب ؟! وتحفز للنهوض ؟) وكذلك قـد تعبر عنها ملامـح الوجـه .

روح ساخرة (تفسـر بعـد ثلاثة قرون بانهـا تعبير عن شخصيـة رافضـة متمردة ، او حتى ثورية) تسيطر على اللوحة . غيـر ان السخرية يتخللها حنو رقيق كانت احدى سمات الروح الانسانية التـي كانت تسود

ذلك العصر . (عبث الخيال يجعله يضيف صورة كلب يجلس مقعيا في منتصف المسافة بين المجموعة والباب . الكلب ينظر الى الطفلة بنفس النظرة الورعة ، اللائمة التي تنطبع على وجه الاب ، ولكن على نحو اكثر حدة اذ يخالطها قدر من الاشمئزاز والتقزز . ولو استطاع ذلك الكلب ان يعبر بالكلام عما يجول في ذهنه لقال : « انني اعرف تماما آنسات هذه الايام ! ») .

تلمس ذلك الحنو بوضوح على شكل توق الى الماضي ، يتجسد في زخارف اسلامية تبدو كاطار للصورة ، وربما كامتداد للاثاث المصري، اذ يحطم هيكله العملي ليضفي على اللوحة جمالا فائضا عن الحاجة . ينبعث من تلك الزخارف ومن الشخوص الخمسة (على اعتبار ان الكلب احدهم) مزاج حسي عنيف ورغبة عارمة في الحياة ، تسيطر عليهما ـ المزاج والرغبة ـ وتحدهما صرامة اخلاقية لا مجال للنفاذ منها او الى الالتفاف من حولها .

في ذلك الجو الداكن تكون التفاصيل كلمسات خفية من الضوء تنبت وتنبعث من اجزائها الداكنة بعد ان تكابد العين في التفحص . تتوالى تلك التفاصيل بايقاع بطيء للغاية ولكن دون توقف حتى تغص العين بكثرتها في نهاية الامر ... ويكون ذلك كالعودة المنتصرة بعد مجاهدة كثيرة فتتبدد العتمة بعد أن تعودتها العين .

والقطة ؟

كان هنالك قطة بالفعل ، ولكن ادخالها في اللوحة غير ممكن . احساس مبهم انباه ان القطة سوف تحطم وحدة اللوحة . ثم بدا له ذلك على شكل مشهد سينمائي ثابت ، او مشاهد ثابتة متتالية يشهدها منعكسة على شاشة صغيرة من بروجكتر : القطة صديقة للطفلة ، ولكنها اكثر ايجابية منها ، اذ سوف تسخر من الكلب ، ومن ذلك التجهم الذي يثقل وجه الاب . (تمد رأسها وتقترب بفمها من اذن الكلب وتهمس شيئا ثم تتراجع على الفور مجنونة ، مرحة ، متحفزة ، متقافزة . ينهار ذلك الرسوخ الثقيل الابوالهولي الذي يسيطر على الكلب ويكشر بانزعاج عجوز ضيقة الافق ، عصبية ، امتدت عنوستها عبر الشباب والشيخوخة .

بحركة بطيئة للغاية ، كما في الاحلام ، يفرد الاب ذراعه في اتجاه القطة ويقول :

ـ « بست ») .

احس بانه بهذا قد حطم اللوحة الاصلية فجاهد حتى استعادها، وفكر : « الطفلة تكفي » .

★ ★ ★

★ ★ ★

هكذا بدا له المشهد .وهو يخوض زحام شارع سليمان باشا بحثا عن المقهى الذي كان يجلس فيه جمال الدين الافغاني . كان مشهدا تجمدت فيه الحركة فاصبح يعبر عن انفعالات ذات مدى لا نهائي .

ثم يتوقف ، مطالعا ما حوله « اين انا ؟ » ويجهد ان يتذكر تلك اللوحة. يمتح من سطح اقرب فيدفع بعض اجزاء المشهد الثابت الى الحركة .

كانت الطفلة كالدمية المكسورة ـ دمية عبث بها طفل شرير ، يحاول بعبثه ان ينسى عقدته الاوديبية وعجزه عن فهم العالم . الام قد نزعت البنطلون النبيذي ، جاعلة نصفها الاسفل عاريا تماما ، وقلبت الطفلة على وجهها ، فاستقر بطن الطفلة على فخذي الام ، وتدلى راسها وذراعاها على يمين امها ، وانسابت قدماها الى الجهة الاخرى . شريط شعرها فوق السجادة ، ويداها تحاولان وتحاولان الامساك بالفراغ دون جدوى .

ارتفعت الستارة التي تفصل الحجرات الداخلية عن الصالون قليلا وارتعشت ، وانسابت من تحتها القطة بظهر مقوّس وخطوات طويلة بطيئة للغاية كأنها حصان يعدو في عرض سينمائي وقد تحول الى الحركة البطيئة . ادارت الطفلة راسها واخذت تتابع القطة .وهي تقترب . واصلت القطة سيرها المتعجرف المتئد وتوقفت تحت رأس الطفلة تماما . جاهدت الطفلة وامسكت بعنق القطة فرفعت هذه الاخيرة وجهها اليها واخذت تنظر الى الطفلة نظرة مؤدبة . دفعت الطفلة راسها بقدر ما يسمح لها وضعها وتمتمت :

ـ « بوسي »

التفتت الام بوجه مقطب ، متسائل ، وعندما رأت القطة رفستها بقدمها وقالت بضيق :

ـ « وانتي رخره ! »

وعت كوثر ـ وهذا هو اسم الطفلة ـ الدرس فاوقفت كل حركة،

واكتفت بتتبع القطة التي تراجعت وجلست على عجيزتها ممتدة الجسد، رافعة الرأس ، ساكنة تماما ، كأنها قطة من فولاذ ، وراحت تطالع كوثر بعينين خضراوين ووقورتين للغاية . وبرشاقة منقطعة النظير رفعت القطة مخلبها الامامي واخذت تداعب انفها الاحمر الرقيق .

ـ « ايوه يا اختي ! »

قالت الام وهي تجس فانيلة الطفلة لترى ان كانت مبلولة . كان مدلول العبارة غير واضح له . ولكنه شعر ان الطفلة قد كبرت واصبحت تكايد الام . ثم فجاة ، ودون مقدمات تدعو الى ذلك ، ارتفعت يد الام وضربت الية الطفلة مرة واخرى بدعوى انها تكثر من الحركة وتعيقها من تغيير ملابسها . تقبلت الطفلة ذلك بشجاعة وضبط نفس فريدين، لقد ارتفعت فوق الالم والمهانة فلم تطلق صرخة واحدة ، ولم يصدر منها اية شكوى من اي نوع .

القطة وحدها هي التي لم ترض بذلك ـ وهو ايضا ـ فماءت مواء ناقبا ، نحيلا ، وغادرت المكان بخطوات متعثرة كخطوات امراة بدينة حبلى .

والاب قائم ، عابس ، صارم الوجه ، تقي النظرة ، لفمه تعبير جدة عجوز ـ احد قضاة محكمة التفتيش يشهد تعذيب خارج عن طريق الرب . والطفلة صامتة ، مهانة ، منبوذة ، قد اعترفت بخطيئتها المميتة ، وشاركت جلاديها وجهة نظرهم ورضيت بحكمهم الصادر عليها، تقف منتظرة الضوء في نهاية الطريق .

كان هو يود ان يصرخ لو انه كان يملك الشجاعة الكافية ، او لو انه كان يستطيع ان يصيغ قضيته صياغة مقنعة . ولكنه صمت وحزن لثقيل اصم يبهظه . كان ذلك يشبه نهاية تراجيديا شكسبيرية حيث يموت الجميع في النهاية ويصبح العالم كالحا ـ أجل ، فقد كان للطفلة لحظات من المجد .

كان يختنق .

نهض امام العيون المندهشة واعلن رغبته في الانصراف : ماذا حدث ؟ قال الاب ، هل هو هذا .. ؟ ونظر الى الطفلة ... لم تكد تتحدث ، قالا ، اعتقدنا اننا سوف نمضي اليوم سويا . ولكنه لم يجد التبرير ـ والوضوح ايضا ـ لانصرافه فغادرهم بفظاظة . تأملته الام وقالت :

ـ « ايه الحكايه ؟ »

قال :
ـ « مريت ، فيه شغل مهم . . »
ـ « شغل ايـه ؟ »
مدت القطة راسهـا الرمادي من تحت الستارة واخـذت ترمش بعينيهـا وهي ترقبه يـودع مضيفيه ويتجه الى الباب . الطفلة ، عاريـة العجيزة ، شيعته الى الباب ومدت راسهـا من فتحته وهو يخطو الـى الخارج . جذبتهـا الام وقالت :
ـ « كنت حا اقفل الباب عليهـا »
ثم لـه :
ـ « ما تغبشي ! »
كان واضحا انها تضايقت من انصرافه المفاجيء .
انطلق بحس الناجـي .
في الخارج لفحه الحر ، فبوغت اذ هـو لاستغراقه فيما كان يحدث اعتقـد ان مغادرة المكان تعني النسيم اللطيف والسير في شوارع واسعة وهادئة . اعتاد الحر بعـد قليل وقبله ـ عدا منطقـة رطبة تمتد بين نهاية ساقيـه واسفل بطنه ، حملهـا كعار يخشى افتضاحه .
ثم نسى ذلـك العار الذي يحيط بوسطه ـ تخلف في اعماق بعيدة مـن وعيه احساس بالقذارة ـ وسار وقـد اعتاد الحر . كان يخـالط فرحته بالنجاة شـعور رقيق بالحزن واحساس بالذنب ، فهو قد شـارك ـ بحسن نيـة دون شك ـ فيمـا تلقاه الطفلة من تعذيب ومهانة .
ثم استغرق في حلم يقظـة يعيد بـه صياغـة ذكـرى قديمة : الفتاة البدوية متجردة في الكهف . . عيناها مسبلتـان ، ملمس كتفهـا المدوّر ناعم ، زلق في يده . الرغبة تجعل الذكرى واقعا ، او تكـاد . يقتـرب منهـا ويلتحمان . اخذت خطواته تنتظم واخذ الايقاع يتخلله من جديد. حدث ذلك دون ان يدري. استغرق في الرؤيا القديمة ، اشتمتله فاصبح الشـارع مختلفـا .

* * *

اولج فـي صفرة العصر المصفرة . شارع سليمـان باشا ينفث الحرارة المختزنـة كمـا تداعبك ايـاد ممازحة ، ثقيلة الظل وانت في خدر الصحوة الاولى فـي الصبـاح .
يتخلل الزحام، وذكرى من الشتاء الفائـت ترين عليـه برعبها. ينفضهـا فتنزلق الى الداخل ، تنتشر فيه فتصبح كالصقيـع . ارخـت جسده فشعـر انـه يسيـر على ارض زلقة .

- ٢ -

جملة اعتراضية

كان ذلك في اليوم الذي افتقد في صباحه عزة حتى الجنون . عندها احس ان لحياته معنى وحيدا هو الاقتراب من الموت . في ذلك اليوم لقي عزة وفشل في استردادها - لم يكن يملك آنئذ لا الاتزان الكافي ولا الثقة بالحياة - فاحس ان عالم المرأة ، الحب والحنان والمتعة، قد انتهى بالنسبة له وبالنسبة للاخرين ايضا . ولكن الفرج اتاه على غير توقع وباسرع من المعتاد .

كان الرذاذ يتساقط ، وانتشرت نقاط صغيرة للغاية في شعر عزة ، فبدا كأنه مرشوش بمسحوق الفضة . لم يعثرا على تاكسي والى الترولى باص فاندفعت الى داخله . تخللت الزحام ، ومضى الترولي بها، ولم تلتفت اليه ولو مرة واحدة . عاود السير في الشوارع الموحلة يحتمي بالاشجار من المطر ، ولكنه اكتشف ان قطرات كبيرة سوداء تسقط على ملابسه من الشجر . فاشترى الصحيفة المسائية ووضعها فوق راسه . غير ان ذلك لم يفد كثيرا .

ثم ذهب الى ذلك النادي الذي يضم كتاب المسرح ، ويجتمع فيه المثقفون يشربون الروم والبراندي ويتناقشون في الثقافة والسياسة وفي الفن اساسا . وحدث ما كان يتوقع . انهالت الاسئلة :

اين كنت ؟ لماذا اختفيت ؟ فيرد على اسئلتهم بارتباك . لم احس ان

عليه ان يحسم الامر وبسرعة .

طلب براندي . شرب كاسا وثانيا دفعة واحدة دون ان يضيف ثلجا او ماء اليهما . ثم طلب كاسا ثالثا واكثر من الثلج ووضع عليه بعض الماء وشريحة ليمون واخذ يشرب بتمهل . ساعتها طاب له الحديث . وكان يجيده احيانا ، خاصة عندما تحتد مشاعره، فيصبح حديثه مغالبة للافتعال حينا وسقوطا فيه حينا آخر .

قال ، لا تكثروا الحديث عن اوروبا ولا تعتبروها مثالا يجب ان نحتذيه . الرواية مثلا ، مجرد مثال، قد ماتت في اوروبا وتنبعث في العالم الثالث . وتوالت الاسماء في خطبته : جون ابدايك ، سول بيلو ، نورمان ميلر (رواية « العاري والميت » ، وماذا بعد ذلك ؟) ناتالي ساروت ، وآلان روب جرييه (تقاليع ، مجرد تقاليع) جوينتر جراس (سوف احكي لكم عن روايته « الطبلة الصفيح ») اما كرواك ، فلنتحدث بجدية ، ولا نحاول ان نخدع انفسنا، هل ، بصراحة ، قراتم شيئا له ؟

وهكذا مضى .

والسينما ؟ الا ترون الافلام الامريكية والفرنسية ؟ .. وتكلم احد الحاضرين عن السينما الكوبية ، فقال هو : علينا الا ننسى ايضا السينما البرازيلية والارجنتينية بشكل خاص . (الواقع ان تأكيده على السينما الارجنتينية كان بسبب انه سمع عنها كثيرا ولكنه لم يشاهد اي فيلم من افلامها) .

قال احد الحاضرين :

ــ « والسينما المصرية طبعا » .

فضج الجميع بالضحك .

ولكنه هو ظل جادا وذكرهم بافلام بعض الشبان ، وقال انه لو اتيحت لهم الفرصة لبلغوا مستوى عالميا .

وفي مقاييس رواد هذا النادي كان يعتبر ما يقوله كلاما عميقا ودالا على معرفة واسعة بالثقافات العالمية . اضاف هو ، ان كل من له اطلاع على ما تطرحه اوروبا في الاسواق يعلم ان ما اقوله صحيح تماما .

وهذا ال « من » كان يعني به شخصه هو . ولم يعترض احد على ذلك .

كانوا يصغون اليه دون ان يبدو للعيان ذلك الداء العريق ــ داء مقاطعة المتحدث ــ . فالذي يحدث في الغالب انه عندما يتحدث احدهم،

وقبل ان يتم جملته ، ترى اكثر من واحد قد انفرجت شفاههم انفراجة ضيقة وبدا قطاع طولي ضيق من اسنانه ، وقد ارتفع حاجباه، وما يتلو ذلك من اتساع العينين ، وامتداد الانف الى اعلى . انه في هذه الحالة يتوقف عن الاصغاء ويتحين مناسبة يتوقف فيها المتحدث لحظة يلتقط فيها انفاسه فينقض عليه .

لم يحدث ذلك هذه المرة، ولكنه هو اقدم على مجازفة كاد يفقد على اثرها موقفه الممتاز لو لم تسعفه سرعة الخاطر وثقة بالنفس ولدها البراندي فقد اعلن ان ما قاله عن الرواية ينطبق على جميع الفنون دون تمييز «ولا تصدقوا غير ذلك» . وهذه العبارة الاخيرة قالها بالعربية الفصحى .

صمت لثوان قليلة شرب فيها رشفة من كأسه واعقبها ببعض حبات الترمس، فقال احد الحاضرين ــ وكان فنانا تشكيليا ــ وكأنه يقترح : هل ينطبق ذلك على الفن التشكيلي؟ (١) وذكر اخر اسماء غريبة ميز بينها اسم بيساروف، وذلك في اقتراح ، ايضا، ان الفن التشكيلي قد يكون شذوذا عن هذه القاعدة .

وفكر هو : بيساروف؟ بيساروف هذا قد يكون روسيا. اسمه يدل على ذلك وخاصة هذه الاوف. فكر ان يؤكد انه يتحدث عن اوروبا الغربية، ولكنه كان اذكى من ان يسقط في هذه الحفرة. فلجأ الى التعميم ــ فقد يكون بيساروف ليس روسيا، وهذا يعني نهايته هو تماما .

قال ان الفن التشكيلي في اوروبا الغربية يمر بنفس الازمة ، بل بازمة اشد. ان الفنان لا يستطيع ان يبيع لوحاته الا من خلال سمسار، والسمسار ــ تصوروا السمسار هو الذي يحدد مواصفات اللوحة. وماذا سوف يحدد هذا السيد؟ لوحة للعزاب : نساء عاريات (هاها ها) لوحات لحجرة الطعام : بطيخ، شمام، كوسا، لوحات لدورات المياه وانتم تعرفونها.

ويضحون بضحك مقتضب .

قال احدهم عبارة لم يسمعها بوضوح ولكنه رد عليها فورا، قال: انظر الى الرسامين المصريين الذين ذهبوا الى اوروبا، هل استفادوا من

---

(١) الفنانون التشكيليون في مصر اقلية مضطهدة، ولكن قضيتهم لم تعرف طريقها الى اروقة هيئة الامم المتحدة. ففنها ليس جماهيريا ولا مكسبا، وهو حتى عند خاصة المثقفين غير مفهوم تماما. وهم مثل كل الاقليات المضطهدة يتميزون بقدرة كبيرة على العمل الدؤوب وبتواضع جم. وعلى عكس الفنانين في الميادين الاخرى فانهم عندما يجدون ان فنهم غير مفهوم يصابون بالابتئاس بدلا من الغرور والتعالي .

ذهابهم؟ هل تحسن مستواهم الفني؟ اجبني !

لقد سجل نصرا دون شك. ارتفعت الاصوات مؤيدة، واخذ بعض الرسامين يروون حكايات عن رسامين ذهبوا الى اوروبا وتدنى مستواهم، وخبرات اخرى دعمت رأيه هو .

وكانت تلك المراة تجلس مع مجموعة اخرى، وهو قد لاحظ منذ بعض الوقت ان وجهها الابيض الكبير يلتفت نحوه ويصغي، ثم حملت كرسيها وجلست بجواره . اقترب وجهها منه كثيرا وهو يتحدث عن السماسرة في اوروبا. كانت تصغي باستغراق . وعندما انتهى من خطبته سألته ان كان قد سافر الى اوروبا، فنفى ذلك، وسالها بدوره ـ متحسبا ـ هل ذهبت هي؟ فردت بالنفي، واضافت ، ولكن يبدو انك مطلع على ما يجري هناك. فقال ان معرفة ذلك ممكنة من خلال قراءة الكتب والمجلات المتخصصة وهذه ليست اسرارا .

رد ببعض الحدة لانه اعتقد انها تستعد لمهاجمته . ولكنها قالت انها مهتمة بهذه الموضوعات . هدأ تخوفه وسالها عن عملها فقالت انها موظفة ولكنها ترسم . تولاه حماس مفاجيء للفن التشكيلي، فقال لها انه اعظم الفنون قاطبة،التجديد يبدأ دائما في الفن التشكيلي ثم تتبعه الفنون الاخرى؟ في السابق ، وهذا ما سوف يحدث في المستقبل، كان الفن التشكيلي هو الذي يقود الثورات الشعبية، جيوتو، مثلا. وفي العصر الحاضر يلعب الفن التشكيلي دورا هاما، بيساروف مثلا . فهزت رأسها موافقة .

احس الجميع انه انصرف عن مواصلة خطبته، او هم ربما قد خرجوا بالنتائج المطلوبة فانصرفوا عنه تاركين اياه مع صديقته الجديدة كتعبير عن المودة، واخذ كل اثنين او ثلاثة يكلمون بعضهم. وقد لاحظ ان الحديث قد اخذ طابع الهموم اليومية .

ثم ناداه صديقه الطويل جدا، قائلا :

ـ « كلمه » .

استاذن من المراة، فساله صديقه بهمس ان كان قد ضاجع هذه المراة من قبل، فرد عليه بانه لم يرها في حياته قبل الان. فقال له صديقه ان هذه المراة سهلة للغاية ، سهلة عندما ترغب في احد، ومن الواضح انها ترغب فيه، فعليه الا يرهقها بمسائل الثقافة. ان ايسر السبل اليها ان يكون مباشرا. واضاف صديقه انها سوف تحدثه عن ضجرها من الحياة الزوجية فعليه ان يصغي لها باهتمام .

ثم انصرف ذلك الصديق، وقد اشعره انه يمنحه اياها. كانت المراة خلال

ذلك ملتفتة اليهما .
تأملها جيدا فرآها سمينة من غير افراط وقرر انها تصلح تماما، بل قد كانت حلم يقظته في سنين سابقة. كانت النظرة الاخيرة التي وجهها له ذلك الصديق نظرة تشجيع ـ بوجه وقور اومأ برأسه واغمض عينيه وانصرف .
فكر هو ان هذا الصديق يقول هذه العبارة ذاتها عن كل النساء تقريبا وقرر ان ينسى ما قاله .
عاد وجلس بجوارها . قال :
ـ « لا مؤاخذة » .
كانت تبتسم .
سالها ان كانت قد اقامت معرضا لصورها. اصبح وجهها حزينا، وقورا. فقالت بجدية :
ـ «انا مجرد هاوية . بحب الرسم» .
قال لها ان الفن الحقيقي هو فن الهواة. ثم امسك بيدها وقال ان عليها ان تقيم ذلك المعرض للوحاتها. اندهشت المرأة وجذبت يدها، فقال لنفسه : «لقد كنت متعجلا. ذلك بسبب الكاسين اللذين شربتهما دفعة واحدة». وصمت يبحث عما يقوله لاستمرار الحوار، ولكنها هي التي واصلته بيسر. سالته بصوت اجوف، محايد، ان كانت هذه المجلات التي تحدث عنها موجودة عنده، فرد بالايجاب .
ثم سارت الامور بسرعة اذهلته. كانت تريد ان ترى تلك المجلات باي شكل. وفي التاكسي الى بيته فكر انه في النهاية هنالك بعض الفوائد للثقافة. وابتسم وهو يفكر في هذا .
كانا قد خرجا من النادي ووقفا ينتظران عربة اجرة. لم يكن متأكدا من اتجاه الامور، وعندما جاءت العربة همست له :
ـ « قلت ساكن فين ؟ »
قال :
ـ « المنيل » .
ولما وقفت عربة الاجرة امام العمارة التي يسكنها هبطت ووقفت في الشارع راسمة على وجهها ذلك الحزن الملول الذي ينطبع على وجوه الزوجات بعد سهرة مرهقة. وهما على باب العمارة، في تلك اللحظة فقط سالته تلك المرأة العجيبة ان كان يسكن وحده . دخلا حجرة المكتب واشعل الدفاية. اتى بزجاجة الويسكي (هذه التي ياتي بها المسافرون هدية

مـن السوق الحرة في المطار وبكاسين، واخذ يعد نفسه لاقناعها بالشرب. ولكنه لم يكن محتاجا الى ذلك. صب لها كاسا وقال :

ـ «كويس عشان البرد» .

امسكت بالزجاجة وتفحصتها ثم قالت :

ـ «وايت هورس، هاه !»

فتحت غطاءها، وشمتها . قالت :

ـ «ويسكي كويس. معظم الويسكي اللي في السوق اليوميـن دول مغشـوش » .

قـال :

ـ « فعـلا » .

ـ « اشتريتهـا من السوق ؟»

قـال :

ـ «من السوق الحـرة» .

قالت :

ـ « عشـان كده » .

لم تنتبه الى الكاس الذي صبه لها. صبت قليلا من الويسكي في غطاء الزجاجة وشربته، ثم تناولت الكاس الفارغ وصبت لنفسها كاسا، واضافت اليه قليلا من الماء. شربت جرعة كبيرة، ثم اخذت تتفحص الحجرة، لتوقف عيناها عند مظاهر الفوضى لم تواصل المسح. التفتت اليه بعـد قليـل وقالت بالانجليزيـة :

ـ « بوهيمي » .

بدأ يقول لها ان الخادمة، ولكنها قاطعته قائلة بالانجليزية :

ـ «انا اعرف البوهيمي عندما اراه».

وضعت يدها في شعره وشدته. لم يستجب لذلك لانه لم باسرع مما كـان يتوقع ولان حركتها بدت بريئة للغاية. كان قد استعد ان يقول لهـا لو انها سالته عن تلك المجلات ان المكتبة غير منظمة وانه سوف يحتاج الى بحث طويل حتى يجدها . ولكنها لحسن الحظ لم تسال عنها ابدا، بـل استمرت تضع يدها في شعره وتتنهد وتشرب جرعات كبيرة مـن كـاس الويسكي . ثم قالـت :

ـ «احنا تعرفنا على بعض من اقل من ساعة، لكن حاسة اني بعرفك مـن سنين» .

قال لها ان ذلك يحدث كثيرا ، كما انه يشعر كما لو انه كان يعرفهـا

منذ زمن طويل، وهو يفكر : «اين سوف يؤدي بنا هذا كله؟»
صبت لنفسها كأسا اخر من الويسكي واضافت اليه بعض الماء، ثم شربت جرعة وتاهت عيناها .
قال لنفسه « ومـاذا بعد ؟»
قالت وهي ما تزال تائهة النظرة :
«انا تعسة في حياتي الزوجية» .
ثم التفتت اليـه فجاة :
ـ «انا هاكلمك بصراحة. انا تعيسة قوي، قوي، في حياتي الزوجية».
قال لها انه آسف لذلك، واضاف عندما تذكر كلمات صديقه الطويل:
« انا حقيقة آسف» .
تركته يمسك يدها. قالت انها منذ ان تزوجت وهي تشعر ان زوجها غير مناسب لها. انه طيب، طيب للغاية، ولا يعترض على اي شيء تفعلـه ولكنها لا تستطيع ابدا أن تتحدث معه في اي شيء له اهمية. وهو في حالة غيرة دائمة، لا يتكلم ابدا عن ذلك ولكنها تعلم. وهي لا تستطيـع ابـدا ان تمارس الجنس معه.
ثم نظرت في عينيه نظرة مباشرة وقالت :
ـ « عارف يعني ايه الجنس؟»
فقـال :
« طبعـا » .
كانت تنظر اليه ليستمر ، فقال :
ـ « العملية الجنسية طبعا» .
اخذت تهز راسها ، فقال :
ـ «علشان كده وشك دايما حزين» .
فرحت بذلك ـ احمر وجهها كانها مراهقة وامسكت بيده واخـذت عيناها تبربشان. قـال :
ـ «لاحظت انك حزينة من اول ما شفتك»
وامسك بيدها. كانت تنظر اليه بعينين سوداوين تلك النظرة المباشرة المربكـة ، وقالت :
ـ « مالـك ؟ »
ـ « مرهق . »
قالت :
ـ « بـرد ؟ »

قال لها انه يتعب من البرد، من الرطوبة، تخلق عنـــده نوعا مـــن الحساسية . قالت :

ـ « بتاخد ايه عشان البرد ؟ »

ـ « اسبيرين، نوفالجين ... »

قالت ان هنالك طريقة صينية لعلاجه. قال لها ان هنالك طرقا كثيرة لذلك. قالت ولكن هذه مختلفة عنها كلها، انها سريعة التأثير.

ـ « العلاج بالابـر؟»

قالت بجديـة :

ـ «احسن من طريقة الابر، حاتشوف دلوقتي».

وقفت خلفه، وانحنت فوقه، وفكت ازرار القميص، وادخلت يديهـا واخذت تدلك عنقه وكتفيه وصدره وظهره. كانت تفعل ذلك بهمة واستمرت لبعض الوقت، وهو خلال ذلك يفكر : «اليست سريعة هذه المراة!». ثـم توقفت واحاطت عنقه بذراعيها ووضعت وجهها على رأسه. كان يحس بهـا تضع بعض شعره في فمها وتتذوقه بطرف لسانها. بعد قليل ، امســك باحدى يديها وقبلها ثم احتفظ بها قريبة من فمه ، فاخذت تداعب شفتيه باصابع تلك اليد .

قبل ان يتدبر الخطوة التالية كانت قد اخذت تتكلم في شعره، وكان ذلك غريبا. قالت انها تحب بسرعة وتفقد السيطرة على نفسها عندما تحب، والجميع يفهمون ذلك فهما خاطئا. تريد حبا جنونيا، جارفا ، لا ينتهــي ابدا، وتريد من الرجل الذي يحبها ان يفهمها تماما .

اخذ يقبل يديها وقد فقد السيطرة على نفسه هو ايضا. ومضت هي، ولكن الذي يحدث دائما، دائما ان الذي تحبه يزهد بسرعة، وقد تعلمت ان النقاش معه لا يجدي. اكاذيب، اكاذيب، ويهرب منها، وينتهي كل شـــيء. هــل انت مــن هؤلاء ؟

لقد اصبح الطريق ممهدا. حاول ان ينهض ولكنها اعادته الى مكانــه بضغط كوعيها على كتفيه . قالت :

ـ «مابتردش ليه؟ جاوبني!»

قــال :

ـ « بس الاجابة ... »

قاطعته وقالت بعنف :

ـ «عارفة، عارفة حاتقول ايه .. حاتقول انك حبتني وانك مختلف. كلهم بيبتدوا مختلفين او همه بيقولوا عن انفسهم مختلفين في الاول وبعد

كـده ... » .

قاطعها قائلا انه لم يكن يريد أن يقول ذلك، ولكن كيف يمكنه ان ينذر نفسه لحب جنوني، ابدي، ملتهب وهما لم يكادا يتعارفان. ذلك ما كان يود ان يقوله .

اشتعلت فوقه وتحولت الى كتلة رهيبة من العنف والرغبة. اخذت تقبله في شعره، وعلى جبينه وفي عنقه، وقبلت اذنيه وهي خلال ذلك تهمهم :

ــ « حبيبي ، حبيبي ! »

حاول ان يفلت منها ولكنها اعادته بعنف . اصبح ذلك يؤلمه فانفلت منها بأن احنى جسده وانزلق من تحت يديها. وتعانقا واقفين وهي تقول بالانجليزية :

ــ « هذا كثير جدا، اكثر مما احتمل» .

حاول ان يجذبها نحو السرير .ولكنها قاومت، ونجحت، لا،لا، كانت تقول ثم اضافت بالانجليزية :

ــ « ارجوك، لا تجعلني افعل ذلك» .

ثم جلست وهي تتنفس بصعوبة . تكلمت بصوت نحيل :

ــ «ممكن توصلني البيت؟» .

كان وجهها احمر، منفعلا. اخذت تسوي ملابسها وشعرها بحركات سريعة، عصبية دون ان يكون هنالك ادنى حاجة الى ذلك. ثم تكلمت بالانجليزية :

ــ « يجب ان اذهب ، يجب» .

قالت ذلك دون ان تنظر اليه. بدت له غاضبة. حاول أن يجد معنى لهذا كله فسالها :

ــ « ايه اللي حصل ؟ ايه الموضوع ؟»

ردت بالانجليزية بصوت قاطع، صوت تحدث به نفسها وهي تنظر الى صدرها :

ــ «لا شيء، لا شيء على الاطلاق» .

ثم استولى عليه الياس ــ الياس الذي يعتريك عندما ترى ظاهرة كونية تأخذ مسارا خاصا بها وغير متوقع وتدرك انك مهما حاولت فلن تستطيع ان تفعل شيئا امامها ــ قال :

ــ « ممكن افهم ؟ »

اخذت تتنهد، تائهة النظرة ولم ترد . واخذ العالم ينزلق من قبضته،

وأتته تلك اللحظات المرعبة عندما يعجز عن التاكد ان كان يحلم ام لا .

قال بصوت الكوابيس :

ــ « حالا ؟ »

جلست على الكنبة، وتنفست بعمق، كانها سوف تجلس هنالك الى الابــد .وقالت :

ــ « حالا » .

جلس بجوارها وامسك بيدها. التحمت يدها بيده واشتدت قبضتها ثــم رفعت يده الى وجهها واخذت تمسح بها خدها وفمها وخدها الاخـــر ثــم قبلتها. ثم دارت بها على وجهها مرة اخرى، وعادت بها الى فمــــها واخذت تقبلها قبلات كثيرة وهي تهمهم ــ همهمة تحمل معنـــى الشكوى والبكاء، وتحمل الضراعة ــ بكلمات غير واضحة، استطاع ان يميز من بينها كلمــة حبيبي، ثم نهضت فجاة بعنف، ملقية يده، وقالت :

ــ « عايزه امشي » .

نهض وواجهها، قالت :

ــ « ارجــوك » .

في صوتها بكاء .

ضمها اليه، حاولت ان تتخلص منه، ثم ضمته اليها بشكل فجائي كاد يلقي به ارضا لولا انه تشبث بها، واخذت تقبله وتضمه بعنف وهــي خــلال ذلــك تقــول :

ــ « نو ، نو، . . »

ثم تخلصت منه وسارت نحو الباب .

- «Please come with me » (1) .

في التاكسي، كانت تجلس بجواره صامتة، مقطبة، وهي تمسك بيده. عندما ودعها امام العمارة التي تسكنها قالت انها سوف تمر على بيته غــدا في الواحدة ظهرا لتاخذ المجلات. لقد نسيا المجلات تماما .

ــ « مناسب ؟ »

قال لها انه وقت مناسب تماما .

ثم استدارت مسرعة داخل العمارة دون ان تودعه.

حاسب التاكسي وقرر ان يعود الى بيته سيرا على الاقدام . لقد كان يوما مليئا بدأ بصباح كئيب، ثم بلقاء عزة، وانتهى بهذه المرأة التــي كانــت

---

(١) «تعال معي، ارجوك» .

كابوسا كوميديا. وخلال مسيرته الى البيت عبر الوحل والبرد حاول ان يجد معنى لما حدث، فلم يستطع، ولكنه كان يحس ان هنالك تدبيرا ما وراء ذلك كله .

★ ★ ★

★ ★ ★

في عالم تتخلله الفوضى، لا تعرف ماذا يجيء به الغد تصبح المواعيد مجرد نكتة، ان هنالك مئات الاسباب التي تدعو الى اخلافها وكلها تقريبا لا سيطرة لنا عليها .

فاخذ لذا يتمشى في الشقة متاكدا انها لن تأتي مع هذا المطر والوحل، ولكنها في الواحدة تماما كانت تدق جرس الباب. ويبدو انه قد اعد نفسه لعذاب الانتظار، فكان مجرد مجيئها امرا مخيبا للرجاء .

لم تشر بكلمة واحدة لما حدث بالامس، ولم تذكر شيئا من تلك المجلات. بعد ربع ساعة تقريبا كانا في السرير. شربا كأسا سريعا من الويسكي بلا ماء ولا ثلج للوقاية من البرد، ثم اخذت تتفرج على الشقة «هاه، بوتاجازا!» ثم «هوه ما فيش خدامة بتيجي تنظف» وتواصل وهي خلال ذلك تردد «بوهيمي، بوهيمي!» ، ثم فردت ذراعيها وامسكت بباب حجرة النوم واخذت تنظر الى الداخل، ثم خطت نحو السرير وجلست على طرفه. جلس بجوارها واحاط كتفيها بذراعه وقبلها فقالت :

«استنى شويه!» .

تبين له انها قد اخذت بالفعل تخلع ملابسها: خلعت الحذاء وفتحت سوستة الجونلة. ثم واصلت خلع ملابسها بوجه منسحب ، محايد، وعندما انتهت اندست بين البطانيات. بمجرد ان لمسها كانت تتأوه وتستجيب، واقبلت عليه تعانقه بعنف من فقد كل سيطرة على نفسه وهي تهمهم بكلمات الحب .

في ممارسة الحب كان لها مسارها الخاص .

استمتعا طويلا، واكلا، وشربا الويسكي، وناما قليلا، وفي الثامنة مساء سارا الى احدى صالات الفنادق الكبرى وشربا القهوة وتحدثا بملل. لم غادرا المكان ـ قال لها :

ـ « المكان ممل » .

وذهبا الى ذلك النادي. قبل ان يدخلاه قالت :

ــ « حا اسبقك» .

ودخلت قبله، تمشى في الخارج قليلا، فكر ان يواصل التمشية حتى بيتـه ولكنه تبعهـا .

يبدو ان رواد النادي كانوا ينتظرون منه ان يلقي خطبة اخـــرى، فصمتوا عند دخوله، ولكن صديقه الطويل كان هنالك، فرمقه بنظرة عارفة وطلب له كاس براندي فلم يعد به رغبة في الكلام .

قال له صديقـه :

ــ « عامل ايـه ؟ »

ووجهه ثقيل ، وقـور .

فقـال :

ــ « ابدا » .

ثم التقت عيونهما، واسرع الصديق وابعد عينيه وطلب من الجرسون ان ياتي بطبق ترمس .

وهي خلال ذلك تنظر اليه، لا ترفع عينيها عنه .

خرج معها وسارا. قالت له انهما لن يجدا عربة اجرة. كانت صامتة. حاول ان يمسك يدها ولكنها جذبتها .

امام باب عمارتها، قال لها :

ــ « بكـره » .

فهزت راسها ودخلت .

في اليوم التالي جاءت في الواحدة ظهرا بالضبط. كانت دقيقة دقة مذهلة. وتكرر ذلك كل يوم. ثم دعته للغداء. كان معهما على الغداء رسـام معروف . اما الزوج فلم يكن له اي اثر. وادهشه انها هي والرسام كـانـا يرويان الحكايات المضحكة عن زوجها ويضحكان كثيرا. كان هو يتجنـب فـي العادة الحديث عن زوجها .

ثم دعته مرة ان يزورها في المساء. افهمته انهما سوف يقضيـان الليلة سويا . قالت له :

ــ «حا اخدك بحضني للصبح!»

كان وعدا بالحنان .

ولكن ذلك تحقق بطريقة خاصة جدا يقف لها شعر راسه رعبا كلمـا تذكرهـا .

- ٣ -

مواصلة البحث عن جمال الدين الافغاني

دخل العصر المعصفر ـ ضوء ما قبل الغروب سائل اصفر يسيح على الوجوه السمراء الميتة العيون. يشرف على الشارع من اعلى الكوبري المعلق: الزحام والعربات في شارع سليمان باشا مجرد طبقة رقيقة رجراجة في اتساع ذلك الشارع وارتفاعه، الذي يملؤه حتى الحواف ذلك المسحوق الاصفر الداكـن .

هبط الى الشارع. شعر بأنه سوف يظل متميزا، مطلا على ذلـك الزحام. بعد ثوان قليلة كان الزحام يحدد خط سيره. شعر بانه يمتـص. سخونة الشارع الملحة تكتنفه. ولكن ذلك كان مجرد قشرة خارجية. فـي داخله يقبع برد الرعب. من المحل الذي يبيع الجاتوة في اول شـارع سليمان باشا تنبعث روائح الفانيليا والخبز الناضج. تفثات من عطـر نسائي، روائح اجساد عرقانة، روائح القصب المتخمرة، صاحب محـل العصير جالس على الخزينة، كلها تومض في داخله وتتحول الى كلمـات، لـم تصبح جملا بغير سياق .

يزهر في قلبه حلم يقظة، يفجر شوقا ويبعث ذكرى. يمتزج بالايقاع وبشوق الى الانتماء متجسدا في حلم ان يذوب في القاهرة القديمة.

تبدو له الجوامع والحواري الضيقة والمشربيات والمقابر بحجراتهـا البيضاء وحدائقها والنساء باجسادهن الباذخة وجرس اصواتهن العنيـف،

اكوام البخور واللبان الذكر، والعقود ، والمسابح، و«شوف بختك بتعريفة» وروائح القدم العريقة، و« حي، حي .. مدد يا حسين، مدد» ... تبدو له القاهرة القديمة كسياج يحميه من الرعب، والخوف من الاتي .

يوغل في الزحام . الشارع يبث رائحة حسية غير محددة : روائح اجساد ناضجة، مكتنزة بدعاء رغبة فاجر. في الممر المؤدي الى سينما راديو يرى الماكينة التي تصنع الفشار . تكوّمه داخل صندوق زجاجي والايدي ممتدة بقطع معدنية مستديرة الى البائع العرقان الغاضب. وتختلط الاصوات. يعلو الجميع صورة امرأة تطل بعينين مذعورتين وقد انكشف فستانها عن فخذين هائلتين، راكيل وولش او شيء كهذا. الفشار في صندوقه يبدو شبيها بالقطن الطبي. يتوه عن الشارع ويستغرق في تذكر المراة وهي تعلوه لتعالج زكامه على الطريقة الصينية. رائحة البن الاتية من المحل الذي يبيع القهوة الاكسبرسو تعيده الى الشارع . يعزم على الدخول، يتردد، يعزم، ثم يواصل سيره .

خلف زجاج الفترينات، في الهواء المكيف، يجلس رجال مكدودون. للعرض وليس للبيع. ممنوع اللمس. عندما يتحركون تتآكل مفاصلهم. ينظر الى رجل منهم عبر زجاج الفترينة، يحاول أن يجعل عينيه تلتقيان بعيني الرجل، ولكن الرجل لا يعبأ به، لا يراه . كأنك تشاهد فيلما سينمائيا او تتذكر الذين ماتوا ... ماذا كنت اقول؟ ماتوا .. من الذي مات؟ تكربه مطالبة والحاح بفعل شيء ما على وجه السرعة. يحاول ان يتذكر، يطالع الحذاء والبنطلون . ها انا ذا اكتشف انني اسير بلا بنطلون وبلا حذاء. يجب ان امسك جيدا ببنطلون البيجاما، امسك به بيدي الاثنتين فالاستك قد انقطع ولكن يدا غير مرئية تشده بقوة لا تقاوم الى اسفل، يحاول ويحاول ان يعيده ولكنه مشلول تماما. سدني بواتية يطل من اعلان سينما مترو. وتأتي الفتاة ، كانت دائما هنام ولكن دون حضور ، يلتحمان ، تستسلم ، يعانقها، ويميل بها نحو ارض الشارع، والناس يعبرون بهما ولا يلتفتون «جود مورننج مستر» الناس لا يكترثون ولكنهم تهديد دائم ، ولكن الفتاة، فيما يبدو، ترى ان ذلك امر طبيعي تماما .. اين انا؟ «هذا الدوار اللعين، جيوب انفية، قطرة بريزولين مضادة للحساسية» هل ما نزال في شارع سليمان ؟

يفقد الاتجاه. يبدو الشارع غريبا غرابة الاماكن المالوفة حين نراها على شاشة السينما . الكنكة الالمنيوم على البوتاجاز. نسيت ان اطفئه. هل اطفأته؟ فتحت الحنفية ووضعت الكنكة بعد ان امتلأت بالماء على الرخامة، اشعلت

البوتاجاز، من البلكونة رأيت المرأة تنشر الغسيل، سقط ثدياها من فتحة الفستان، يده على ظهرها يسيران بخطوات بطيئة «عيبا» وتضحك، لم وضعت الكنكة.. هل شربت الشاي؟ في العادة اتذكر انني اشعلت البوتاجاز ولكنني لا استطيع ان اتذكر ان كنت قد اطفأته. اين هو؟ اين وضعته؟ تذكرت، انه في الجيب الداخلي، اصفر وماسح . قد لا يكون المفتاح، فان قطع النقود المعدنية متداخلة بالمنديل وعلبة الكبريت ـ يجب ان اصلح الولاعة ـ بالاوراق تبدو وكأنها المفتاح. فلاحاول التأكد ، لا داعي لذلك، فحتى لو نسيته في داخل الشقة فان ذلك لن يغير في الامر شيئا..

اين انا ؟ ما هذا الميدان؟ هل هو ميدان التوفيقية؟ يا نهار اسود، يبدو انني عدت الى ميدان التحرير، التحرير؟ اين الساعة؟ انا اعلم انني لن اتوه في شوارع اعرفها حق المعرفة، وحتى لو افترضنا جدلا، مجرد افتراض، انني تهت فسوف اركب عربة اجرة «المسرح القومي يا ريس» «عند موقف الاتوبيسات ؟ » .

ـ «جنينة الازبكية، مش عارف جنينة الازبكية فين؟» .

اعبر الشارع (اتجاه المرور من ميدان العتبة الى ميدان الاوبرا) وسوف اكون في مقهى متاتيا حيث كان يجلس جمال الدين الافغاني وحوله محمد عبده وسعد زغلول واديب اسحق (الرجل ذو اللحية ينظر اليه بعينين زرقاوين ، صافيتين، نظرة تعرف) واديب اسحق وعرابي وهيمنجوي وازرا باوند وجرترود شتاين .

ـ « هل انت انجليزي ؟»

ـ « امريكي » .

كان عليه ان يدرك ذلك من لهجته .

ـ «انظر الى اتجاه يدي. هذا البناء الذي يبدو وكأنه يسد الشارع هو الهيلتون » .

(وبينما كنت اسير في شارع سوليمان باشا ستريت، حاليا تالات هرب ـ اقتصادي مصري ـ والجمال المحملة بالملابس العربية التقليدية تزاحم العربات الحديثة سألت شابا :

ـ « اين الهيلتون ؟ »

(مد ذراعه واشار خلفي وهو يضحك :

ـ « انه خلفك مباشرة » .

شكرته وعدت ادراجي وانا اسمع صوته خلفي يطاردني :

ـ «باكشيش مستر، ون بياستر مسترا»

يطاردني هذا النداء في كل مكان ..)
ثم ينشره في طبعة بنجوين .
ـ « هل هو هيلتون النيل ؟ »
ـ « لا يوجد الا هيلتون واحد» .
ـ « شكرا ايها الجنتلمان » .
ـ « اذا كنت تريدني ان ...»
ولكنه استدار وانصرف :
«ليس هناك ما افعله. انني ابحث عن جمال الدين وهذا ليس عملا فاذا كنت ...»
ولكنه استدار وانصرف .
اية سخافات تطرأ لي! بالطبع هناك محل للحلاقة اسمه هيلتون، ومصبغة للتنظيف بالبخار وجزار اعني محل جزارة ، اعني... رغم ذلك، فانه بامكاننا ان نقول انه لا يوجد الا هيلتون واحد .. انت توريست؟ انت شوف، شوف بيراميدز؟ سفنكس؟ سفنكس كويس كتير .. شفتي بنت؟ .. بنت سمينة وسمرا يا خواجه، جوني ... كم مرة يا ابا الفرج جعلت عائشة بنت طلحة تخلع ثيابها وتتعرى؟ وعندما وقع عليها الامير جاءت بالاعاجيب. ماذا كنت تفعل مع الرقابة يا ابا الفرج؟ هل كانت رقابة على المسائل العسكرية فقط ؟
ـ «انت بريطاني، اليس كذلك؟»
كان علي ان ادرك ذلك من لهجته .
ـ « بل امريكي ».
ـ «الهيلتون؟ ذلك الزجاج الكثير في نهاية الشارع». يسد منافذه، يجعل من شارع قصر النيل حارة سد، يسمونها عطفة، لم تدخل شارع الغورية ـ لبان دكر، قرفة، خروب، بخور ، عقود، اساور، حلقان نساء ... ما هذا؟ اما زلت في شارع سليمان او فؤاد، بل اين انا بالضبط؟ الى اين انا ذاهب بالضبط؟ والى اين اتجه وماذا اريد بالضبط؟ صوت فيروز ينساب غضيا من محل لبيع الاسطوانات، مرة اخرى القمر والشجر والثلج والجبل والضيعة، كأن ذلك لن ينتهي ابدا، من قال اني حكيت معه وحاكاني عادرب مدرستي؟ اخبار ملفقة، لم تكتشف الحقيقة انها حكت معه وحكى معها والقي بالورود من شباك حجرة نومها وفعل افاعيل اخرى، فيما يبدو، لا تليق .
فتاة صاخبة، ضاحكة تقف امامه وتقول :

ـ « هالو مستر! »

تجذبها من يدها الفتاة الاخرى الاقل جمالا والاقل حيوية والاكثر تعقيدا .

ـ «هالو يا عين امك» .

تضحك، تصخب، تخفي وجهها في كفيها وتحني راسها. تبتسم الفتاة الاخرى .

ـ « يا خبر ده بيتكلم عربي» .

ـ «وانجليزي كمان وحياة امك» .

يجلس في المقهى المطل على ميدان العتبة. الطرابيزة تلامس السور المصنوع من الانابيب الفولاذية المفرغة ـ هل هنالك مثل هذا السور؟ ـ. قريب منه يجلس بائع العصافير امام موقده يضع كل عصفورين مشويين في طبق ويضعهما امامه على الطرابيزة. الرجل العجوز يتذكر بالطبع سي جمال الدين الافغاني، طبعا يتذكره، يشرب في الليلة زجاجة ويسكي كاملة وياكل خمسين عصفورا مشويا، ثم يتعشى بعد ذلك . قبل ان ينصرف يضع في يده خمسة وعشرين قرشا .ربع جنيه عندما كانت العشر بيضات بقرش تعريفة. كان ـ الله يرحمه ـ راجل فنجري .

ـ «كان بيشرب ويسكي يا عم محمود؟ »

ـ «مش عارف ويسكي والا كونياك . اهه حاجة من اللي كانوا بيشربوها، يقعد هوه، وعلي الكسار .. كان راجل امير صحيح، ومجدع».

ـ «ما يمكن كانت كوكا كولا يا عم محمود» .

ـ «هوه يعني انا غشيم عن الكوكاكولا، والا يعني غشيم» .

ـ « القصد » .

والمراة تجلس على الطرابيزة المجاورة تشرب القهوة. نظرة جانبية الى اليسار فتلتقي عيونهما . ترتعش عيناها، تشرب رشفة من فنجان القهوة، ثم تعود تبادله النظر. لا يدعوها كما يفعل الاخرون ـ يغمزون بعيونهم ويشيرون بايديهم، هذا اذا لم يفعلوا امورا اخرى اشد بذاءة ـ بل سوف يمد ذراعه اليسرى ويحني راسه ويقول :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

تندهش .

ـ « اتفضلي اقعدي معايا يا مدام!»

تحرك راسها شمالا ويمينا متسائلة .

ـ «بتشربي بيره يا مدام؟»

ـ « مرسي » .
ـ « البراندي سبرلو (يضحك) عصير فوط» .
ترتبك، تبتسم. الابتسامة لمسة اضافية الى وجهها المنتحب . لولا هذه التجاعيد الدقيقة تحت العينين وعلى جانبي الفم وهذه الاصابع المتورمة، الحمراء لكانت البطلة الرومانسية التي تموت في نهاية الرواية بالسل، بهذا الوجه المنتحب.. الموت بالسيف شنقا، فشحذ السيف حتى اذا رضيه حكم وخبط، ثم حمل على الناس ... اني لارى الدماء بين العمائم واللحى ـ حتى الى مقبرة لبنى يشكر ...
ـ «تصوري، جمال الدين الافغاني كان بيقعد عالقهوة دي، يمكن كان بيقعد مطرحي» .
رمشت عيناها : انها تعلم ذلك .
ـ « بتعرفيه ؟ »
تومىء برأسها ايجابا وتسوي فستانها فوق ركبتيها .
العربة تعرق رغم الاشارة الحمراء. عيناه تنظران عبر الشارع الى الجالسين في مقهى الاميركين . يبدون كالموتى ولكن احدا لم يغمض عيونهم (عندما سمع عبد الصمد بن المعذل بيت أبي تمام :

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

قال لخادمه : «اذهب الى ابي تمام واطلب اليه ان ينفذ شيئا من ماء الملام» . اذا تأملتهم طويلا فسوف تجد رواد الامريكين يحركون رؤوسهم حركة خفيفة لا تكاد تلحظ. عندما تغرب الشمس سوف تدب فيهم الحياة (مثل دراكيولا) .
فقال عبد الصمد :

اي ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال

هنا تباع الصحف والمجلات الليبية واللبنانية الحوادث والنهار والجهاد والفجر، يمد ذراعه :
ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»
ـ «بتضحك ليه يا خواجه؟»
وجوههم خضراء، اشعة الشمس الاخيرة تلمس وجوههم. موتى، موتى. وجمال الدين الافغاني يدخن النارجيلة، يشفط بقوة فينتفخ منخاراه وعندما ينتهي يلف الخرطوم بمبسمة الكهرمان الاحمر حول النارجيلة ببطء واتقان، ثم يفتح يده ويتكلم :« الى متى تظلون نياما ايها المصريون! انهضوا من سباتكم الثقيل الكئيب الذي استمر عشرات القرون! » او شيء كهذا.

وسعد زغلول يصغي ويصغي ويصغي يخاف ان تفوته ولو كلمة واحدة. ويمد جمال الدين علبة السعوط الى سعد زغلول ويقول له :
ـ «هيا، استيقظ !»
اوكازيون تخفيضات في المحل من ٢٠ بالمئة الى ٥٠ بالمئة لمدة اسبوع. سجاير نفرتيتي سوبر رمز الجودة، طويلة ولذيذة .
ـ «انظر في اتجاه يدي. هذا البناء الذي يبدو وكأنه يسد الشارع، لو انك كنت رصاصة واطلقتها في خط مستقيم لحطمت احدى نوافذه. هـذا هـو الهيلتون » .
(ادارت زينات ظهرها لي واخذت تنظر من النافذة الى نهر النيل ـ يسمونه في مصر البهر ومعناها محيط او بحر ـ والى اهرامات الجيزة ، ثـم التفتت الي وقالت ـ كان في عينيها دموع ـ :
ـ « هذه هي مصر الحقيقية» . .
ثم عادت لتجلس في مواجهتي وقالت :
ـ «اننا اصدقاء الغرب . اصبح ذلك عارا الان» .
سكتت وشردت عيناها. كان من المستحيل اخراجها من صمتها. امسكت بيدي وقالت :
ـ «كم احب ان اذهب الى امريكا. ولكنني يجب ان ابقي هنا. لن تكون مصر للروس» .
وشربت بقية الكاس دفعة واحدة» .
طبعة بانتام : مثير. كتاب يجتاحك كالعاصفة. حقيقة مصر ناصر. مخيف، مثير، رائع. ٧٥ سنتا. جنس. سوف تكتشف ان ليدي لشاترلي مجرد طالبة مدرسة ثانوية ، فرة . (وعندما سالت فاتيما ذات العينين السوداوين عن مهنتها ذكرت لي انها شارموتا، قالت :
ـ «شارموتا يا خواجه»
ذلك الاسم العربي الجميل الذي يعني انها فتاة متحررة) .
تقوده الى حجرتها . وجهها المنتحب يصبح صارما. تصبح امام دروب ضيقة تبدو وكأنها تنتهي الى جدار يسد الطريق ولكنها تمضي وتدور وتتعرج وتستقيم. لم تقول مبهورة الانفاس، قد انطفات الوداعة في وجهها وشعت عيناها :
ـ « هنا » .
يدخلان من الباب الواسع الى حوش مربع كبير، كبير، بشكل خرافي، تحيطه من الجوانب الاربعة حجرات متجاورة تعلو ثلاثة ادوار.

بدت له كخلية النحل. بمجرد دخولهما يرتفع الضجيج كانه كان في انتظارهما : صخب الحلل والمعالق وهيصة الاطفال ونداءات النساء كلها تشكل صوتا واحدا. امراة عبرت الحوش الى طلمبة المياه، تجاوزتهما دون ان تنظر اليهما .

يصعدان، السلم حجري ابيض، عتيق، زلق، وبلا حاجز. تقول له:

ـ «حاسب راسك ياخوي» .

على بسطة السلم كان يجلس درويش بملابس فضفاضة ، كثيرة الالوان، ويتدلى من عنقه قلائد ذوات خرز ازرق واحمر واصفر. عندما يرفع الدرويش راسه اليهما يرى ان شفتيه تتمتمان. تقترب المراة منه، تمسك بيده وتنحني عليها وتقبلها. يرفع اليها الدرويش عينين عجوزتين ويقول :

ـ « ربنا يسامحك يا فطنة» .

تقول المراة :

ـ «معليش تاخرت» .

وتبحث في شنطتها وتخرج قرشا وتضعه في يده . يتنهد الدرويش بعمق ويقول :

ـ « ربنا يغفرلك» .

فتقول :

ـ « لينا كلنا » .

واحس بنفسه مهجورا .

كانت حجرتها نظيفة .

ـ «انت فين يا راجل؟»

يعرفه ولكن اسمه ومهنته تاهتا عنه. يكتشف ان هذا الصديق قد بحث عنه كثيرا. ذهب الى بيته في كل ساعات النهار، تردد على الاماكن التي ينتظر ان يجده فيها، يتكلم بالتليفون فيرد عليه خواجات بلغة غير مفهومة، يذهب الى مقهى ريش، ولكن كل ذلك بلا جدوى . وها هو صدفة، في الشارع ودون موعد، (صدفة خير من الف ميعادويضحك) يجده . يمد ذراعه ويقول :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

اسمه نبيل. يقول انه يود ان يراه لامر ضروري للغاية .. باين مستعجل؟ اسمه نبيل وليس نعيم . اشوفك امتى؟ (يفكر هو : هل يريد ان يقترض مني نقودا؟ ربما كان يجمع نقودا لاجهاض فتاة ما). يواصل

الاخر : يوم التلات، الظهر، كويس؟ يفكر هو : على ان اقول شيئا والا فسوف يسوقني الى قسم البوليس . اية سخافات تخطر لي؟ يتوقف الاخر، منتظرا اجابة عن سؤال القاه . مسكتو واحد بنت يا خواجه؟يقول:

ـ «ازيك يا فرج؟» .

يقهقه الاخر، يضحك بشدة. لا بد انني ارتكبت حماقة شديدة ما اسمه اذن؟ صافحه نبيل ـ نعيم ـ فرج وانصرف مستعجلا وهو يقول:

ـ «يوم التلات . الظهر!»

كانه ينذره . وعلى ايه؟ (نيكسون يستعرض ...) شيء ما في الوجه لصورة فوتوغرافية ملونة لراقصة يابانية معلقة مع صور اخرى كثيرة على واجهة الكشك يجتذبه، شيء بذيء وفاجر. عندما يدقق النظر ويقترب يرى صورة الراقصة تغمزه بعينها وتبتسم. يقترب اكثر فيراها تنظر بجدية تامة في الفراغ. فتيات الجيشا، مراوح ملونة، هاريكاري ينقض الطيار على السفينة بطيارته :

ـ « منتظرة حد يا مدام؟ بتشربي بيره؟»

وعندما وقع عليها الامير جاءت بالعجائب، قالت اننا نتشهى لهذه الفحول ما يحركها وكل ما قدرنا عليه :

ـ «دوقي العصافير المشوية يا مدام» .

تمسك بالعصفور الملتهب باناملها الطويلة الحمراء وتقضم منه قطعا صغيرة، تضعه فوق كفها، تقربه من فمها وتقضم منه قضمة صغيرة. الدكتور محمد الارناؤوطي، استاذ المسالك البولية. لا تتركني وحدي، نظرا لالحاح الجماهير (العريضة الواسعة، نتغلل بينها) فلسفة الصيام، مذكرات حلاق سيدات ملفوف بورق سوليفان اصفر، معصفر .

ـ « انت فين يا راجل؟»

لا يتذكر اسمه. يعرف هذا الوجه ولكنه لا يضعه في سياق، ذلك يحتاج الى بعض المجهود. على ان اقول له شيئا :

ـ « بتشربي بيرة ؟ »

ما اسمه؟ انظر في عينيه، ارسم تعبير الم لتتظاهر بالاصغاء والمشاركة. مساحات سوداء تحت عينيه، فقر دم بسبب البلهارسيا. نوع معين من الاحذية يقي منها. اقنع الفلاحين، اقنعهم هيا ليستعملوها. يتكلم بلا انقطاع . مرح للغاية :

ـ « النسوان تا تا تا ...»

ماذا قال ؟ ابتسم .

ـ «مش ترمي علينا النسوان اللي خلصت منها!»

اضحك انها نكتة. لا يستطيع. ويلقي دعابة اخرى او ربما حكاية ولكنه عاجز عن المتابعة : اسمه محمود، محمد .. هيا اجهد نفسك قليلا، نبيل في الغالب :

ـ « انا اسف، قلت فرج وقصدي... »

بين اسنانه بقايا طعام لونها ابيض. جبنة قريش ولهذا دلالة على الطبقة التي ينتمي اليها. الست عميقا؟ يبحث عني ليحدثني في امر هام. انظر في الساعة واقول «اسف» بس يعني...» يقول نكتة ويضحك، ربما كان علي ان اضحك انا ايضا. مشكلة الاسماء، لا ادري ماذا يحدث لي، انني انسى. سوف يقول شيئا كهذا :

ـ «اللي خد عقلك يتهني بيه» .

قال شيئا اخر. سرحان في ايه او شيئا كهذا .

ـ «قاعدة لوحدك ليه؟» .

بائع الجنبري يضع امامه كوما من الجنبري النحيل الاحمر ـ الابيض، ويقول :

ـ « الناشر يابيه» .

عدد تلاميذ المسيح، انت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي. يريد ابنا، بطولة النجم الصاعد ...

ـ « ازيك يا فرج ؟»

يقهقه. خلفية اسنانه سوداء. مشكلة الاسماء. لا تسير حافي القدمين حتى لا تصاب بالبلهارسيا. يوم التلات الظهر . الفتاة التي تسير امامه طاعنة في الخبرة، تقول للولد الذي يسير بجوارها :

ـ «لا يا خويا، ما اقدرشي اتأخر ع البيت..»

صوت فيه حسية ودفق جنسي تجذب الرجل كالمغناطيس .

ـ « لا طبعا، عايز ماما تزعق لي...»

في العادة اخوها يضربها «كنتي فين يا بنت الى...» من جرس صوتها يبدو واضحا انها تستطيع ان تغيب عن البيت شهرا كاملا. الفتى يفح بكلام غير مفهوم. الفتى خائف. ماذا نفعل لنجعل لغة الكتابة تقول ما توحي به لغة النطق؟ فكرة عميقة للغاية. اكتب مقالا عن هذا الموضوع يدفعون عنه عشر جنيهات، معاك فكة ؟ وبعد خصم الضرائب ست او سبع جنيهات، غير متأكد، الضرائب التصاعدية لحركة التاريخ الصاعدة، ثمن كأسين من الويسكي. اين؟ اين؟ في شارع الهرم، ملهى البيروكية. الراقصة ـ عائشة بنت طلحة ـ اسمها فيفي، اساور وحلقان، وقالت لسكينة بنت

الحسين . ولكن ذلك لا اهمية له لان الجمال مسالة كيفية وليست كمية، الجمال، الاسطاطيقا، علاقات .. مقال عن ذلك .. آه، فرج ذاك، تذكرت، قال شيئا عن اصدار مجلة بالجهود الذاتية، خير له ان يمارس العادة السرية من هذا الهراء مجلة، حديث صحفي بالجهود الذاتية

سؤال : سيادتك تعرفين مالك من وزن يا مدام عائشة ...

اندفعت مقاطعة بعنف وغضب :

ــ «اعرف ذلك، واذا كان يهمك انت ان تعرف فان وزني تسعون كيلوجراما » .

سؤال : سيدتي، لم اكن اعني الوزن المادي وانما اعني الوزن المعنوي. القيمة الكبيرة التي يعلقها قراء الصحيفة التي انا مندوب لها على احكامك الجمالية .

ــ « كنت امزح » .

تقول ذلك بغضب شديد يمزق تماسكه فيضحك باقتضاب مجاملا ويقول :

كان ذلك لطيفا منك .

ــ « شكرا »

ــ « شكرا »

سؤال : اود ان اسال حضرتك عن التصريح الذي ادليت به مؤخرا، اذا كنت تذكرين، وهو قولك انك اجمل من السيدة ــ ماذا كان اسمها ــ لان عجيزتك اكبر من عجيزتها. فهل تعتقدين أن ضخامة العجيزة هي القياس الوحيد للجمال؟ الواقع ان السؤال قد طال اكثر مما يجب ولكن تصريحك يطرح بحدة مسالة الكيف والكم .

ــ «من قال اني قلت ذلك؟»

سؤال : الاستاذ عمر بن ابي ربيعة. اعتقد انك تذكرينه؟ لقد صدر له ديوان يحتوي مجموعة اشعاره مؤخرا .

ــ « انه يكذب » .

سؤال : هل انقل هذا التكذيب عن سيادتك ؟

ــ « والا لم قلته ؟ »

سؤال : شكرا يا سيدتي. سوف اثقل عليك بسؤال اخير: من هو كاتبك المفضل ؟

ــ «جان جينيه» .

وقالت سكينة : «ادخلت على مصعب وانا احسن من النار الموقدة».

ويوما تنهدت بنانة، جاريتها، تنهيدة كادت لها اضلاعها تتحطم. قــــالت سكينــة :

ـ « مالك ويلــك ؟ »

قالــت :

ـ « احب ان ارى في الدار جلبة» .

تعني العرس .

فارسلت سكينة الى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فتزوجتـــه. فبلغ ذلك بنو هاشم فانكروه، وحملوا العصي، وجاءوا وقاتلوا بني زهــرة. وكثر الشجاج، ثم فرق بينهم. وخيرت سكينة فابت نكاح ابراهيم. ثـــم جاء بنو هاشم بكساء طاروقي فبسطوه ثم حملوها . فالتفتت الى بنانـــة وهي محمولة وقالت لها :

ـ «يا بنانة، ارايت في الدار جلبة ؟»

قالت بنانة :

ـ « اي والله الا انها شديدة» .

ويبدو له الوجه الابيض الكبير. تتراءى له سائرة عبر حجـــرة الجلوس . تمتصه الذكرى ـ الرعب .

فيغيب عن الشارع . يعلو ويعلو ويبتعد .

ـ ٤ ـ

الرعـب وراء البـاب

في الخارج مطر يسقط رتيبا وريح لها انين ممطوط، طويل، خافت وهي تمر بين الاشجار . لا اصوات اخرى، وراسه على كتفها، قال لها :

ـ «عايزاني امشي الساعة كام؟»

نظرت اليه كأنها تود ان تكتشف شيئا في وجهه. تعبير وجهها كان خاليـا من حس الفكاهة .

كانا في بيتها والساعة تشير الى العاشرة. كانت تنظر ما تزال، فقال:

ـ « هـاه ؟ »

ولماذا تمشي؟ قالت . قال : قبل ان يجيء. قالت : ولكنني قلت لك. قال: ماذا قلت؟ قالت: قلت لك. قال: ماذا؟ قالت :

ـ «قلت لك انه في المستشفى» .

قال : ما الذي حدث؟ قالت :

ـ « بيعمل عملية بواسير» .

ضحك بصوت مرتفع. كان ذلك بالرغم منه. قال :

ـ « قلتي بواسير ؟ »

هزت رأسها وهي تبتسم خجلة. فكر ان الامور الان تبدو في ضـوء جديـد . فخلع حذاءه .

وعندها غادرته وذهبت الى المطبخ. البسمة الخجولة ومشيتهـــا

الاليفة الى المطبخ ابتعثتا فرحا خاصا للغاية. بعد لحظات شعر برغبة ملحة الحاحا لا يطاق ان يلمسها، ان يشعر انها ممنوحة له في كل الاوقات وكل الامكنة. تبعها الى المطبخ وفاجاها من الخلف. احاطها بيديه، وامسك بثدييها، وقبل شعرها. ارتعشت للمباغتة، ثم سكنت. بعد قليل وضعت الشوكة التي تقلب بها اللحمة على الطرابيزة بجوار موقد البوتاجاز، ثم ادارت مفتاح الموقد فانخفضت شعلته، ثم امسكت بفوطة صغيرة للغاية واخذت تجفف يديها. تنهدت بعمق ولوت عنقها وقبلت خده. وبعد ذلك اخذت تستدير ببطء شديد كانها تتحرك في وسط زحام اوبيس مسرع. واجهته بعينين مسبلتين وشفتين منفرجتين قليلا. كانت ذراعاه ممتلئتين بها ولكنهما عاجزتين عن الاحاطة بها وامتلاكها كلية .

ــ « ايـه ؟ »

قـال لهـا .

وضعت راسها على كتفه وتأوهت .

حين اخذ يقبلها قبلات كثيرة شبكت اصابعها خلف ظهره واخذت تضغط جسده بذراعيها السمينتين، القصيرتين. كانت قوية دون شك وكـان يختنـق .

انفلتت منه فجاة وقالـت :

ــ « اللحمة حاتتحرق» .

خرج من المطبخ ودخل الصالون . اشعل سيجارة وشرب جرعة كبيرة من كاس البراندي. كان مجرد ماء مثلج. اضاف كمية اخرى من البرانـدي وشرب الكاس دفعة واحدة .

★★★

كانت شقتها في الدور الاخير تحتل نصف السطح والنصف الباقي المسور كان حوشا لها وبلكونة .

كانا يقفان على السور متجاورين، كتفها القريب منه يضغط على صدره. مـد ذراعه واحاط عنقها. كانت حركة مصارع يود ان يدق عنق خصمه. وقفا هكذا تمثالين في لوحة واحدة. بين آن واخر تفرك خدها بكتفه القريب وتئـن .

رذاذ خفيف، خفيف يسقط في شعره ، يحس به كلمسات انامل رقيقة، والهواء نقي، خصب برائحة الارض والاشجار والعشب المبلولة. هذا الهواء الدسم الخاثر كالنبيذ المعتق يفتت هذا الثقل الذي يرزح

على صدره. يقول لها: هذا الجو النقي بعد جو القاهرة المشبع بعادم العربات ودخان السولار وانفاس وروائح عشرة ملايين انسان، ولا يتم جملته . يقول انه كان يظن انها تسكن في باب الحديد، لانه كان يسير معها الى هناك عندما يوصلها ، قالت :

ـ «ماما ساكنة هناك» .

يستنشق الهواء بعمق كأنه يتزود به لرحلة العودة. كاد ان يحبها ـ اوشك ان يقترح عليها حبا طويلا لا ينتهي ـ لاجل هذه الضاحية والاشجار الكثيفة على امتداد العين والهدوء المسيطر. ولكنه في قمة نشوته تلك يعلم ان هذا الحب لن يكون ولن يستمر، وهي تقف ملاصقة تضغط بخدها الايسر على خده وتقول أن ذلك يشبه ايام زمان، يشبه ما كانت تريده أن يكون. ويقول لها مغالبا انفعاله أنه يعلم . وبقلب ملتاع، مكدود بالخيبة والهزيمة، تراءت امامه ما تعنيه أيام زمان بالنسبة لها، وانفتح جرح الذكرى. كانت مؤلمة وجميلة كأنها ذكراه الخاصة :

شوارع مصر الجديدة مشمسة بعد المطر وحدائقها التي تتوسط الشارع وتنساب طويلة على امتداده، وقطرات المطر العالقة باوراق الشجر تبرق وتتفرز بضوء الشمس، تكاد تكون معجونة به. وهي، ممشوقة، متضرجة الوجه، طويلة الساقين، تلبس بنطلونا وتركب عجلة تدور بها بين الحدائق ، تسابق صديقاتها وتزعق بمرح، ترشف عطور التراب المبلول والاشجار والازهار في الحدائق الصغيرة المحيطة بالفيلات .

هل كنت تظنين ان الحياة سوف تنتهي بك هكذا سمينة، مدورة، تطفئين الرغبات العابرة لاناس لا يحملون لك الا السخرية، وانت خلال ذلك تعيشين على وهم أن تصبحي رسامة مشهورة ؟

يود أن يصفعها بالسؤال ، ولكنه يعرف الاجابة لانها في داخله، يحسها بذلك الموت الذي يزحف ببطء مصمم، متعال، يلتهم خلاياه دون توقف .

ها هو البكاء ينفذ فيه، يخنقه، باعثا صقيعا في سقف رأسه، يضغط على انفه وعينيه. بكاء من اجلها لانه رأى فيها نفسه، رآها تعليقا صادقا، عميقا على أوهامه .

يبعد ذراعه عن عنقها ويلفها حول خصرها. يقول لها انه سعيد بها، بجد هو سعيد، وهي تملؤه حبا. وجذبها اليه اكثر. استجابتها كسرت طوق اللحظة الرائعة. احاطته بذراعيها ورفعته عن الارض واعادته وهي تضحك وتلهث .

كانت ثقيلة عندما حملها. عاركته ضاحكة وعاركها واستثير فحاول ان يضاجعها على طرف السور. استجابت له، ولكن ذلك كان صعبا فقالت بصوت لاهث :

ـ « حالبرد . ندخل جوه» .

كانت تحته تتوجع، تحرك راسها يمينا وشمالا كانها تحاول ان تتفادى يدا سوف تكتم انفاسها. وهو خلال ذلك يسجل ما يدور محاولا وضعه في عبارات قيلت كثيرا، وفي عمق اخر منه، يتساءل: هل هذا هو كل شيء! لقد كان يعلم، في كل مرة كان يعلم، ولكنه مفاجأ ابدا بتلك المعرفة .

يقبلها فتئن وتوقف حركة راسها، ثم ينفلت فمها من امساكة فمه ويدور شمالا ويمينا بتوقيع منتظم. يحاول اقتناص الفم مرة اخرى فيحرك راسه كأنه افعى تناوش عصفورا فيلمس فمها، مجرد لمس، في عبوره نصف الدائري ثم يبتعد عنه .

ـ «نو، نو، نو ...»

قالت، وانتهى كل شيء .

بعد قليل كانت تجلس على مرتبة ملقاة على أرض الحجرة . كان هو يضع راسه على فخذها. شرب جرعة من كاس البراندي ثم مد يده في داخل الروب الحريري الاصفر واخذ يداعبها. كان ذلك يضحكها قليلا ولكنه لا يمنعها من مواصلة الحديث : ان حبهما قد اعاد لها ايام زمان بعد ان اعتقدت ان تلك الايام قد انتهت ولن تعود .

ثم صمتت، تنظر دون تحديد .

يدها كانت تداعب شعره وهي مستغرقة تفكر في شيء ما عندما تنبه الى ذلك الذي يحدث . اختلج قلبه بالفزع حتى قبل ان يتبين دلالته. لقد كان يسمع ذلك منذ بعض الوقت، ولكنه في تلك اللحظة فقط ادرك ما يعنيه . اخذ يصغي. كانت هنالك اقدام تصعد السلم ، خطواتها ثابتة، راسخة العزم، ووقعها واضح محدد. شعر ان في تلك الخطوات نذيرا وقصدا موجهين اليه شخصيا .

اضطرب وحاول ان يرفع راسه. توقفت يداها ومالت نحوه، واصبح وجهها قريبا من وجهه. اخذ يدقق السمع ليتأكد قبل ان يخبرها، فقالت بصوت واضح :

ـ « مالك ؟ »

قبلت شعره .

ـ « فيه ايه ؟ »

قالت . لم يجب. كان يصغي. توقف الصوت .

قالت :

ـ « تعبـان ؟ »

اخذ يسمع الخطوات مرة اخرى. قال :

ـ « ايـه ده ؟ »

انحنت نحوه . شعرها يتفلت، وينساب ببطء ويحجب الضوء عنـه كانه جناح غراب. يلمس الشعر انفه فيشعر برغبة في العطس، ووجههـا قريب ومنزعج. قالت :

ـ « ايــه ؟ »

قال بهمس مختنق :

ـ « فيه حد طالع السلم» .

ادارت راسها نحو باب الشقة، ورشقتها بنظرة متفحصة متساءلـة وهي تشد الروب حول جسدها مخفية بذلك نحرها. ثم التفتت اليه وقالت:

ـ «حد من السكان» .

قالت ذلك بصوت طبيعي تماما. ومدت ذراعها حول كتفيه وامسكـت يده بيدها الاخرى واخذت تقبل باطنها. من الواضح ان تلك الخطوات لـم تثر فيها ادنى قلق. التفت اليها وقبل خدها. لم يعد في ذلك اية متعــة. لهثت واحتضنته بقوة وقالت :

ـ « حبيبي ! »

ثم هدات ووضعت راسها على كتفه واخذت تداعب ازرار قميصـه، وسمعها تقول انها سعيدة. لم يكن متاكدا انه سمعها جيدا فسالها هامسـا:

ـ «قلتـي ايـه ؟ »

قــالت :

ـ « لو سبتني حاموت نفسي» .

قــال :

ـ « كـده ؟ »

قلبه يدق في اذنيه. اخذ يصغي. اكتشف ان هنالك اصواتا كثيرة لـم يكن قد تنبه اليها قبل تلك اللحظة. كان هنالك صوت ماكينة الميـاه تدفع الماء الى الخزانات الموضوعة على السطوح، ونفير عربة، وصوت قطـار بعيد يخبط القضبان الحديدية بايقاع منتظم رتيب .

قال لها ان الخطوات قد توقفت. كانت عبارته في صنيغة سؤالي.

التفتت اليه بدهشة وقالت :

ـ «انه اللـي توقف؟»

لم تذكـرت . قالـت :

ـ « حد من السكان » .

قال لها انه لم يسمع بابا يفتح او يغلق. كان يفح بهمس مختنـق، اعاد ما قاله مرة اخرى كانه يرجوها ان تطمئنه .

لم ترد. مطت عنقها وقبلت ذقنه. رأى ان احمرارا خفيفا قـد تسرب الى عينيها. قالت :

ـ « نعسان ؟ »

توقفت الخطوات بعض الوقت . احس بالقادم يتردد : هل يواصل الصعود ام يعود من حيث اتى؟ غير ان ذلك التوقف، الصمت، مـا زال يبعث نذيره اليه. بدا له ذلك التوقف تحفزا مدروسا. قالت بذلك الصوت الصغير الذي يميز المراهقات : لو انها فقدته، لو انه ابتعد عنها وانتهـت هذه السعادة وعادت هي الى روتين حياتها القديم فالحياة عندها سـوف تكون هي والموت سواء. احس انها تكلمت طويلا، وانها على نحو ما تتحدث خارج السياق وان عليه ان ينبهها الى ذلك .

انتفض فجاة ودفعها عنه. قال :

ـ « سامعـة ؟ »

الخطوات استانفت الصعود، ولكنها في هذه المرة تحمل تاكيدا مـا، عزما ان تكون واضحة وضوحا لا يتسرب اليه الشك للحظة واحدة .

ضحكت وقالـت :

ـ «انت مش عايز حد يطلع السلم؟ دي العمارة فيها عشر شقـق غيـر شقتي» .

قـال :

ـ « بس هيه الخطوات نفسها » .

مالت نحوه واخذت تقبله قبلات صغيرة، متتالية: على فمه وذقنـه وعينيه وانفه وهي تهمهم :

« يا وحش ... »

وتواصل التقبيل. ثم تتنهد وتقول انه هو الوحيد الذي تحس معـه بمثل هذه السعادة. وتضحك وهي تقـول :

« كنت قربت انسى الحب» .

كان من الواضح ان تلك الخطوات لا تثير انزعاجها ولا حتى انتباهها.

قالـت :
ـ « مالـك ؟ »
نظر اليهـا وادار وجهه . قالت :
ـ « مش عايز تبوسني ؟ »
لما راته لا يستجيب قالت انها سوف تحكي له نكتة، بتضحك موت .
واخذت تحكي، لم يكن مصغيا لها. سمعها تحكي شيئا عن مستشفى المجاذيب، ثم «انا الدكتور..» أو شيء كهذا. كان انتباهه مشدودا الى تلك الخطوات التي تصعد السلم بحسم، فتيقن بشكل قاطع ان صاحبها يتجه الى الشقة.- قال لها وهي ما تزال تضحك مغمضة العينين للنكتة التي يبدو انها انتهت من روايتها وهو يشير الى الخارج :
ـ « فيه حد جاي» .
التفتت التفاتة يسيرة وتركزت نظرتها بتساؤل على باب الشقة كانها تتوقع دخول شخص سوف ينبثق من الباب بعد قليل. رأى ان الدم قد هرب من وجهها وان شفتيها الحمراوين دائما قد أصبح لونهما اصفر. ثم قالت وعيناها كبيرتان تحدقان :
ـ « الشقة اللي تحتينا» .
اصغت قليلا، وانفرج وجهها، قالت :
ـ «قلت لك الشقة اللي تحتينا» .
الا انه في تلك اللحظة نفسها استانفت الخطوات صعودها. وضعت اصبعها على شفتيها امرة بالصمت، وجلست مستقيمة يقظة النظرة .
اخذ يبحث في جيوبه فاخرج قلم حبر جاف وكراسة صغيرة. كتب بخـط كبيـر :
ـ « هـوه ؟ »
تمعنت في الكلمة طويلا وتمتمت :
« هـره ؟ »
ثم نطقت الكلمة الصحيحة :
ـ « هـوه »
لمست الكلمة بسبابتها، ثم اومات براسها عدة مرات: اله هو. كتب:
ـ «مش انتي قلتي انه في المستشفى بيعمل عملية بواسير؟» .
قرات ما كتبه بعينين محدقتين، ثم رفعت كتفيها فسقط راسها بينهما، وضمت شفتيها فاصبح فمها كالوردة. همست شيئا لم يتبينه لتساءل بعينيه، فقالت :

ـ « مش عارفـة » .
همس مغيظا :
ـ «مش عارفـة ؟ »
اخذت القلم منه واحنت راسها حتى كاد وجهها يلامس الورقة. اخفت خصلات شعرها ما تكتب. استطاع ان يلاحظ ان شعرها، رغم مظهـره الغزير وسواده الحالك، فمنبته ضعيف وشاحب. عندما رفعت رأسها قرأ:
ـ «في هذا اليوم التاسعة صباحا اخذ الروب والبيجاما ومرهـم البواسير وقال حعمل عملية بواسير الساعة ١٢»
كتب :
ـ « ١٢ امتى ؟ »
كتبـت :
« ١٢، الساعة ١٢» .
كتـب :
ـ «١٢ الظهر والا بالليل؟»
كتبـت :
ـ « الظهر طبعـا » .
كتـب :
ـ « عملها والا ما عملهاش ؟»
كتبـت :
ـ « عملهـا . »
كتـب :
ـ « عرفتي ازاي ؟ »
كتبـت :
ـ «اتصلت بالتليفون قالوا عملها» .
الخطوات اكملت الصعود، ثم اخذت تقترب بخفة من الباب ، لـم توقفت ولكن احتكاك القدمين بالارض ما زال مستمرا. مرت لحظات لـم اخذ يسمع ذلك الصوت. كان صوت ضغط جسده على الباب. كان صوتا خافتا يشبه تمزقا بطيئا لثوب قديم او كالصوت الصادر عن كرسي خشبي عند الجلوس عليه .
الرعب الذي بعثه ذلك الصوت يتولد من جديد كلما استعاده. امسك القلم وقرر ان يكتب : «انه يتصنت». ولكنه عدل عن ذلك وكتب بدلا منه:
ـ « حاتفتحي الباب ؟»

نظرت اليه ثم نظرت الى الباب طويلا. عاودت القراءة، فاتسعت عيناها حتى بدا الجزء الملون مجرد كرة صغيرة تدور بجنون في بياض شاسع. كانت تتنفس بصعوبة. حركت شفتيها دون ان يصدر عنها صوت. كتب:

ـ « مش فاهم » .

حاولت ان تتكلم مرة اخرى ولكن دون جدوى. امسكت القلم وكتبت. ابيضت اظافرها بالمجهود ـ كانت تحفر في الورق ـ . كان ما كتبته مجرد خطوط لم يستطع ان يستجلي منها شيئا. وضع سبابته فوق عبارة «مش فاهم» واخذ يشير اليها عدة مرات باصبعه ولكنها نظرت اليها للحظة عابرة ثم اخذت تحدق بالباب. امسك بذقنها وادار وجهها اليه ثم اشار مرة اخرى الى عبارة «مش فاهم». اخذت تنظر اليه والى العبارة بذهول. فكر انها عاجزة عن فهم ما يريد فالعبارة نفسها مبهمة : «مش فاهم» ماذا؟ ولكنها فاجأته بان خطفت القلم من يده وكتبت بسرعة وعصبية، ثم اعادت الكتابة . قرأ :

ـ « مش مهم »

. «مش مهم» ماذا؟ ما هو الذي ليس مهما، اخذ يسائل نفسه. كانت تلهث ونظرتها تائهة. فركت انفها وفمها، ثم ادنت الورقة وكتبت :

ـ «اصله شاف النور» .

كتب :

ـ « حالفتحي ؟ »

ثم اضاف :

ـ «حالفتحي الباب؟»

امسكت الورقة بيدها وتمعنت فيها، فركت عينيها بيدها الاخرى ثم وضعت ابهامها على عبارة «اصله شاف النور» واخذت تمرره فوقها.

حاول ان يفهم ما تعنيه ولكن ذلك استغلق عليه. امسك يدها وقبل باطنها. كانت جافة باردة . ثم تبين له انها تعني انها سوف تفتح الباب لان الاخر راى ان الشقة مضاءة. كان ينوي ان يسالها او يقترح عليها شيئا ما ولكنه عجز عن تذكر ذلك الشيء. مد يده داخل الروب الذي ترتديه وامسك احدى ثنيات بطنها. كانت في يده سمينة، صلبة وزلقة. وهي تنظر الى موضع يده داخل الروب بعينين جاحظتين، منزعجتين للغاية. ثم خطر له ان يسال متى تفتح الباب. اخرج يده من داخل الروب فتنفست بارتياح . كتب :

ـ « امتى حالفتحي الباب؟»

كتبت :
ــ « لما يضرب الجرس » .
احاط كتفيها بذراعه وضمها اليه. وحين قبل خدها القريب ابعدت وجهها وهي تومىء براسها وتشير بسبابتها الى الباب. ثم هدات، وضعت راسها على كتفه واستكنت. جلس ساكنا تماما لان كل حركة منه سوف تجعلها تفاجأ .
كم من الوقت استمرا على هذا الوضع ، ساعتين ، ثلاثة، اربعة؟ لا يستطيع ان يجزم بذلك، ربما اكثر من ذلك، او ربما اقل، ولكن ذلك الضغط الملح على الباب اتصل مصدرا ذلك الصوت الهين الذي يشبه تهتك ثوب قديم. ولن ينسى ابدا صوت خرير ماء يتسرب ببطء الى البالوعة قادما من الحمام .
همس في اذنها :
ــ « بتحبيني ؟ »
نظرت اليه طويلا ولم تقل شيئا. فكر ان الليل يقترب من نهايته، بائع اللبن سوف يعبر باب العمارة وسوف تنفتح ابواب الشقق لتستلم منه اللبن نساء نصف نائمات، صاحب قدرة الفول يقف الان في الميدان يضع الاطباق الصغيرة المطلية بالقيشاني الازرق والابيض متجاورة على سطح عربته، ويملؤها بالفول الساخن ويضيف اليها الزيت الحار وقليلا من الملح والشطة وسلطة من الطماطم والجرجير والبصل. سوف ياتي عمال الورديات المبكرة باوفرولات زرقاء، او صعايدة بجلابيب وعمم بيضاء ويأكلون افطارهم وهم واقفون، والبخار يتسرب من انوفهم وافواههم كانهم ينفثون دخان سجاير. عمال النظافة، الان، يجمعون القمامة من فوق الارصفة بمكانسهم الطويلة ثم يضعونها في مقاطف مصنوعة من ورق النخيل يحملونها بعد ذلك الى العربية المربوطة الى حمار. يمر الاتوبيس نصف فارغ. والتلميذات الصغيرات يسرعن صاخبات، نزقات، يتفززن بالحيوية، الى مدارسهن. خادمات الطلبة المغتربين يعبرن الميدان، متشحات بالسواد باحساس من تأخر .
بدا الخارج له مشحونا ببراءة وتلقائية افعمت قلبه بالشوق. عبر عن شوقه بسؤال طرحه على نفسه : «اين سوف اكون بعد اربع وعشرين ساعة؟». ضمها اليه، اقترب بفمه من اذنها وهمس :
ــ « بتحبيني ؟ »
اومات براسها مرة واحدة ايجابا، ثم اعادت الراس الى كتفه. همس:

ـ « انـا بحبـك » .

وضعت سبابتها على شفتيها ودعته الى الصمت ... صوت فرامل، والعربة تكاد تلمسه، وسائقها يمد راسه من شباكها ويدعوه ابن زانيــة ومسطولا، والمكان غريب كأنه سقط فيه فجاة دون تمهيد والوجوه حولـه غاضبة، محتجة، متساءلة . حاول ان يقول شيئا ولكن حلقه كان جافـا، فلـم تطلع منه كلمة. والاصوات تتعالى، وتختلط : «يا جماعة، دا خواجه» «ده ما بيفهمش عربي» ويقترب منه وجه ضاحك ويصيح :

ـ «واكل داتورة يا خواجه؟»

وشاب يقف على الرصيف الاوسط للشارع قال :

ـ «لما يكون خواجه مش حايعرف اذا كان النور احمر والا اخضر!».

رجل له وجه قرد، محتقن بالغضب والتقوى ، تسلل من بين الزحام يمسك بطرف جاكتته ويجذبه ثم يقترب بفمه من اذنه ويزعق كلماته ببطء:

ـ « رد لايت مش يعدي . فاهم يا خواجه؟»

هز راسه وقال :

ـ « فاهـم » .

ابتسم الرجل ـ القرد لمن حوله وقال :

ـ « بيقول فاهم » .

ويضحك ثم يتوجه اليه :

ـ « انت يعدي وفيه رد لايت انت يموت يا جوني. انت فاهـم جـود فولي جود» .

يتساءل رجل قصير للغاية :

ـ « انت واحد روسي؟»

يحاول اخر ان يصحح :

ـ « يعني انت خروشوف، روسي؟»

فيزعق الرجل القـرد :

ـ «روسي والا بلجيكي انت حتناسبه يا اخي!»

وصوت في طرف الزحام يقول :

ـ «ده ما بيعرفشي ولا كلمة عربي» .

في داخله الدوار الفرح للحرية التي كاد ان يمتلكها : الموت. فـي الطرف الاخر من الشارع تمتد حديقة الازبكية، اشتاق ان ينزوي فـي عتمة اشجارها. يتذكر : كانت الفتاة تجلس بجواره و ... ويمد ذراعه ويحني راسه :

ـ « قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»
الرجل ـ القرد يشير بيده ويقول له :
ـ « انت لازم يفتح عينك كويس . رد لايت يستنى شويه » .
نجح فريق من الجراحين الكنديين في زراعة الاصبع الكبيرة لقدم شاب محل ابهام يده اليمنى .. ويفاجئه الرجل قائلا باشمئزاز ووجهه قريب للغاية :
ـ « انت فاهم يا خواجه والابس بتهز راسك على الفاضي والمليان ؟ »
يصرخ هو بحدة :
« ايه الحكاية يا جماعه !»
ـ « الله ، دا بيتكلم عربي زي البربند »
ويضحك الذي قال ذلك . كومضة البرق يتذكر : « فوجئت طالبات المدينة الجامعية بالجيزة بزميلتهن تصعد الى الطابق الخامس بملابس النوم ، ثم تلقي بنفسها لى الارض وقد ماتت .. كانت منطوية على نفسها ..» في اطراف الجمع عينان متسعتان بالدهشة والتساؤل، عزة ، ليست عزة ، بل .... يمسك الرجل ـ القرد بيده ، يجذبه ، ويجتاز به الشارع مسرعا عبر الجمع ،ويميل نحوه وهو يفعل ذلك ويقول وهو ينطق كلماته ببطء وبصوت مرتفع كأنه يخاطب أصم :
ـ « دلوقتي .. انت .. ممكن .. يعدى »
كان الرجل يزعق بذلك قرب اذنه، فجذب يده من الرجل فقال الاخير بضيق وهو يشير الى ضوء الاشارة الاخضر باصبعه :
ـ « خايف من ايه ؟ جرين لايت » .
يشعر وهو يجتاز الشارع بتلك الفجوة التي احدثتها العربة التي لم تصدمه .. يشعر بها في جانبه الايسر معلقة ، رطبة ، ممتعة . كانت الفجوة منفذا لافراح قديمة لحلم الطفل بأن يفقد هذا الجسد استجابته لقانون الطبيعة . حديقة الازبكية امامه . في غبشة الغروب ، وقد اضفت عليها العتمة تفصيلات وتهاويل ، اصبحت دغلا . يجتاحه الرعب فجاة : يجب الاطمئنان على فاطمة .. اين التليفون ؟ هنالك دائما طابور طويل من المنتظرين الذين لا يراعون الدور وكل شيء يجب ان يؤخذ بالذراع ـ مثل التاكسيات ـ يجب الاتصال .. هالو .. مين ؟ ثم صوت الاب .. ايوه ؟ ثم يمتص يقظته ذلك الجزء الكثيف من جنينة الازبكية . صمت طويل . نرى جذوع الاشجار فقط ، وبينها حشائش لامعة الخضرة.

تنتقل الكاميرا الى مجرى مائي يندفع صاخبا ، مزبدا دون صوت . ثم نعود الى جذوع الاشجار والحشائش البراقة ، والصمت ، صمت .. وببطء شديد تبدو الافعى حمراء براقة كأنها خط نار يسري بين الحشائش . خطان اسودان يمتدان بطولها وهي تنساب بين الحشائش البراقة . ثم يتوقف كل شيء ، وتنظر الافعى اليه يتبادل معها النظرات .. وفجأة تعدو جذوع الاشجار وتتوقف . يظهر نهر كأنه انبثق من الارض فجأة له خرير رتيب .. تظلم الشاشة . الفلم من تصوير ملك بلجيكا ، صوّره في الكونجو . في الغابات الغريبة والصحاري . راكيل ولش ممزقة الثياب وجسدها القوي الفارغ الاسمر الذي لوّحته الشمس .. عينان بنفسجيتان غريبتان في سمرة ذلك الوجه ، تنسل بين الاشجار بثقة . الاسد يعدو وسط الغابة ، وجسده متصلب ، ولكنه يعدو بسرعة مخيفة . يقترب ، يقترب ، ينهض فرانسيس ماكومبر . الصياد يطلق النار على الاسد ويضاجع الزوجة، تدخل الخيمة في الليل :

ــ « كلبه ! »

ــ « جبان ! »

الدم ينتشر سريعا على الاسفلت (تمسك زوجته البندقية وتصوّب الى وحيد القرن ، اليه ..) يجب الاطمئنان على فاطمة .

ــ « هالو ... ! ابدا ، بس عايز .. »

ــ « مين ! آه ... »

في الخلفية تنهدات .. نحيب ..

يسير على رصيف الشارع ، يستظل باغصان الشجر ، يسير بمشية الحبلى : متصلب ، متباعد الساقين ، يرتكز ثقله على الطرفين الخارجيين لقدميه . يتأرجح جسده بلحن بكائية تعدد بها امرأة جالسة ، يدور جذعها مع اللحن في انحناءات دائرية . يتفشى اللحن في داخله حزينا، حزينا، الى ان يكتمل ، ثم فترة صمت قصيرة ينبت اللحن خلالها مرة اخرى ويأخذ مساره .

« قضيت عمري وانا بمداراة صاحبي»

« لا صاحبي راضي ولا العمر خالص » .

وشمس الظهيرة تفتت العزم ، تسلمه لانحلال الوعي ، والغوص في الذكرى والاستسلام لها ، لتلقيه في قبضة ذلك الانين الدائري المطوط . يخطو نحو الباب عابرا ظلا كثيفا هلامي الملمس يأخذ قوامه

من رطوبة المنور . ينفتح الباب على العتمة . الصالة صورة فوتوغرافية بالابيض والاسود منقولة عن احدى لوحات بروجل . نساء متشحات بالسواد ، ملفوفات ومقيدات به ، يجلسن على امتداد جدران الصالة :كرات سوداء ، كبيرة ، منفصلة ومتجاورة ، صامتة ، دامعة ، مبلولة الانوف والوجنات . ينزلق متكئا على سطح القتامة السمراء ضوء قادم من فتحة الشيش الضيقة ، ضوء ابيض يبث لحن البكائية على الوجوه الساكنة ، والعيون السوداء الصغيرة المتسائلة باسى . صمت تحفز ، صمت انتظار ملهوف ، وتنطلق الصرخة يتتالى صداها ، يتتابع ، ثم يرق ويخفت ويظل معلقا في الهواء . والدم على اسفلت الشارع اللامع والعربة تختفي في المنعطف .

تباغته مصابيح الشوارع التي اضاءت دفعة واحدة.انه الليل، قال لنفسه ، وكأنه فقد شيئا عزيزا . المصابيح الملونة في الكازينو الذي على يمينه ما تزال مطفأة . الوانها سوقية وهي هكذا . حمراء وخضراء وصفراء وبرتقالية تتدلى مترنحة بين الاغصان . في هذا الكازينو كتب قصصه الاولى . كان يعتقد ان الكتابة يجب ان تتم في مكان كهذا حيث الشجر . واحواض الورد البلدي ، والجدول الصغير الذي ينتهي ببركة صغيرة مغطاة بنباتات مريضة الورد وزهور بيضاء . وفي هذا الكازينو جلس مع المومسات حين كن يملكن الوقت الكافي ـ قبل موجة السياحة ـ واستمع اليهن يروين تواريخ حياتهن وهن يشربن البيرة المثلجة . عند السور الغربي ، في الطرف ، كانت تجلس الممثلة التي كانت يوما مشهورة ثم تحولت الى مدمنة افيون وسكيرة . كانت تشرب البيرة بلا انقطاع وتدعو المارة ان يلجسوا معها . جلس معها مرة ولم يكررها بعد ذلك . كانت كئيبة ، ومتوترة الاعصاب . وعندما تتكلم كانت تضع بين كل كلمة واخرى : « انا » . فلانة الفلانية، وهذا اسمها هي ، هي التي صنعت ذلك المخرج ، وهي التي جعلت ذلك الفيلم ينجح ،المسرح ، والسينما الآن ماتا عندما توقفت عن التمثيل. . هي، هي، لما لا نهاية . كانت تتحدث عن نفسها كأنها انسانة اخرى. كانت ممثلة جيدة دون ريب ، ولكنها تستحق ما يحدث لها . غادرها وهو مكتئب ، وهو يكرهها كراهية حقيقية ويكره كل شيء . كانت تنظر اليه بعد ذلك عندما يدخل الكازينو وتبتسم له فيتجاوزها مسرعا ، محرجا . لم يكن يريد ان يهينها ، ولكنه ـلم يعد يستطيع ان يعاود الجلوس معها وسماع صوت كراهيتها للعالم .

كان الكازينو مزدحما بالرواد . يطالع الرواد . لم يستطع التعرف على احد . يجتازه، ويمشي ببطء امام اكشاك الكتب القديمة على السور. صاحب احد الاكشاك يمد يده الى مفتاح النور وينظر الى السماء. يقف مترددا : هل يعلن عن الليل ؟ يعزم فجاة فينفجر الضوء . تصعد نحوه صورة لمحمد عبدالوهاب على غلاف كتاب بحجم اليد . الوجه مبتئس ، مكدود ، النظارة الطبية تخفي عينيه وتجعلهما بقعتين من اللون الابيض . والراس صلعاء . كانت صورته تجعله يبدو كسمكة خرجت لتوها من الماء . ظهر في التلفزيون منذ فترة قصيرة ، يضع باروكة يخفي بها صلعته ، وقد خلع النظارة الطبية ، وقد راح يلقي نظرة رهيبة ، مفزعة في الفراغ . كان يمسك بعصا المايسترو يحركها صعودا وهبوطا برتابة ميكانيكية طيلة الوقت . ثم تظهر شادية واقفة على قاعدة خشبية ضيقة ، وتغني : وطني حبيبي وطني الاكبر .. ثم تظهر وردة الجزائرية وعبدالحليم حافظ، وفايدة كامل . المفروض ان عصا المايسترو التي يمسكها محمد عبدالوهاب هي التي تقودهم وانهم لولاها لما استطاعوا ان يقولوا : « وطني حبيبي ، وطني الاكبر ، يوم عن يوم امجاده بتكتر، وانتصاراته ، ماليه حياته ..» وتاه منهم اللحن تماما. وقد صرح عبدالوهاب بعد ذلك انه ما يزال في ربيع العمر . صحفي، نسى اسمه ، اعتبر هذا التصريح معجزة ، ودعا الشباب ان يتعلموا من هذا الرائد الكبير ... ويسترجع هو صوته الشاكي : « يا اللي ساكن في قلبي . لما يدوب قلبي ، حاتروح فين ؟» دون حس فكاهة ابدا .. ما تقولشي حاتجوز الا لما تلاقي شقه .. اصلك انت مش واخد بال سيادتك.. التوسع في العمران .. لازم يعني يكون في الصحراء .. اما الاراضي الزراعية .. انا لما كنت في اوروبا ويمد ذراعه .. « قاعده ؟ » ... طبعا ، طبعا ،

ـ « طبعا ، طبعا ، اوروبا مختلفة .. »

ـ « ما هو بقول لسيادتك ، زي ما كنت بقول لما كنت في اوروبا يعني ، من ... »

ـ « الكتاب ده بكام يا ريس ؟»

ـ « جميع الكتب هنا بقرشين »

ـ « طبعا ... »

ـ ٥ ـ

لقاء مع جمـــال الدين الافغاني

قال له الاب انهم كانوا ينتظرونه يوم الجمعة الماضي . قال هو ان ذلك صحيح فقـد وعدهم ان ياتي . قال الاب انهم انتظروه طويـلا ولكنه لـم يات . انهم لـم يغادروا البيت طيلة ذلك اليوم .

قال هو ، هل كان ذلـك بسببه ؟

قال الاب بعد ان تلكأ قليـلا . .

ـ « يعني . . . »

ثم قال انهم لا يحبون ان يغادروا البيت في يوم الجمعـة في هـذا الحـــر .

فقال هو انه آسف للغاية ، ولكـن الذي حدث هـو أن ضيوفا غير منتظرين جاءوا على غيـر انتظار . لم يرهم منذ زمـن طويل جاؤوا فجاة فلـم يستطع الاعتذار .

قال الاب ، بالطبع لا بد أن هنالـك سببا ما منعه من الحضور وقد قال ذلـك لزوجته . ونظـر اليهـا لتؤكـد ما قاله . كانـت الام تائهـة النظرة ، تصغي . ثم اكتشفت انهـا مطالبة ان تقول شيئا ، فابتسمت ، ونظرت اليهمـا وقالت :

ـ « ما جتشي ليه الاسبوع اللي فات؟»

قـال :

ـ « ضنيوف .. كنت بقول ..»

ثم صمت الجميع . احس انه مطالب بالمزيد من التبرير ، فقال ،بل انه حاول ان يتصل بالتليفون ولكن التليفون كان مشغولا طيلة الوقت فاعتقد انه معطل .

قال الاب :

ـ « تليفونا ما بيتعطلشي ابدا..»

فادرك هو انه اخطأ فصمت . نهضت الام وقالت :

ـ « حاعملك قهوة .. »

حاول ان يتكلم فاضافت :

ـ « عارفه، عاالريحه ...»

وضحكت . دائما تضحك لاسباب غير واضحة تماما . ثم انصرفت الى المطبخ وعادت بعد قليل بفنجان القهوة . وانتهى من القهوة وحملت الام الفنجان الى الداخل . وتناول الاب الصحيفة التي اتى هو بها واستغرق في القراءة . عبوس وجه الاب كان يدل على انه غير راض عما يقرأ ، اما هو فقد غلبه الايقاع فاخذ يدقه على الطرابيزة الخشبية التي بجواره . التفتت اليه الطفلة فغالب خجله وواصل الايقاع . والطفلة تطالعه بنظرة اسيانة ، متعالية ، تقول : « وفي مثل سنك هذا ، وامام مثل هذا الاب ..؟ الا تخجل؟!» ثم سارت حتى توقفت قريبا منه واخذت ترقص .

وعندما وقعت تلك الواقعة واقدمت الطفلة على تلك الفعلة الشنيعة التي لقيت بسببها الاهوال وضع الاب الجريدة جانبا . تأمل ما يحدث وادانه ، ثم توجه اليه وسأله أن كان يعتقد ان العرب سوف يحاربون ؟ هل ذلك بامكانهم ؟

السؤال نفسه كان يتضمن نفي تلك الامكانية ، فقد كان في جرس الصوت شيء ولدته تلك الشناعة التي فعلتها الطفلة ، فبدا وكانه يقول :

ـ « بعد كل هذا . وما دام بيننا امثال هذه الطفلة ، فهل ما زلت تعتقد ان العرب سوف يحاربون ؟»

فقال هو ان العرب ليس لهم خيار . اي خيار امامهم غير الحرب؟ وكان ذلك ، على نحو ما ، اعتذارا عن الطفلة .

قال الاب :

ـ « خيار في ايه ؟ »

قال ذلك باستنكار .

رد هـو :

ـ « خيار في الحرب . ما همه طبعـا لازم يحاربوا . الحرب مفروضة عليهم ولازم يحاربوا » .ـ

صمت الاب واصبح قاتما، لسان حاله يقول هذا مـا كنت اتوقعه. فاخذ يلوم نفسه ويفكـر : « انني لـم اكـد اقول شيئا » . ولكن الحديث استمـر . ولم تكـن للطفلة علاقة بـه .

قال الاب بعد قليل :

ـ « عايز تعرف العرب حيحاربوا وحاينتصروا امتى؟»

قال ذلك وهو يتحسس ذقنه النامية ، الخشنة . ثم اخذ ينتظـر رده بشفتيـن مقلوبتيـن .

قال هو انه راغب بالفعل في معرفة ذلـك .

قال الاب ان العرب سوف ينتصرون عندمـا يتوقفون عن الكـلام وينصرفـون للعمل . فلينظـر الى اليهود . هل تسمعهم يتكلمون ؟ عمـل ليل نهار ، ثم يحاربون وينتصرون .

تحيّر ، بماذا يرد على ذلـك ، فصمت . وواصل الاب : انظر الـى صحفنـا ، انهـا تتحدث بلا انقطاع . ان مـن يقراهـا يعتقـد اننا بـلا مشاكل على الاطلاق . ولكن ، هل نحـن حقيقة حللنـا جميـع مشاكلنا؟

رد هـو :

ـ « لا ، طبعـا ، المجاري مثلا . »

ابتسم الاب بسخرية وقال :

ـ « المجاري ... ايوه المجاري .. هيه بس المجاري ؟ شوف الشبان، ابناء المستقبل يا سيدي ، مربيين شعورهم زي النسوان وقال عايزيـن يحاربوا اسرائيل ، وينتصروا على اسرائيل . الحرب عايزة رجاله » .

قال هـو :

ـ « ده صحيح فعـلا » .

تصاعد حماس الاب فجاة دون سبب واضح .. كلام ، كلام ، كلام، هذا كل ما يفعله العرب . وقد قال سعد باشا من قبل : « ما فيش فايده ». هل تعرف على اي شيء اتفق العرب ؟ انا الذي سوف اقول لك : لقد اتفق العرب على الا يتفقوا . هؤلاء هم العرب يا سيدي . اتفقـوا على الا يتفقوا. واليهود يضحكـون بالطبع . هل عمرك كله سمعت عـن خلاف وقع بيـن اليهـود ؟!!

اراد ان يقول ان اليهود يختلفون فيما بينهم ولكنه يدرك مغبة ذلك . ان الاب وهو في هذه الحالة لن يصغي اليه ، وان الاسئلة التي يلقيها هي فترات استراحة حتى يتيح للسامعين ان يستوعبوا ما قاله . فقال هو ان هنالك بالطبع بعض الخلافات بين الانظمة العربية . وهي احيانا خلافات حادة بالفعل .

قال الاب : خلاف ؟ هل تسمي هذا الذي يحدث خلافا ؟ بل قل ان العرب يحاربون بعضهم ويختلفون مع اسرائيل .

كان الزهو الذي على وجه الاب اكثر مما يطيق هو . ولكنه اكتفى بالامتناع عن الاعجاب الذي يتوقعه الاب منه .

مضى الاب بعد فترة توقف : هل تريد احتقارا اكثر من هذا ؟ سوف اسألك سؤالا واحدا فقط : من هو الذي يقود دولة اسرائيل الآن ؟ امرأة ، أليس كذلك ؟ هل هم حقا غير قادرين على تقليد هذا المنصب لرجل ؟ (وعلا صوته) ان هنالك الف رجل خير من هذه العجوز الشمطاء . ولكنهم فعلوا ذلك حتى يقولوا للعرب :

يا عرب ، انتم تتحدثون عن الماضي ، وعن الامجاد ، وانكم كنتم اسياد العالم وكنتم كذا وكذا ؟ طيب ، نحن موافقون ، لا احد ينكر ذلك . ولكننا سوف نجعل امرأة تنتصر عليهم . ثم انهى حديثه قائلا وقد هدأ صوته ، واصبح كالمعتذر :

ــ « انا عارف ان كلامي مش حايعجبك . بس لازم نواجه الحقيقة وما نضحكشي على انفسنا» .

اراد ان يقول له : « على العكس فان النقد مفيد » . ولكنه فضّل ان يعبّر عن اعجابه برسم تعبير مأساوي على وجهه .

ثم غادرهم فجأة . شعر انه من المستحيل ان يستمر . التقط اول تاكسي في طريقه وذهب الى شقته . خلع ملابسه واستحم ، ثم غادرها وخاض زحام شارع سليمان باشا . هاجمه فجأة رعب تلك الليلة الشتوية .

★ ★ ★

★ ★ ★

يجلس ويراقب الميدان .

ميدان العتبة امامه مجموعة من الطرق الدائرية والارصفة ذات

الوظائف المتعددة : ارصفـة مواقف الترامويـات ، ارصفـة الشارع ، الارصفـة التي تستعمل كتراس للمقاهي ، ارصفـة طويلة ضيقـة تفصل بيـن قضبـان الترمواي ، وارصفـة عبثيـة ، لا تستطيع مهمـا حاولت ان تفهم سببا او مغزى لوجودها .. خطوط الترام الفولاذية محفـورة في الارض ، تتقاطع براوية حادة وتتوازى وتتداخل وتدور .. يراها تلمـع بيـن فجوات الاكتظاظ . شبكـة اسلاك متفاوتة العلو تستقيم وتنحنـي وتدور وتصعـد مشكلة مثلثات واقواسا ومعينات ، صانعـة ميدانا علويـا مصغرا خاصا بهـا . غابة متحضرة تعكس غزو المدينـة المبكـر وتنفـيه . والناس يتوقفـون متوتريـن ينتظرون ، ثم ينطلقون مسرعين يتفـادون الموت بسنتيمترات قليلة ، تقذفهم الاتوبيسات كأنهـا تتخلص من فضلاتها ثـم تستعيدهم (الاتوبيسات : تلـك الوحوش الحمراء ، الفطساء، المتصلبة الاجساد ، تنحز وتقذف هبابا أسود) .

وهو جالس يرقب الفوران الفوضوي لعالم معقد اشد التعقيد ، عنيف للغايـة فيتولاه حس فاجع بالعبثية وفقـدان المعنى . كان لـه هـو ايقاع مختلف ، ايقاع بسيط ، أعـد حسب خطة محكمـة بعناية فائقة تأخـذ جميع الامور بالاعتبار ، وقد تثبتت معطيـات عالمه بانفعالات عميقة الغور، صافته ، وصلّبته ضـد ذلـك الاندفاع العشوائي، الهمجي بيروقراطيـة متقنـة وخاليـة من الانفعال ، تفرّغ الانسان من كل حس . لذا اشتاق الى ماض من قريته جعلته الذكـرى ذهبيـا، والى ماض تعرف عليه مـن كتب التاريخ ... اشتاق الى عالم لانه اصبح ذكريـات قديمة ، شاحبة ، مستسلمـة ، تلقت صياغته بطواعيـة .

يجلس في ذلـك البار منتظرا تقادم الليل . تهدأ الحركة عنـد ذاك ويسـود الصمت . يعلم ان الاضواء سوف تتقلص وتنكمش في دائـرة عمشاء من ضباب الليل ، وان لونـا رماديـا باهتـا سوف يسود المكان ، وينفسح امام ناظريه شارع الازهر ، وتهدأ الحركة في شارع الموسكـي فيصبح كشوارع الايام الغابرة في الافلام السينمائية : شـوارع ضيقة ، متعرجة ، خافتة الاضواء ، ارضيتها مرصوفة بالاحجار الملساء المستطيلة، والبيـوت على جانبيهـا تتقارب في ارتفاعها حتى تكاد شرفاتهـا تتلامس. وتبدو لـه البواكي في الطرف الآخر من الميدان ، وفي بداية شارع محمد علي المؤدي الى القلعة ، متتالية ، رتيبة ، تخفي عالما غامضـا غريبـا . من مكانه ، كـان يستطيع ان يرى من خلال احدى البواكي مدخل فنـدق شعبي . بوابته الخشبيـة الكبيـرة مفتوحة ورجل يرتدي جلابية بلدي،

وطربوشا ، يجلس الى مكتب وقد احنى راسه فوق مساحة بيضاء يقدر هو انها الدفتر الذي يسجل فيه اسماء الزبائن وارقام بطاقاتهم الشخصية ، او ربما كان دفترا يراجع به حسابه الارباح والخسائر.

وهو ليس هنالك ما يفعله سوى احتساء البراندي ، وانتظار تقادم الليل ، عندما تمد القاهرة القديمة اذرعها المليون وتستعيد الميدان اليها ، دامغة اياه بطابعها . من قلب الميدان الصامت ، الرمادي ، سوف ينبعث ذلك الافواء الحريف ، القديم . حين تأتي تلك الساعة ، ويصبح الميدان عينا مفتوحة ، حالكة لجسد كبير يحيطها ، فسوف يعيش هو لحظات مسحورة في هناءة التاريخ .

يأخذ العالم طابعا رجراجا والزحام ما يزال على اشده . لم تكن المراة في المقهى . يقدّر انها في احدى مهماتها الروتينية . ولا بائع العصافير المشوية . لقد اختفى تماما . ولكنه هو يجلس على الطرابيزة التي كان البائع يضع موقده بجوارها . عندما يسهو ، يراه قريبا ويحس بناره تلسع فخذه الايمن . يأمل ان ينبثق فجاة حاملا عصافيره وموقدة . وقد اختفى بائع الجنبري الملتهب الجفنين . عيناه جمرتان صغيرتان وانفه مجرد قطعة غضروفية طارئة في وجه طويل ، كان يدور بسبته بين الزبائن بسبته الذي امتلأ باوراق الخس التي يختفي الجنبري بينها . يقول له الجرسون الذي فقد اسنانه ، والذي يطالع الميدان بنظرة عارفة، مستنكرة :

ـ « الجنبري ؟ الجنبري فين النهار ده يا سعادة البيه ، ده كان زمان ! » .

وتمتد وتطول كلمة « زمان » في فمه . وينطلق مبتعدا . لم يعد مغرما بالحديث .

اين ذهب كل شيء ؟ وكيف تغير ، وما الذي غيّره ؟ والمراة ؟ اين المراة ؟ خجل ان يسال عنها ، وعلى اية حال فهو حتى لو سال عنها فلن يأتوا بها اليه .

ـ « عايز اسال ، بعد اذنك ، مجرد سؤال : هوه يعني مستوى الاخلاق ارتفع قوى اليومين دول ؟ » .

حقا ، هل ارتفع مستوى الاخلاق الى حد الغى معه المراة ؟ عايز اسال بجد ، لانه عندي شواهد على العكس .

بين الحين والحين تطفو امامه عينا عزة ، ساطعتين بالضحك ، مبلولتين بدمع سابق لمشاجرة تجاوزاها .

ـ « لسه زعلانه ؟ »

ـ « انت مجنون ، حقيقي انت مجنون » .

وتستغرق في الضحك .

يكتم هو ضحكه ، فالشيخ جمال الدين هنالك ، جالسا خلف باب المقهى الزجاجي ، محاطا بمجموعة من المطربشين والمعممين. الجميع صامتون ، ساكنون كانهم تماثيل ـ تلك التي في المتحف الزراعي .

ـ « نروح المتحف الزراعي؟»

ـ « اشمعنى المتحف .. ؟»

ـ « نتفرج عالورد والناس »

ـ « سبب مقنع »

او تلك الصور التي في المتحف الحربي في القلعة ـ لا احد منهم يتحرك او ينبس بكلمة . تحاول وتحاول ان تجعل عينيك تلتقيان بعيني واحد منهم فتفشل . لم يحن الوقت بعد للانضمام اليهم . الا انه حين يهدأ الليل يكون ذلك مناسبا تماما .

ها هي المرأة تأتي ، تجلس على الطرابيزة المقابلة . تجيء مستعجلة. مستغرقة قليلا. الحق انها لم تأت ، بل كانت جالسة هناك طيلة الوقت، مجاورة له، وكان يعلم ذلك . كانت اكثر شبابا من عشر سنوات مضت ، اجمل واشد حيوية وفهما . تلتفت ، تفرقع اصابعها ، فيأتي الجرسون ، ودون ان تنظر اليه تطلب فنجان قهوة :

ـ « زيادة لو تسمح » .

ثم ينحني الجرسون ، ويضع الصينية النحاسية امامها عليها فنجان القهوة وكباية الماء المثلج . وهي خلال ذلك متأهبة للوقوف ، منشغلة بما يجري في الميدان ، تراقبه بجدية وتركيز كأن الذي تبحث عنه هناك في الزحام . تعود الى الماء المثلج ، والقهوة « ما تبحث عنه لا اثر له ». تتنهد وتشرب القهوة برشفات سريعة متلاحقة :

« آن لنا ان نيأس ونستريح » .

ثم تعود تطالع الحركة الصاخبة امامها بعيني ام لا تمل ابدا رعاية اطفالها . على وجهها ظل ابتسامة :« كل شيء على ما يرام » ، ولكن الاتوبيس يقترب من الموقف . يمرق من امامه رجل يعدو ، يقف على الرصيف يلهث ، ويدقق النظر في الاتوبيس . تضرب المرأة كفا بكف في حركة ندب ، تتنهد : «لقد نجا على اية حال» ثم يلتهب وجهها المنتحب ويتورد .

قالـت :
ـ « حاسب يا حبيبي ! »
ثم تضيف متعجبة :
ـ « يا عين امك ،خلي بالك ! »
والرجل يلهث وينظـر الى الاتوبيس ولا يلقي بالا اليها . وهي لاتكف. تلتفت اليــه وتقول :
ـ «شفت ؟ الاتوبيس كان حاياكله» .
يضحك. تتامله قليلا متسائلة ، منتحبة، عيناها ترمشان بلا انقطاع وفمهـا يشكـل الكلمـات ولا تقول شيئـا . ثم ضحكت ، وعيناها فـي عينيه . سألتـه :
ـ « بتضحـك ليـه ؟ »
قال لها انه ضحك لانها قالت عبارة « كاد الاتوبيس ان ياكله».
قالت ، الم يحدث هذا ؟ قال : مـاذا ؟ تاملته قليلا ثم اخذت تحكي وهي تمثل الحادثـة بيديهـا :
ـ « الاتوبيس جاي كده ، الراجل يا عيني شاف الاتوبيس هاجم عليه زي الوحش قام لاص منه وجرى كده ، أصله كـان بيبص للعربيـة اللي جايه من الشمال ، جايه كده ، بعـد منهـا قام لقي الاتوبيس في وشـه، كـده ...» .
قال لها انه قد اقتنع . عاودت النظـر الى الميدان ، وهي بين الحين والحيـن تلتفت اليه لترى أن كـان يوجه حديثا اليها .
نهضت المراة لتفصل بيـن طفلين يتشاجران . عبـاراتهمـا مبتورة، مختنقـــة :
ـ « سيب يا ابن الكلب » .
ـ « ودين النبي لاشرب من دمك » .
كان كل منهما يمسـك بكيس ورقي جمع فيه اعقاب السجاير . وضعا الكيسيـن على الارض بعنف والتحما في عراك لاهث . كان اكبرهمـــا يعتصر الاخر اعتصارا ، فامسكت باحدهما وابعدت الاخر وقالت لاكبرهما الذي يتفلت منهـــا :
ـ « عيب يا محمود أ ده ابراهيم زي اخوك الصغير» .
ومحمود يقسم انه لو امسك بابن الجزمة فلسوف يصنع منه كفته، ويمسح بـه الارض حتى تصبح انظف من وجه امه . ثم ابتعـد محمـود ووقف الاصغـر يتنهد ، ويرمق المراة بعينين دامعتين . فحصت المـراة

خدشـا في وجهه، لمسته بسبابتها ، ثم احاطته بذراعها ، وانحنت فوقـه وقبلتـه ثم قالت :
ـ « ما فيش حاجه » .
ثم فتحت شنطتهـا واخرجت منها قرشا ووضعته في يد الطفـل وأغلقت اصابعه عليه وهي تقول :
ـ « اسكت يا ضنايا ، كفاياك عياط يا عين امك » .
ثم نظرت اليه وهـو يضع كاس البراندي على فمه ويتجرعه حتـى اخـر قطرة ، وقالت :
ـ « يا عين امه !»
ثم عـادت الى الطفل وقالت :
ـ « كفايه عياط ، امال ! »
عندما جلست المراة نظرت اليه . ربمـا كانت تنتظر منـه ان يعلق على ما حدث، فقال لها انه لم يضحك، حين ضحك منذ قليـل ، سخريـة منهـا . لقد ضحـك لانهـا قالت عبارة : « كاد الاتوبيس ياكله » . عليها ان تصدقه انه لم يضحك الا لهـذا السبب. شرفا. واجهته وامسكت يده كانهـا تود ان تجذب أنتباهه الى شـيء مـا وقالت ان عليه ان يتوقف عن الشرب لان ذلك سوف يسبب له المشاكل . فقال لها انه ليس سكرانـا، فلتتاكد من ذلـك، وعلى كل حال فليس هذا هـو جوهر المسـالة . انـه كـان سوف يقول لهـا نفس هذا الكلام في كل الاوقات . ففـي نهايـة الامر لا احـد يرغمه على قول ما قاله .
قالـت :
ـ « الخمرة بتهري الكبد وانت صغير ..! »
أكد لهـا مرة اخرى انه ليس سكرانا . وما هـو السكـر في حقيقة الامر؟ انه الغاء مستوى مـن الوعي واستبدال مستوى اخر بـه . ولكـن عبارة « كاد الاتوبيس ان ياكله » جميلة ومبهجة . مبهجة الى حـد انه كاد ان يبكـي فضحك . تتذكرين الاغنيـة الزنجيـة دون ريب ، الحزينـة، الحزينـة ، التـي تقـول :
ـ « اذا رايتني يا ولد اضحك ، فذلك لكي امنع نفسـي مـن البكاء ».
اغنيـة حزينة للغاية . بلوز . ها انا ذا سوف ابكي الآن :
« يدعوني سافـلا واضحك فقط » .
« يرفسني وهذا بعض ما يفعله » .
« لا يعرفني ، ولا مـا افكـر فيه »

« عندمـا يراني اضحك » .

« فاضحك لامنع نفسي من البكاء » .

سوف ابكي . انني ابكي . الرين ؟ ان اهتمامك بكل مـا يجري فـي الميدان ، والرعايـة التي تمنحينها للجميع كانهم ابناؤك الحمقى مفرح الى درجة البكاء ولهذا اضحك . هنالـك نوعان من الضحك ، ضحك للسخرية من الاخريـن ومن الذات ، وهذا مـؤلم في العادة ، وضحك لان الانسان يشعـر بالفرح والحب ، لان العالم جميل وحلو ، يملؤنا بالنشوة والسعادة

يشعـر بالفرح والحب ، لان العالم جميل وحلو ، يملؤنا بالنشوة والسعادة،

هل تفهم مـا يقول ؟

دعت ان يبعـد الهم عـن قلبه ويتمدد على السرير ويضع راسه على فخذهـا . ها هـو يغرق في لدونة اللحم الوفير ، واصابعها تتخلل شعره وتداعبه . سالهـا ان كانت قد فهمت ما يعنيه ؟ ما كـان يريـد ان يقوله، ان الفرح المنبثق من كوننـا موجوديـن . . . قاطعته قائلة انها تفهم ما يقول، ولكـن ليس الان اوانه . واحنت راسهـا وقبلت جبينه وعينيه وخديه . قال لهـا : قد يكـون في ذلـك ـ اعني الفرح بالوجود ـ ردا على هـذه المرارة التـي . . .

قالت بحزن :

ـ « هل جف ماء الحياة منك الى هذا الحد ؟ الا تراني ؟»

ـ « بل اراك والا فمن الذي اكلمه ؟»

انحنت فوقه . حلمتا ثدييهـا هبطتا على عينيه . لم يعـد يرى ٪ احتواه العطـر ورائحة اللحم الحي ، المتفزز . وكـان صوتهـا حزينـا، حزينا ، كـان ما تقوله اشبه ببكائية ترددها لنفسـها :

ـ « نم يا حبيبي الآن نم . . . »

ثم اخذت تغمغم :

ـ « لقد قسـت عليه الحياة ، يقاوم ويقاوم وهو خلال ذلـك يتلاشى ويتهشم . لم يعرف حضن الزوجة ، ولا ضحكـة الابن وها هو الآن يسرع الى قبره قبـل الاوان » .

قال لها ، هل تعرف فرح الانسان بأن يوجد ؟ مجرد ان يوجد ؟

وتواصل ، عطـر جسدهـا القوي يلقيه في تيه النسيان ، ثدياهـا يداعبان وجهه وهو مليء بالكلام :

ـ « نم يا ابنـي . لم تكـد تعيش . جف ماء الحياة منك . انـت جيفـة تعيش على الذكرى . لم تكـد تذوق طعم التجربة الحقيقية . كلمات

يا رب هي كل بضاعته ، كلمات ملأوا بها راسه فالفت مدلولاتها ،واعتقد انها كل شيء » .

يقول للمراة انها نسيت ان تكمل قهوتها . نظرت الى فنجان القهوة، ثم امسكت به وجرعت ما تبقى دفعة واحدة. ثم قالت له انهما عندما يتقدم الليل فسوف ينضمان الى حلقة الشيخ ويناقشان كل شيء ، او قد يذهبان الى حجرتها في ذلك الربع القديم ولسوف يجلسان مع البسطاء من اهل الربع ، وهنالك سوف تحكي له قصة حياتها بلا اكاذيب ولا ميلودراما . سوف تلقى امامه بالحقائق صافية مثل البلور .

ـ « هل تريد شيئا آخر ؟»

لا، قال لها، ذلك هو المهم، هذا هو جوهر المسالة . ابتاسمت كثيرا وقالت :

ـ « هل جف ماء الحياة منك ؟.»

ويدها تداعب شعره وراسه على فخذها وعطر اللحم الحي ، حمى الشهوة تتسرب اليه منها وهو يقول لها : ها هو الشيخ ومن يلتفون حوله صامتون كأنهم تماثيل من الشمع الاصفر ، يجلسون مستغرقين في تامل الذات ومراجعة النفس .. وصوت المراة ، صوت عزة باكيا، مختنقا بالانفعال :

ـ « اخرج من هذه المقابر ! اصعد الى الحياة » .

ـ « انا قلت يا عزة، طلبت منك نتجوز» .

ـ « ايوه ! »

ـ «انتي اللي رفضت يا عزة» .

وتقول عزة ، انت قلت ذلك عندما قلت لك انني خائفة . لم تكن جادا .

ـ « يعنى ... »

ـ « لو كنت جادا ، لما رفضت .. »

تخف الحركة في الميدان ، يتناقص الناس والعربات ويخفت الضجيج . المتبقون اشلاء عنف انقضى ، اشلاء متآكلة ، سوف يمتصها الميدان . تنفسح القاهرة القديمة شيئا فشيئا امامه ، وتتفتح مساربها العميقة المظلمة ، وتزحف الى الميدان واليه . رائحة عطر قديم . رائحة بيوت اغلقت منذ زمان بعيد على البخور والعود والريحان تغلفه وتحيط به . يستسلم لافوائها ويغوص في رطوبتها الثقيلة المظلمة ، يدعوها ان

تعجل اليه .

وقال للمراة انها سيدة حكيمة . لا يستطيع الانسان ان يكون ودودا ومتفهما الا اذا امتلك قدرا كبيرا من الحكمة. ولكن الا يتطلب هذا تعريفا جديدا لكلمة الحكمة؟ لا تخافي، لن اطيل ... انت سيدة حكيمة ولهذا اتفق معك في كل ما تقولين. ولكن، بالمناسبة، مجرد سؤال عابر ارجو الا يضايقك ان تجيبي عليه : اين ذلك الرجل الذي كان يبيع العصافير المشوية؟ ذاك الذي كان يضع موقدة هنا، حيث يشير اصبعي، قريبا من هذا الكرسي الذي اجلس عليه، يعلق عصافيره المذبوحة الحمراء هنا على طرف السور، يتناول عصفورين ويضعهما على قطعة من الصفيح ويشويهما على الموقد ؟ لا بد انك تذكرينه؟ كان يتحدث كثيراً عن جمال الدين، يقول : آه، سي جمال؟ كان بيمثل في فرقة الريحاني، راجل سكره، وساعة الجد .... واشياء كهذه تبهجنا ولكننا لا نضحك حتى لا نجرح الرجل العجوز .. اين هو؟ انا هنا في انتظاره.لا ترد. فقط تنظر بهاتين العينين اللتين يسيل منهما الحزن، ولا تقول شيئا. يحدثها ويحدثها ولا ترد . يسمع صوته فقط. وبائع الجنبري؟ لا بد انك تذكرينه، لا يمكن ان قد نسيته! اين اختفى؟ انا هنا في انتظاره ايضا. ذلك الذي كان نحيلا، ملتهب الجفنين، ووجهه مجرد خرق مهلهلة، الذي كان ينسل بين الزبائن في صمت، حاملا سبته الكبير، ثم يفاجئنا قرب الاذن مناديا بهمس مخنوق كانه يسر اليك شيئا خطيرا :

ــ « جنبري، جنبري حلو .. »

كانه يتساءل ؟

كيف انتهى والى اين، وماذا يفعل الان؟ والمراة تقول دون صوت، بل بعينيها اللتين ترشحان بحزن رصين عارف :

ــ « لقد قلت لك من زمن ان هذا لن ينتهي على خير. وها هم قد دمروك فاصبحت حطاما» .

ليست الامور على هذه الدرجة من السوء، ولكنني احب ان اسال، ان كان ذلك لا يثقل عليك : المراة المنتحبة؟ اعني التي كان لها وجه منتحب يرشح بالحنان والالفة ــ ما يرشح هذه؟ ــ تجلس على هذه الطرابيزة، هذه التي اشير اليها باصبعي، ليست تلك، بل هذه، تجلس تشرب القهوة وترقب الحركة في الميدان بلهفة ام. يتشاجر طفلان فتنهض وتفصل بينهما :

ــ « كفاياك عياط، امال! »

وتفتح شنطتها وتخرج قرشا؟ ماذا حدث لها؟ لم يكن مستوى الاخلاق

اقل منه الان، ولكنها رغم ذلك كانت تجلس هنا، تصغي بوجه حزين ، وعيناها ترمشان بلا انقطاع . انا جالس هنا انتظرها منذ ساعات، ولم تأت بعد .

ينهض بائع العصافير المشوية، يضع عصفورا ملتهبا على طبق ويدفعه الى الطرابيزة. بائع الجنبري يضع مجموعة من بضاعته بجوار العصفور. يقضم قطعة من العصفور المشوي ويشرب جرعة من البراندي وينتظر ان ترحف القاهرة القديمة الى الميدان وتغمره، وفي اثناء ذلك الانتظار يحدث المراة :

ـ « لم تكن متحمسة حين طلبت منها ان ازور حجرتها في ذلك الربع القديم. قالت :

ـ « جوزي شرآني ... »

او شيئا كهذا وانه سوف يقتلني ان رآني معها. ثم قالت انها لا تسكن في ربع. تقول لي انا مثل هذا الكلام . لم اصدق ذلك ولكنني لم الح ساعتها. كان ما زال في الوقت فسحة، ولم نكن قد تعلمنا هذا الجري والاستعجال .. لكنني الان مصمم ان ازورها في حجرتها وان اسهر معها حتى الصباح. ذلك امر لا بد منه ولا يمكنني تاجيله باية حال. اريدها ان تحدثني عن قصة حياتها. طبعا الحبيب الفني الذي انتحر بسببها لان عائلته العريقة قد وقفت في سبيل زواجهما، وانها تشرب الخمر لتنسى، حكايات المومس الفاضلة التي انهكنا حتى من السخرية بها ... مثل هذه الحكايات لا احب سماعها. انا اذكرك به ولذا تحبين ان تريني كثيرا!! انا اسالك كصديقة، ولان لك وجها حزينا، اسالك لانه من المستحيل ان اقول امثال هذه الامور في الاذاعة والتلفزيون او في الصحافة او في محاضرة او ندوة او في اجتماع جماهيري، او على مقهى ريش، او على الفيشاوي، تبقى السينما، ولكن ذلك يجب ان يقال بشكل غير مباشر، لان للسينما لغتها. هنا خلفنا، في سينما اوبرا يقولون ذلك.. » .

لم يتعجب مما يحدث . يشرب جرعة من كاس البراندي فيفاجأ به انه عصير ليمون مركز. كيف واين؟ والجرسون وبعض الاخرين يحيطون به. لم يلسع يده فنجان القهوة. كانت مرة، مرة، بشكل لا يطاق. وهذه الـ «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم» .

ـ «انت كويس دلوقتي؟»

ولماذا لا اكون ؟

في الطرف الاخر من الميدان تتخلق الرؤيا. هناك مدينة من الصلب

والزجاج، الضوء فيها لا ينبعث خارجها ولا ينتشر. كأن الضوءلون للجدران والارصفة والمارة، او كأنه تكثف وتجمد فاصبح هذه الجدران والارصفة والناس. شوارعها مستقيمة، عارية، شبه مهجورة. وتندفع العربة عبرها دون صوت، كما يحدث في فيلم صامت. فاطمة هناك واقفة تنظر الى العربة، ولكن العربة تجتاحها فلا يبقى من فاطمة الا بقعة كبيرة من الدم المشع على الارض. ينهض، اين التليفون، اين ذهب؟ ها هو .. ! يدير القرص. يدق الجرس ، يدق طويلا، ثم صوت الاب كأنه يتثاءب :

ـ « هالو ؟ »

ـ « فاطمة .. كويسة ؟ »

صوت الاب منزعجا، يقول :

ـ « فاطمة ! مين فاطمة ؟»

ـ «اللي كانت بترقص ... الطفلة يا اخي..»

ـ « كوثر..؟ خالد؟ انت بتتكلم من فين؟»

ثم اخذ يزعق، تناول شخص ما التليفون من يده واخذ يشرح له مكان البار الذي يجلس فيه. يعودون به الى مكانه. يقولون له ان عليه ان يستريح فقط. وعندما كان يحاول ان يشرح لهم كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون :

ـ «طبعا، طبعا .. بس اقعد استريح...»

ثم حدث هذا الامر الذي لا يصدقه احد. فها هو الاب بلحمه ودمه يهبط من التاكسي ويتوجه اليه. ينهض ليصافحه ولكنه يتحدث الى الجرسون ويخرج نقودا ويعطيها له. ثم يتجه اليه ويدعوه للنهوض .

وهما في داخل التاكسي والاب صامت، وعندما يحاول ان يشرح له يقول ايضا :

ـ « طبعا ، طبعا » .

ولكن العربة لا تتجه الى حيث يسكن. ها هو الاب يعود الى الاعيبه. ثم تخرج اليهما الام ترتدي روبا وشعرها مشعث. ويتعاونان ، وهو يحاول أن يشرح لهما، ويضعانه في البيجاما، ويجد نفسه في السرير، وعصير الليمون والقهوة اللاذعة مرة اخرى. كل شيء يبدأ من جديد.

الجزء الرابع

(حملة اعتراضية ـ هوامش)

– ١ –

جملة اعتراضية

ـ «هالو، انا خالد، ارجوكي يا عزة، ارجوكي حاولي تفهمي، انا.. انا بختنق، بموت، انا حا،حاتجنن .. الوحدة، الرطوبة.. مش دي، ارجوكي .. من الصبح، ارجوكي، من الصبح وانا عايش في كابوس، كابوس حقيقي .. البرد، الرطوبة .. بقول البرد، الرطوبة ... حاولي تفهمي .. عندي دفاية، بس مش دي المشكلة ... المشكلة ... المشكلة مش دي .. سيبيني اتكلم .. افهمي، اسمعي..»

ويصرخ، ويصرخ .. ثم انقطع الاتصال .. يضرب الرقم مرة اخرى. ترد عليه :

ـ «قفلت السكة ليه ؟»

ـ «انا ؟»

ـ «انت اللي طالب مش ممكن اقطع السكة، بس...» ثم ضاع صوتها. السماعة في يده صماء. يحاول ان يعيد الحرارة الى التليفون، ولكنه يظل ميتا في يده .

يواصل المسيرة في الشوارع . يكتشف انه اصبح في ميدان سليمان باشا. سار طويلا . كان مرهقا. اتجه الى شارع صبري ابو علم. يخوض في الماء الوحل، وتوقف امام باب العمارة وتردد. تحول الرذاذ الى مطر حقيقي فانهى تردده وعبر باب العمارة. كانت غارقة في الظلام. التيار

الكهربائي مقطوع هنا ايضا. لا احد بالباب. توقف في الداخل واخذ ينفض راسه، ويعصر شعره ليزيل المطر العالق بشعره. ارضية المدخل مغطاة بنشارة الخشب، رسمت فوقها مواطىء اقدام مبلولة .

يتوقف ويتردد مرة اخرى. ثم يمتصه المكان، يبهظه بالشوق. مدخل العمارة الواسع، وقد زادته الظلمة اتساعا، والباب العالي للعمارة بحديده المدهون بالاسود وقد اتخذ شكل دوائر غير كاملة ومقرنصات ، تداخلت فاصبحت ارابيسك تتوه العين فيه، والطراز الاوروبي الذي يمتزج فيه الذوق بالفخامة، والمصعد الضخم، القديم الطراز، الذي تستطيع ان ترى من في داخله من الصاعدين والهابطين ذكره بايام مضت ولن تعود، بعالم له قواعد وتقاليد معروفة، بمصر في قصص يحيى حقي وروايات نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس التي قراها قبل ان يجيء مصر. كانت مصر هكذا عندما جاء اليها ــ هكذا بدت له في الشهور الاولى .

صعد الدرجات العريضة الى بسطة السلم. في الانفساح الكبير ينشأ حلم اليقظة، ولكنه اصبح توقعا مملا بسبب عدم تحققه الدائم. (ينفتح الباب عن امرأة في الثلاثين، وعن عالم من المعرفة والمتعة قرأ عنهما ولم يرهما قط). يواصل سيره في الظلمة المثلجة. المصعد كبير، هاجع مظلم، في داخله المرآة تشع لمعة سوداء . يصعد السلم الذي على يسار المصعد. لا يستطيع ان يتبين طريقه فيشعل الولاعة. على الدرجات الرخامية الواسعة نشارة خشب، واثار اقدام ــ قد ازالت النشارة وخلفت مواطىء اقدام مبللة موحلة . في الدور الاول فاجاه اسم دار النشر «دار الثقافة الجديدة» قاتما بسبب انطفاء المصباح الكهربائي الذي يضيئها من الخلف. دخل الدار يتلمس طريقه . في الداخل كان برد مركز، راكد ، رمادي. السكرتيرة التي تجلس في المدخل لم تكن هنالك، لقد اعتقلت بسبب اتهامها بالاشتراك في المظاهرات. الحجرة التي تواجه الباب الخارجي مغلقة ومطفاة من الداخل . دخل في المعر الطويل الذي على اليمين . كان خاليا وباردا. في الحجرة التي على اليمين كان يجلس اثنان قد اعتقلا ايضا. الحجرة التي في نهاية المعر مفتوحة يغلفها الظلام. مد راسه من الباب ودقق النظر . لا احد هنالك . انحرف الى اليمين وسار في الممر الطويل. لا احد. لا احد. دخل الحجرة التي يجلس فيها صنع الله. رآه. كان قد فتح الشيش واغلق زجاج النافذة. على هذا الضوء الشحيح كان يقرأ مسلخ البروفات المكتظة بالكلمات السوداء، المحفورة بعمق في الورق الاسمر. سار دون صوت وحجب عنه الضوء المتسلل من النافذة. رفع صنع الله راسه

وتاهب للوقوف ، ثم جلس. راى ان الدم قد هرب من وجهه، واخذ يحدق بـه من وراء نظارته الطبية كأنه لم يره قط قبل ذلك . قال :

ـ « خضتني يا اخي!»

امسك بالسيجارة ، وكانت يده ترتعش وما زال يحدق فيه كأن شيئا لا يصدق يحدث امامه. وفجاة ضحك ضحكته الغريبة،الطويلة، المطوطة، التي كانت في تلك اللحظة اشبه بالنحيب. كانت الضحكة شبه اعتذار. قال:

ـ «مالك واقف كده؟ اقعد، حاخلص من دول بعد دقيقة واحدة».

ثم اتخذ وجهه طابع اصغاء. كان كوجه من يعاني مغصا. وعندما راى وجـه خالد ، قـال :

ـ «اقعد، حاجيب لك قهوة» .

قال خالـد :

ـ « لا ، بلاش القهوة » .

واعاد صنعالله ضحكته. في اغلب الاحيان تكون هنالك مشكلة ما تجعل احضار القهوة مستحيلا، او ان ذلك على الاقل يحتاج الى وقت طويـل يتخلله تأنيب شعبان، ثم الشكوى منه، ومن غش البن. قال صنع اللـه وقـد ادرك ما يدور في ذهنه :

ـ « لا، بجد المرة دي» .

قال انه يريد ان يتكلم في التليفون فقط. وكلم عزة من التليفون الذي في الحجرة لاخرى. قال بهدوء :

ـ «عزة انا خالد. الساعة كام دلوقتي؟ اتنين. اربعة في الشيراتون. هالـو ؟ »

قالت :

ـ « بس ...»

ـ « بلاش بس والنبي احسن الحرارة تنقطع» .

ـ « بقولك ايـه ...»

قال خالد :

ـ « احسن الحرارة ...»

وانقطعت الحرارة عن التليفون بالفعل .

وضع السماعة. اكتشف انه قد عرق خلال تلك الفترة. سار خائفا، مرهقا، قد تسربت منه كل قوة. وتقمص الخوف الذي ينتشر في الـدار. غـادر المكان دون ان يقول شيئا لصنعالله، مارا بالحجرات الواسعـة، الفارغة، المعتمة، الصامتة. تسلل عبر ذلك الصقيع الرمادي، الراكد وقـد

بعثت فيه الحجرات احساسا فاجعا بموت ما، بنهاية شيء ما. ان عائلة مريضة تنقرض ــ ذلك ما خطر له، وفي داخله صورة امنة في القرية وقد مات سادة البيت وبيعت الارض .

في الشارع كان حزينا وخائفا. احس ان عليه ان يفعل شيئا ما، شيئا محددا، دون ابطاء، ولكنه له يكن يعلم ما هو. جعله ذلك متوترا. قرر ان يذهب الى جروبي، وقد صعدت امامه صورة الزحام والنساء الجميلات يجلسن ملولات تلتقي عيونهن بالداخلين، والتدفئة والشاي الممتاز. وعندما سار في هذا الاتجاه استولى عليه احساس بانه يبتعد عن المكان الذي يجب ان يذهب اليه، وانه بالتالي يطيل المسافة بينه وبين الامر الملح الذي عليه ان يقوم به. كان ذلك فاجعا، ثقيلا على نحو ما.

كانت مسيرته الى جروبي اشبه بذلك الاستسلام اليائس عندما يكتشف الانسان ان العمر قد تقدم به، وانه ينحدر الى الشيخوخة والموت انحدارا لا سبيل الى مقاومته، بينما هو ما يزال في مرحلة المشاريع التي كرس نفسه لوضعها، والتي قد اصبح الوقت متاخرا لتحقيقها. ان ذلك الانسان يقول لنفسه : «انها حتى لو تحققت فسوف يكون ذلك متاخرا جدا». ثم تولاه غضب عنيف جامح، وفي داخله صرخة لا تنطلق : « الا استطيع ان اذهب الى مقهى اشرب فيه فنجان شاي دون هذه المقارنات المفزعة، ودون هذه المشاعر الرهيبة بالذنب؟!». سار الى المقهى بعنف من يصارع عدوا يقف في طريقه .

في جروبي، كما توقع، كانت جميع الطرابيزات مشغولة، وهنالك اناس يقفون في مدخل المكان بانتظار ان تخلو احدى الطرابيزات، او ربما للاستمتاع بالدفء. هنالك بعض الوجوه المالوفة التي لم يكن متاكدا من اسماء اصحابها. رفعوا وجوههم اليه مترقبين تحيته، فتجاهلهم . يعلم انهم سوف يرحبون به اذا جلس معهم، وسوف يكشفون عن معرفة وافية به . هنالك دائما هذه الوجوه المالوفة التي تعرفك جيدا والتي لن تستطيع ابدا معرفة اسمائها، والتي يكون اصحابها مستعدين للحديث في كل وقت والاصغاء بادب واهتمام. ورغم ما يمنحه الجلوس معهم من الرضى عن الذات فقد انصرف عنهم يراقب النساء. لم يكن مستعدا ان يجلس مع اناس لا يستطيع ان يشكو اليهم .

غادر المكان .

مقهى لاباس مزدحم ومزيد من الوجوه المالوفة. نوع النساء هنا مختلف عن جروبي، اكثر شبابا وانطلاقا. مقهى ريش شبه خال ومقبض

دفع الباب الزجاجي ونظر الى المطعم. كان هنالك احد اصدقائه، يشرب البراندي. اغلق الباب بسرعة وابتعد متعجلا وهو يتساءل :« اذن، ما الذي اريده؟». سار قليلا وتوقف امام مكان عبور المشاة وانتظر. تحول الضوء الى اللون الاخضر ولكن العربات واصلت السير، ثم توقفت ببطء كان ذلك تم بدافع القصور الذاتي. عبر الشارع الى الرصيف الاخر، نظر الى شركة طيران «اير فرانس» كأنه ينتظر ان يجد احدا هنالك، تمهل حتى تحول الضوء الى احمر، ثم الى اخضر، وعبر شارع قصر النيل . في منتصف الشارع راى الفتاة، تضع لباس راس من الفرو. حدقت في وجهه، حدق بها، تمهلا قليلا، ثم واصلا السير في اتجاهين متعاكسين. على الرصيف الذي امام جروبي نظر خلفه، فرآها تقف على الرصيف الاخر مستديرة نصف استدارة، والتقت عيونهما. واصل السير بعزم وعبر شارع الانتيكخانة. ثم خطر له : «انها سميرة. كيف تريدني ان اتعرف عليها في نصف ثانية وهي تضع هذه الطاقية المضحكة على راسها؟» ثم كلم نفسه مدافعا عن نفسه امام شخص وهمي : «اترى؟ انهن لا يبدان بالتحية حتى وان اخفين وجوههن تماما واصبحت رؤوسهن في ذلك الفراء المضحك كأنها رؤوس نعاج ... بنات مؤدبات ... ويدعنك هكذا تعاني من الاحساس بالذنب..». ثم وجد نفسه على راس مدخل هانو. سار في الوحل، وعبر زحام العربات الى نادي الاتيلييه. كان مغلقا. في مثل هذا الوقت يكون دائما مغلقا. عاد الى الميدان وسار نحو الاكسلسيور. كان لا يطاق. زحام، وبخار في الجو، وضجيج مرعب. ويظل يمشي ويمشي يحاول ان يتذكر ذلك الشيء الذي يلح عليه، ويجب ان يفعله دون ابطاء، فلا يستطيع . يثقل حتى الاختناق شعور انه كلما تاخر تذكر ذلك الشيء، كلما كان القيام به اشد صعوبة .

★★★

★★★

ـ «هالو، هالو، ايوه يا عزة، ارجوكي، حاولي تفهمي، حاولي تفهمي ... مش ممكن تتصوري، مستحيل تفهمي الا لما تعيشي اللحظة نفسها، بقول اللحظة نفسها .. هالو ... هالو.»

ثم تنقطع الحرارة عن التليفون. السماعة في يده جثة. يميل الرجل اليوناني نحوه :

ـ «حبيبي، التليفون من الصبح كده ....!»

ثم يمسك اليوناني بالسماعة ويقول باستفالة وهو يمد يده بالسماعة:

ـ «الحق، مسيو، الحرارة جت..»

ويطلب النمرة. التليفون مشغول في الجانب الاخر. يعيد طلب النمرة. الخط في الجانب الاخر صامت .

عندما يتذكر ذلك يدرك بوضوح انه كان في ذلك اليوم يستطيع استعادة عزة لو انه بذل مجهودا كافيا، لو انه لم يتصرف بهستيرية . ولكنه كان دائما ينتظر منهن ان يكن دائما امهات متسامحات، ان يهرعن اليه عندما يكون حزينا او محتاجا اليهن. على الطرف الاخر ان يفهم ويبرر .وليس عليه هو ان يبذل اقل مجهود .

يهيب بها ويناديها بالتليفون وقد وجد بعد بحث يائس تليفونا يعمل:

ـ « عزة .. ؟ »

ـ « اهلا خالد . »

صوتها محايدا كان .

يصرخ :

ـ « عزة، مستحيل، مستحيل اوصف لك بالتليفون، لكنه شيء، شيء كده زي الموت الحقيقي، مش فكرة الموت، الموت، الموت الحقيقي .... حاولي تفهمي.. سيبي كل حاجة، انسي كل حاجة وتعالي بسرعة، تعالي حتى لو تيجي ماشية...»

«ماذا قلت؟» كان البقال ينظر اليه ويهز راسه. وجهه كبير وعيناه حزينتان . قال :

ـ « ربنا كبير »

ـ « شكرا »

ـ « شد حيلك » .

انصرف وهو يقول لنفسه : «ينتظر مني ان احكي له قصة حياتي».

ناداه الرجل :

ـ « الباقي » .

ابتعد بعنف . كان غضبه موجها ضد عزة : «هكذا ينتهي بنا الامر. يعجبك هذا دون شك». كان يريدها ان تتالم وتعاني لهذا الذي يحدث له.

★ ★ ★

★ ★ ★

الدفء الخانق احتواه منذ ان دخل باب الفندق الكبير، هبط عليه وسلب منه الحدة. هواء اجهزة التكييف يحمل نفثات من روائح الطعام، وروائح الديتول والنفتالين، وعطور نادرة ـ ربما كانت عطورا وهمية اثارها مرأى النساء في صالة الفندق ـ . رخام الارضية يلمع بين السجاجيد الفاخرة التي تغوص فيها القدم قليلا. وهو يعبر المدخل الرئيسي يعاني من ضغط المثانة والتهاب الزور، مثلج الانف والقدمين، ودوار خفيف ألم به عند الانتقال من الجو البارد في الخارج الى دفء الفندق .

كان قد اعد الكلام الذي قرر ان يقوله لعزة. كان يهذي به طيلة الساعات الخمس التي كان يلوب خلالها الشوارع الموحلة، ينتقل فيها من مقهى الى اخر، يقابل صديقا، يتلقاه بحماس ويتحدث معه لبضع دقائق ثم يتولاه ضجر وضيق، فيودعه لانه يتبين فجاة انه يود ان يظل وحيدا. كان قد قرر أن يقول لها :

«اعترف انني انهزمت . لا استطيع أن استمر في هذه اللعبة، هذه اللعبة التي يجب الا نعود اليها مرة اخرى. لا داع لان نناقش اي شيء مضى، ومن المخطىء ومن المصيب، فانا مهزوم منذ البداية. كما ان نقاشا كهذا لن يجدي شيئا. في هذا الصباح قد عرفت الوحدة حتى الموت، ولن أعود اليها أبدا .. ابدا ..» .

ودخل الحمام. تبول ونظر في المرآة وتامل وجهه، وخلال ذلك كان يحاور نفسه : «هل اقول لها ان ليال كثيرة قد مضت لم انم فيها؟» ان وجهه لا ينبىء بذلك ـ وجه يصلح للاعلان عن فوائد الكينا الحديدية ـ كما انه غير صحيح. غسل يديه بالماء الساخن، استمتع به عندما تزايدت حرارته واخذ يلسع باطن اليدين، ترك نفسه يصل الى قمة اخذت اعصابه بعدها ترتاح وتتهدهد، لم جفف يديه وخرج .

عندما دخل الكافتيريا رآها تجلس قرب الشباك شاخصة، ساكنة كتمثال، تحدق في النهر الرمادي. لقد جاءت قبل الموعد كعادتها، ولكنها كانت بعيدة ومختلفة. لقد شك للحظات انها فتاة اخرى. لقد استفزه الى اقصى حد هذا التعالي البارد، الموحش ... واقترب، وحبه ولهفته يطعنان قلبه بتتال مؤلم .

عندما رآته اصبح وجهها متسائلا، شبح ابتسامة طاف على وجهها كان يعبر عن ترقب أكثر مما يعبر عن ترحيب. حين واجهها لم يقل ما كان قد قرر ان يقوله لها. قال :

ـ «اهلا عزة !»

كان صوته محايدا. قالت :

ـ « اهــلا » .

قال لها انه متعب ويشعر بالضجر. نظرت اليه، ثم ضاع التحديد من نظرتها . وبدا كانها مشغولة بافكار خاصة بها . لم تعلق علــى مــا قال . سالها عن صحتها، قالت :

ـ « يعنــي ! »

ـ « عاملة ايه في البرد دا ؟»

هزت راسها ولم تقل شيئا. اخذت تعبث بشنطتها، وتراقب يديهــا وهي تفعل ذلك. رفعت وجهها اليه متسائلة، فلم يقل شيئا. تبادلا النظــر بصمت. جاءت الجرسونة وتوقفت امامهما بوقار، ثم ابتسمت وهـــي تقــول له :

ـ « مساء الخير » .

قــال :

ـ « بتشربي ايه يا عزة ؟»

قالت عزة :

ـ «طلبــت..»

وفي نفس الوقت قالت الجرسونة :

ـ « المدموزيل طلبت شـاي» .

طلب قهوة سادة وانصرفت الجرسونة. ثم صمتا. عانت كرامتـــه كثيرا قبل ان يقطع الصمت ويقول :

ـ « ما حدش بشوفك ليه؟»

فكر : «كانني لا اعلم. انني اجرحها» ولكن ذلك بدأ ولا يستطيـــع ايقافه. قالت :

ـ « يعنــي » ..

لم يفته التوتر الذي في صوتها . ادرك انها تلجأ الى الكلمات المقتضبة حتى لا يخونها صوتها. ثم صمتا، وكانت هي خلال ذلك تراقب الجرسونات يحملن الطلبات الى الزبائن. ثم عادت اليه وقالت:

ـ « وانت عامل ايــه ؟»

قــال :

ـ « مش بطال » .

ثم ابتسم وقال لهــا :

ـ « يعني » .

تظاهرت انها لم تفهم انه يمزح فاخذت تنظر اليه كانها تطالبه بأن يستمر. راى ان عينيها جميلتان. لم يلحظ من قبل هذا اللون البنفسجي الذي يخالط سوادهما. قال لنفسه : «فليكن!». ثم اخذ ينظر عبر النافذة الى النهر. كان رماديا تحت سماء رمادية. في اقصى الافق الشرقي راى سماء بيضاء، ومزقا زرقاء داكنة كانها قطن متسخ من الفيوم الصغيرة. بدا ذلك كلوحات مايكل انجلو. كان الشاطىء مهجورا عدا رجل يضع على راسه كيسا من الخيش ويسرع على شاطىء الجزيرة. وهنالك مراكب واقفة، حلت قلوعها ولا احد يبدو على سطحها. وعزة خلال ذلك تنظر الى يديها اللتين تمسكان بالشنطة. كانت تبدو وكانها تتأهب لان تنطلق بشكوى مريرة، لم تستطع السكوت عليها اكثر من هذا .

قال :

ــ « عزة » .

فوجئت . قالت :

ــ « ايوه ؟ »

«لقد اهانتني» فكر « اهكذا ترد على هذه الصرخة؟ اتفاجا بها ايضا؟» ولكن عليه ان يقول شيئا، غالب اختناقه ومهانته وقال :

ــ « بتقري ايه دلوقتي؟»

ــ « مش بقرا حاجة » .

لمس الغضب في صوتها . قال :

ــ « علشان البرد ؟ »

المفروض ان هذه كانت نكتة، ولكنها لم تضحك لها. فكر : «انني اهنتها، وها انا ذا استمر في ذلك!». ولكنه لم يعد في استطاعته كبح تلك المتعة الجنونية، متعة ان يؤلمها، ويغرق في ايلامها لانها رفضت ان تضعف وترق لالمه. يفعل ذلك وهو يعلم ان الالم الاكبر هو ذاك الذي ينتظره هو .

قال :

ــ «انا اسف النهار ده، بس..»

ردت بقطع :

ــ «معليش ، مش مشكلة...»

جاءت الجرسونة بالطلبات. كان طعم القهوة ممتازا .واحب كثيرا ان يقول ذلك لعزة لانها كانت تفهم ذلك. نهض وذهب الى دورة المياه. تذكر وهو في طريقه اليها انه لم يعد بحاجة الى ذلك. ولكنه واصل طريقه، وفتح الحنفية، تاركا الماء الحار يلسع يديه. نظر الى وجهه في المرآة،

وخطر له ان يصفه بان يصلح للاعلان عن الكينا الحديدية، ثم تذكر بسام انه قال لنفسه هذه الفكاهة منذ قليل. عاد وهو يحاول ان يصيغ ذلك الاعلان : «خالد يقول انني اتناول الكينا الحديدية، صباح، مساء...» لا، ليس هكذا . «هل تحبين يا سيدتي ان يكون لك ابنا سمينا كصاحب هذا الوجه ..؟» وهل هذا معقول؟! تبين له فجاة انه في الوقت الذي يردد فيه هذه الفكاهات تضيع منه عزة. اسرع عائدا يتملكه الفزع. لقيها تستعد للانصراف، قد لبست البالطو والجوانتي، وامسكت بشنطتها، ووقفت تنتظر. كانت تحني راسها. راى حاجبيها مقتربين، وقد برزت بينهما تغضنة، وقد ضمت شفتيها المكتنزتين بتعبير صارم. كانت جميلة بشكل لا يطاق. كاد ان يبكي. لاحظ انها تتحاشى ان تلتقي عيونهما. تبين له فيما بعد، عندما كان يستعيد صورتها وهي واقفة تنتظر عودته انها كانت تحاول ان تمنع نفسها من البكاء .

كان يختنق. قال لنفسه : «ان ما نفعله هو لعب اطفال». ولكنه كان عاجزا تماما عن قول او فعل اي شيء. عندما يستعيد ذلك الان ، يرى نفسه يمسك بيدها في عنف ويقول لها : «توقفي عن هذا، فلنتوقف نحن الاثنان عن هذا. هيا اجلسي !» ثم يشكو لها ما عاني ذلك الصباح، والايام السابقة. ولكنه لم يفعل ذلك . قال :

ـ « ماشية ! »

هزت راسها عدة مرات .

ـ «ممكن نقعد شوية اذا كنت عايزة».

قالت :

ـ « شكرا » .

افسح لها الطريق، ثم تذكر. قال :

ـ « الحساب » .

قالت :

ـ « حاسبت » .

كان يرغب في قتل ذلك السائح الذي كان يطالع عزة بنظرات وقحة. قال لها :

ـ « حاسبت فعلا ؟ »

سارت وتبعها. كان ذلك مؤلما الى اقصى حد. لقد كان ساعتها فاقد القدرة على التصرف. ما زالت تلك اللحظات النهائية تنفذ الى قلبه كالسكين كلما تذكرها . قال لها :

ـ « ما تجريش» .
التفتت خلفها وقالت :
ـ «ما فيش داعي تيجي معايا. حا اخد تاكسي واروح» .
ثم اسرعت، واسرع وراءها وسار بجوارها. وهما يغادران الفندق الى الجو البارد حاول ان يقول لها : «اهكذا انتهى كل شيء!» غير انه لم يستطع ذلك. كان يختنق، ويعلم تماما ان صوته سوف يخرج نحيلا، يشي بالبكاء .
انتظر تاكسيا، وهو يقول لنفسه: سوف اصلح كل شيء في التاكسي. ولكن التاكسيات كانته ترفض ان تتوقف. شعر انه ما زال هنالك خيط يربطهما . قالت :
ـ « توقف هناك» .
لم يكن يعلم معنى ذلك الا عندما راى الترولي قادما ورآها تندفع نحوه . قالت :
ـ « حاخد الترولي» .
وغادرته بسرعة دون ان تصافحه. كانت تهرب من ذلك الموقف الذي وضعها فيه .
فكر فيما بعد انه كان عليه ان يتبعها الى الترولي، ولكنه كان مشلولا تماما. كل ما كان يتذكره وهو واقف ان رذاذ المطر في شعرها له لون الفضة المسحوقة .
في ذلك الجو المطر ادرك فجاة ان كل شيء قد انتهى، انتهى فعلا ولن يعود. فكر ان ترك اجمل شيء في حياته ينفلت منه، فقد كل ما كان يجعل حياته ذات معنى . لم يبق امامه الان سوى ان ينحدر الى الهاوية . الى فقدان المعنى. سوف يصبح كل يوم جديد خطوة جديدة في طريق السقوط. ولكنه قد قال لنفسه ايضا:«لن اضعف امامها حتى لو كلفني ذلك حياتي». وبمعنى من المعاني فان ذلك قد كلفه حياته بالفعل .
ويسير في الشوارع الموحلة، يقول لنفسه: لن يلحظ احد انني ابكي، بسبب المطر، وهو يردد لنفسه بيت شعر قديم :
ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال
ويهذي وينادي باسمها :
«اجل يا ملكتي، يا مملكتي.. ولكنني عندما دخلت ذلك الفندق الكبير اعتقدت ان ما عانيته من عذاب ووحدة، والسير لساعات طويلة في البرد والوحل وانا اهذي باسمك، والحزن الثقيل الخانق، الحزن

الموت، كنت اعتقد انك سوف تتخلين عن لعبة الخصام، وتتخلين عن اللعبة الطفولية ـ لعبة الكرامة المجروحة ـ . وحين واجهني ذلك الحياد اللامبالي لـم اطق. لم اقبل ان اشرح لك ما كنت الصور انك تعرفينه .

« عزة !

« هذه الصرخات المتتالية في التليفون الم تكن كافية؟!»

★★★

علم فيما بعد ان عزة قد ذهبت لتزور الاب والام. حكت لهما مـــا حدث. ثار الاب ثورة عارمة وطلع بالنتائج اللازمة : هذا جيل فاســـد ، وكتعبير عن غضبه دفع الطفلة بقدمه. لم همس للام التي لم تكن تكف عن التساؤل والكلام. نهضا بعد ذلك وارتديا ملابسهما، ومن الغريب انهمـــا وجدا تاكسيا بمنتهى السهولة . عندما ترددت عزة اقسم الاب باغلـــظ الايمان انه سوف يضربها، وانه لن يكف حتى تعود الى عقلها .

جاءوا الى بيته فلم يجدوه. وعادوا بعد ساعات، فلم يكن هنالك ايضا.

وهو يمضي في تلك الشوارع، يستعيد وجهها وهي تقف مستعـدة للمغادرة ، يستعيد قطرات الماء الدقيقة عالقة بشعرها فيدرك مدى حبـــه لهـــا، وان فقدها كان اشبه بالانتحار. فتاتان مراهقتان التقيتا به. كانتـا تصخبان وتضحكان، وحين اقتربتا صمتتا فجاة واخذتا تنظران اليه. سمع احداهما تقول :

ـ « بيعيــط »

قالت الاخــرى :

ـ « دا مــن النطره »

اصرت الاخرى .

ـ «انا متاكدة انه بيعيط » .

وعندما التفت خلفه، رآهما واقفتين، متجاورتين كانهما في طابــور عسكري، تنظران اليه.

استدار واسرع مبتعــدا .

ـ ٢ ـ

عـــزة تتحـدث

اتت لي امي بالافطار وانا في السرير. قالت لي :

ـ «النهار ده عايزاك تخلصي الاكل كله» .

تقول ذلك بشبه اعتذار لانها تخاف ان اغضب. قلت لنفسي انهـــا تفعل ذلك لانها امي وتحبني. وحاولت فهم ذلك من خلال ابتعاث عاطفـــة حب نحو انسان ما يكون ابنا فلم استطع، فظلت عبارتي عن امي غيـــر مفهومة. قلت لنفسي، انها الهرمونات التي تؤدي الى .. ثم مللت. انتهيت مـــن الافطار وناديت اخي :

ـ « عادل، اعمل شاي الله يخليك» .

لقد اصبحنا اصدقاء. جاء صوته من الخارج :

ـ « بطلي بلاده يا حضرة البرنسيسة» .

قلـت :

ـ « شاي تقيل الله يخليك» .

سمعت امي تتساءل. ما زالت تخشى ان نتشاجر مع ان هذا لـــم يحدث منذ زمن طويل. قال عادل ردا على سؤال امي الذي لم اسمعـــه وان كنت اعلم كنهه :

ـ « الزمزيل عزة عايزاني اعمل لها شاي واكنس الاودة وانظف لهـــا جزمتها ... وايه كمان يا عزه ؟»

قلت :
« ولضحكني شوية » .
ومضى عادل يقول لامي :
ـ «ومايزاني اعمل لها عجين الفلاحة..»
ثم ضحكت امي، وانصرف عادل بعد الشاي. ناديت امي :
ـ « ماما، دقيقة ...»
كنت اريد ان اسالها عن العلاقة بين كوني ابنتها وبين كونها تحبني. وعندما وقفت امامي ورأيت شعرها الذي بدأ يدب فيه الشيب، وعينيها السوداوين المذعورتين دائما تبين لي استحالة ان القي عليها سؤالي. فأخذت ابحث عن شيء اقوله، ولما لم اجد، قلت :
ـ «كان بيقول لك ايه الواد المجرم دا؟»
قالت :
ـ « اهه بيعمل لك شاي يا حبيبتي» .
ناديـت :
ـ « عادل ! »
فقــال بضيق :
ـ «فيه ايه كمان؟»
قلت :
ـ «طز فيك » .
قــال :
ـ «دا من اصلك بس..»
كان اهم اكتشافاتي في الفترة ان كثيرا من المعارك والمشاجرات التي كنت اخوضها مع اهلي لا ضرورة لها. يتعسني قليلا ان نتيجة كهـــذه تعبت في الوصول اليها هي فكرة شائعة تقال دائما ولا تحتاج الى كل هذا المجهود المضني لمعرفتها. يكاد هذا يكون اهم شيء في حياتي الان. ان الكلام العادي والحكم الشائعة التي كانت تثير عندي الضحك في السابق اصبحت تفجاني كاكتشاف باهر . فاتعجب كيف ان النـاس يمتلكـون كل هـــذه الحكمة وانا وحدي فقط التي لا تستطيع الوصول الا الى نتائج محـدودة، وغير مؤكدة، وبعد مجاهدة كبيرة. دخل عادل يحمل الشاي ووضعه على الكومودينو بجواري ثم وقف محنيا راسه، شابكا اصابعه وقال :
ـ «اوامر تانية يا هانم؟»
كان وجهه جميلا بشكل اذهلني، وقلت له ذلك. اصغى لـي بخشوع

تـام ثم نادى امي :
ــ «ماما، البنت دي بتعاكسني» .
قلت :
ــ « بجد، حقيقي نفسي احب واحد زيك» .
قال :
ــ «طبعا اللي بتحب ما بتهمهاش المادة».
قلــت :
ــ « حااديلك فلوس» .
ــ «خمسين قرش؟»
ــ « جنيه » .
كان في وجهه تعبير غريب لم افهمه. لم يكن تعبيرا مريحا. فخفـت وصمت. خرج دون ان يقول شيئا، واخذت افكر : ما الذي حدث؟ مـــا الذي ازعجه؟ ها انا اقع في خطأ ما دون ان اعلم .. هـــل اعتقـــــد ..؟ اخذت اغضب، وناديته. جاء؟ قلت :
ــ « انت زعلت ليه ؟»
كانت دهشته حقيقية. قال :
ــ « انا زعلت ؟ »
لا يمكن فهم ما يحدث. اعطيته الجنيه، امسك يدي وقبلها وهـــو يقــول :
ــ «الف شكر يا كابتن» .
القبلة ظلت معلقة في يدي وانا اسير الى الحمام .
احيانا تصبح المسالة مستحيلة. لا افهم ما يحدث امامي. كانت امي تقف بالصالة. فقدرت ان علي ان اصنع لها شيئا فقبلتها وانا اقول :
ــ «صباح الخير يا ماما» .
هي الاخرى اندهلت فلم ترد . فلتنذهلوا كلكم حتى الموت. لقد اصبح ذلــك لا يطاق. حقيقة لا يطاق .
في الحمام قررت ان اذهب الى الكازينو القريب. لوبقيت فـــــي البيت لتشاجرت .

★ ★ ★

★ ★ ★

ما الذي يحدث ؟ ما بال الناس هكذا ؟ امني ماذا حدث لي ؟ احاول

احيانـا ان اقول شيئـا فيتبيـن لي ان الكلمـات التي سوف استعملها خاليـة مـن المعنى ، او بالاصح ان لها معاني غير محددة ، وانه مـن المستحيل ان تكوّن جملة مفهومة ـ كدت ان اقول مفيدة .. كيف تكون الجملة مفيدة .. اعتقـد ان هنالـك تعبيرا كهذا : جملة مفيدة ـ . انني اعجب عند هذا كيف انـه حتى الاطفال يستطيعـون ان يصيغوا افكارهم فـي عبارات واضحـة ودون ان يبذلوا اي مجهود، بينمـا انـا على هذه الحال . ولكن الغريب ان لا يوجد احـد يلاحظ ذلـك علي، بـل الاشـد ادهاشـا انهم احيانـا يمتدحونني على اعتبار انني ذكيـة ولبقة فـي الحديث . يجعلني مديحهم اشعـر بسعادة استعيدها كلمـا دخلت في دوامـة الكلمـات .

اقول لعادل انني اشعـر انني غبيـة واردد ذلـك لانه لا يجيب .

يقول فجاة بحدة :

ـ « بطلي يا عزة بقى » .

فارتبك واضحك واقول :

ـ « ابطل ايـه ؟»

وانا اعلم تمامـا ما يعنيه . فلا يجيب ، فاكرر بالحاح :

ـ « ابطل ايه ؟ انت مش فاهمني ؟»

فيقول :

ـ « بطلي تسوّل المديح » .

وينظـر الي ويقـول :

ـ « زعلتـي ؟»

فاقـول :

ـ « انا عايزة حد يمدحني بس .. »

ـ « بس ؟»

فاقول له انني اريد ان اشعر انني كالاخرين . يتاملنـي ويقول :

ـ « العفـو يا هانم ، انت ست الكل ».

اجاهد كثيرا لان اجد معنى لحادثة مـا . تنفتح امامي مئـات الاحتمالات التي لا يفضل احدهـا الاخـر فاضيع في متاهـة لا نهايـة لها، ثم فجاة يأتي انسان عادي للغايـة ويحل اللغز فاعجب الـى درجـة الجنون كيف لم يخطر لي ذلـك من قبل . احاول ان اشرح هذه الحالـة تلميحـا لبعض صديقاتي حتى ارى ان كـن هن ايضا يعانين مثلـي . تكون ردود فعلهن مثل رد فعل عادل : الضيق . بعضهـن يصغين وعندما اتوقف

منتظرة الاجابة اكتشف انهن لم يكن مصفيات اذ يبدأن حديثا لا علاقة له بما كنت اقوله .

دخلت الكازينو . اكتشفت انه مكان مناسب للعمل على غير ما كنت اتوقع ـ كل شيء يتضح لي فيما بعد انه على غير ما كنت اتوقع . جلست واخذت اراجع ما كتبته . في مثل هذه اللحظة يصيبني اليأس لبعض الوقت ، فاقرر ان اتوقف عن المضي في رسالة الماجستير . ثم اعدل عن ذلك بعد قليل وان كنت ما ازال اشعر بانني اخطأت اذ اتخذت جراهام جرين موضوعا لرسالتي . لقد قرأت رواياته كلها واعدت قراءتها . ان عالمه تعس وبائس . عالم بشع ، ولكنني لم استطع ان اجد لذلك اية علاقة بعقيدته الكاثوليكية . اي كاثوليكي هو هذا الذي لا يجد موضوعات للكتابة سوى عن العلاقة الجنسية بين رجل وزوجة اخيه ، او عن علاقة غريبة من الحب بين أخ واخته ، تسلم فيها الاخت ، رغم ذلك ، اخاها للموت وعن وعن .. موضوعات مستحيلة وتعسة ! اين الكاثوليكية من هذا كله ؟ .. لقد خطر لي انه من الممكن ان جراهام جرين يود ان يقول ان هؤلاء الناس بؤساء لانهم ليسوا كاثوليكيين . ذلك احتمال بعيد ، وخاصة انهم في نهاية الامر يذهبون الى القسيس ويعترفون ، فيقول لهم القسيس كلاما لا افهم دلالته . وتزداد المسألة تعقيدا عندما يتحول هؤلاء المذنبون الى كاثوليكيين وشيوعيين . واحاول مرة اخرى ان اضع ذلك في سياق اخر : هؤلاء البؤساء يفعلون ما يخطر لهم ، يمارسون حياتهم بحرية فيعيشون حياة تعسة . لو انهم تقيدوا بتعاليم الدين واوامر الكنيسة لانقذوا انفسهم . مرة اخرى هذا امر لا يمكن ان يكون موضوعا لكل هذه الروايات . والشيوعية، ما علاقتها بهذا كله ؟

الاستاذ المشرف لا يبدو ان ذلك يهمه في شيء . ان كل اهتمامه منصرف الى خطة البحث والمراجع والبيبليوجرافي وغير ذلك من الامور الهامة للغاية .

كنت على هذه الحالة عندما دخلت الكازينو في احد الايام (بالطبع هنالك اشياء كثيرة اخرى احذفها، وحذفها يجعل ما اقوله عن نفسي ليس دقيقا . ولكنني ان ذكرت كل الاشياء فمعنى ذلك انني سوف اتحدث دون انقطاع دون ان اقول شيئا مفيدا . كما انني احاول جاهدة الآن ان اتخلى عن تلك العادة التي اصبحت تلازمني وهي ان املأ حديثي بالجمل الاعتراضية) . كنت اقول انني دخلت الكازينو في ذلك اليوم فرأيت

خالد هنالك . كان يقرأ كتابا فقررت ان الراجع ولكنه في نفس تلك اللحظة رفع راسه والتقت عينانا . سرت نحوه وانا ابتسم ـ او هذا على الاقل ما كنت انويه ولا ادري ان كنت نجحت ام لا ـ . صافحته ،وعندما دعاني للجلوس لم استطع ان ارفض .

قال :

ـ « اهلا مرة »

ـ « اهلا »

سالني عن اخباري ، قلت :

ـ « كويسه »

ـ « كويسه قوي ؟ »

قال ، قلت :

ـ « يعني كويسه » .

ثم اخذت اشغل نفسي باغلاق شنطتي المغلقة فعلا . قال ان آخر لقاء بيننا كان منذ ثلاث سنين . فوافقته رغم انني لم اكن متأكدة من ذلك . سالني لماذا لم احاول ان اسال عنه مرة واحدة طيلة هذه السنين الثلاث ؟ خجلت من نفسي لانني قد نسيته تماما . لا اظن انه خطر في ذهني منذ زمن بعيد . قلت :

ـ «كنت فاكراك سافرت».

قال بدهشة :

ـ « سافرت ؟ ها اكون سافرت فين ؟»

قلت :

ـ « سافرت بلدك يعني »

كان يبدو قد شاخ كثيرا . كان ذلك فاجعا الى حد جعلني اشعر بالخجل من شبابي . امسكت بالكتاب الذي كان يقراه . كان طبعة رخيصة من ذات الغلاف الورقي وحجم كتب الجيب . عنوانه « الشبشب الاحمر » . على غلافه صورة فتاة مقتولة ، انفرج روب احمر عن ساقين جميلتين . تضع في احدى قدميها فردة شبشب قرمزي ، بينما قدمها الاخرى عارية وفردة الشبشب موضوعة باناقة قرب قدمها .

قال :

ـ « رواية بوليسية » .

قلت له انني خمنت ذلك ، ثم اضفت :

ـ « انت ما كنتش بتسال ليه ؟»

القيت هذا السؤال لمجرد ان اقول شيئا . قال انه فكر كثيرا ان

يتصل ولكنه كـان خجلا . قلت :

ـ « خجلان ؟ »

هز راسه، ثم اضاف انه لم يمر يوم واحد ون ان يفكـر في . ملأني ذلـك بالغثيان . لاحظت ان ياقـة قميصه متسخة قليلا . قلت لنفسي : « غادريه باسرع ما يمكـن ، غادريه ! » ، ولكنني ظللت جالسة وعاجزة عـن اتخاذ اي قرار . كـان وجهه حزينا ، ففكرت انني قد اهنته رغم انني لم اقل شيئا . قلت :

ـ « بتعمل ايه دلوقتي ؟»

قال وكان امله خاب :

ـ « في شغلي زي مـا انا .»

واخذ ينظر الى غلاف الرواية التي كـان يقرأها . قلت وانا اشعـر انني ازداد تورطـا :

ـ « لا ، بسأل عـن نشاطك الثاني »

قال بهدوء :

ـ « بقرا روايات بوليسية وباتفرج على السينما» .

قلت قبل ان استطيع منع نفسي :

ـ « افلام عربيـة ؟» .

لا ادري ما الذي جعلني انسحب من لساني . تأملني قليلا . كـــان وجهي يلتهب خجلا ، قال:

ـ « احيانا افلام عربي »

ثم اخذ ينظر بعيدا . فكرت ان اغادره ولكـن الجرسون جاء وحسم الامر . قـال :

ـ « بتشربي ايـه ؟»

قلـت :

ـ قهوة . »

انتهى الامر وسوف يطول هذا الى مـا لا نهايـة . عندما ابتعـد الجرسون قال لي :

ـ « منحل ؟ »

اعتقدت انه يتحدث عن الجرسون . وخطـر لي انـه قد يكـــون اصابـه الجنون . قال :

ـ « الروايات البوليسية والافلام العربي ... »

ادركت ما يعنيه . وفكرت : متى ينتهي هذا الكابوس ؟ وساد الصمت

بيننا . حاولت ان اقول شيئا ، ولكن كل اعتذار سوف يكون اهانة اخرى . انني اعرف نفسي جيدا في مثل هذه المواقف . قلت :

ــ « الكازينو ده لطيف » .

قال :

ــ « الجو حار . »

وابتسم بأسى . ولكن الامور سارت بعد ذلك في سبيل لم اتوقعه ابدا . قال لي :

ــ « سمعت انك بتعملي رسالة عن جراهام جرين » .

قلت :

ــ « مين قال لك ؟ »

ــ « بسأل دايما عن اخبارك » .

ثم جعلني احكي له كل شيء عن الرسالة . كان يصغي باهتمام حقيقي . لم يحدث ان احدا ابدى مثل هذا الاهتمام بهذه الرسالة . وعندما تكلم اكتشفت انه قد قرأ كل روايات جراهام جرين . ولكن المفاجأة الكبرى انه امتدح ما وصلت اليه من نتائج . اية نتائج ؟ قال:

ــ « انتي لمستي جوهر فنه »

ــ « ازاي ؟»

ــ « يعني بؤس العالم بلا آله »

اخذ عقلي يعمل بسرعة غريبة . اصبح لكل شيء معنى الآن . قلت له ذلك . قال :

ــ « انتي غريبه قوي . ما انتي وصلت للنتيجة دي قبل ما اقول اي حاجه » .

كنت بحاجة الى هذه العبارة فقط حتى ترتبط كل الاشياء المبعثرة في نظرة واحدة . قلت :

ــ « يفضل (امريكي هادىء) ... ايه علاقة الشيوعية بالكاثوليكية. استنى ، استنى .. »

قال :

ــ « يمكن رواية (الكوميديون) توضح المسالة دي اكتر » . وهذا امر لم اكن اتوقعه : ان يكون لجراهام جرين رواية اخرى لم اقراها بعد . قال لي انها آخر رواياته على الاغلب .

ثم فجاة خطر لي : والروايات البوليسية والافلام العربية ؟ هل كان يمزح ؟

لم اكن اعلم انني بتساؤلي هذا كنت قد بدات اول خطوة لاستعادة علاقتي به . كل ما كنت احسه في تلك اللحظة هو الاشمئزاز من الوضع الذي تردى فيه ـ القصص البوليسية والافلام التافهة ـ ومن ياقة قميصه المتسخة . لم اكن املك الثقة الكافية بالنفس لان ارثي له. كان مجرد اشمئزاز .

تحدثنا عن جراهام جرين طويلا وقد جعلني ذلك اشعر انني استطيع ان اغادره على التو واكتب رسالتي كاملة في نفس اليوم . وعندما توقف قليلا ليطلب من الجرسون فنجانين قهوة اخريين وليشعل سيجارة قلت له :

ـ « عايزه اقول لك حاجه .»

افزعني للحظة ان يكون قد فهم انني انوي ان اعيد علاقتي به . ولكنه كان ينصت فحسب . لم اصبح ما اريد قوله يستعصي على الكلمات. كان ينظر الي ولا بد ان اقول شيئا . قلت :

ـ « يعني ، ما بقتش فاهمه حاجه » .

ـ « مش فاهم » .

قلت :

ـ « ما انا عارفه ».

ضحك ولكنه ما زال يصغي . ثم دفعني الحرج والياس ان اقول اي شيء . لم اكن ادري ماذا اقول . وخلال ذلك كنت افكر : لقد جاء دوره ليشعر بالغثيان مني . سمعته يحدث نفسه ، دون صوت ، انهذه الفتاة التي كنت احبها قد اصبحت مملة . جعلني ذلك اشمئز من نفسي ، فبدا كل شيء واضحا لي . اخذت اشرح له دون ان اهتم بعد بما سوف يظنه بي . شرحت له ضياع المعاني من الكلمات ، قلت له ان تكوين جملة مفهومة اصبح مشكلة عويصة عندي ، وانني لم اعد افهم ما يحدث . الاخرون يفهمون ذلك باقل مجهود ، بينما انا عاجزة تماما عن تفسير ابسط الاشياء . افكر في مئات التفسيرات ولكن التفسير الصحيح يعرفه غيري. دائما يحدث هذا . في كل مرة .

ـ « فاهم ؟ »

قلت له. قال :

ـ « بالطبع » .

وعلى وجهه تعبير غريب، وانا اقول لنفسي يجب ان اتوقف، يجب ان اتوقف ولكن الكلام يثقل علي ، يخنقني فلا استطيع سوى المضي

في الحديــث .

قلت : يخيل الي ان كل مــا يحدث قد اتفق عليه الناس مقدمــا. كانهم يجتمعون في الليل ، عندمــا أكون نائمة ، ويتفقون على ما ســوف يفعلونه ، يناقشون كل التفاصيل . فاراهم في اليوم التالي يعرفون كل شيء ، يعرفــون السر ولكنهم قــد اتفقــوا أن يخفوه عني .

كانت عيناه تضحكــان . خفت لانني قلت لــه مــا قلت . قلت سوف يعتقــد انني جننت . تعلقت عيناي بشفتيه منتظرة أن يصــــدر قــــرارا يحــدد بــه مصيري .

مرت فترة صمت ففتحت شنطتي وتظاهرت بانني ابحث عن شــيء فيهــا . قدم لــي سيجارة واشعلها . طعمها كان للديذا . وانا اقــول لنفسي : لماذا لا يقول شيئًا ؟ لماذا يصمت ؟ . قلت :

ـ « دوشتــك »

بقصد ان استحثه على الكلام .

قــال :

ـ « لما كنت انسان كويس ، لما كــان ممكــن اعمل حاجه ، كنــت بشعــر بنفس شعورك » .

كان ذلك آخــر ما كنت انتظره . قلت :

ـ « مش فاهمه » .

قال انه كان مثلي ، احس مثلمــا احس انا الآن ان العالم يجب ان يعــاد اكتشافه ـ الكلمــات والناس والاحداث والافكار ـ ، وكان يشعــر مثلمــا اشعــر الآن ان العالم قــد اخذ يعاقبني على ذلــك ـ قال كلمــة « يعاقبني » بالفعل ـ بأن اصبح مصمتا ، مستعصيا على الفهم . كانــت الخطوة الثانيــة التي كان علي ان اقــوم بهــا هو ان اصيــغ تلــك الرؤية والتجاوزها . ولكني لم افعل .

قلت :

ـ « ليه ؟ »

قال ان عبثية العالم قد اعجبته . احبها لانها جعلت العالم يبــــدو مضحكا ولم يستطع ان يتخلى عنهــا .

قلت :

ـ « ليه ؟ مش فاهمه يعني ؟

قال انه شعــر بان الزمن يسرقه ـ يسرقه ؟ ما معنى ذلك ؟ـ وانــه عندمــا يعاني الانسان من مثل هذا الاحساس فانه يكــون قد رفع رايــة

الاستسلام . قلت :
ـ « بس انا مش خايفه من الموت » .
قال انت نجوت ، لانك بالفعل قد اخذت لتجاوزين نفسك .
قلت :
ـ « وانت ؟ »
ـ « خلاص » .
قلت :
ـ « لازم تحاول » .
احسست انني مفتعلة . فاضفت :
ـ « ما دمت عارف ده فما فيش مشكلة » .
قال :
ـ « المسالة مش بالبساطه دي » .
كنت اريد ان ابكي . قلت له بحدة ، محاولة ان امنع نفسي من البكاء، وانا احرضه ضد نفسي :
ـ « انا بكدب » .
ونظر الي منتظرا مني ان اكمل حديثي فقلت انني لا استطيع رواية ما يحدث لي . احاول ان احكي ما حدث فاجده بلا معنى ، فاضيف واحذف اشياء كثيرة .
قال :
ـ « بتهيأ لي ان الفن كده » .
ـ « الفن ؟ »
قال انه محاولة اعطاء المعنى والنظام لعالم معقد اشد التعقيد وخال من الدلالات البسيطة .
قلت :
ـ « عادل بيقول لي باستمرار اني بتسول المديح . وده حقيقة صحيح . بفرح قوي لما حد يمدحني » .
قال :
ـ « عادل مش فاهم حاجه » .
نظرت اليه ووجهي يقول له : « كيف ؟ » ولكنه لم يرد على سؤالي. تجهم وجهه ، تجهم جدا حتى حسبته سوف يبكي ، ثم قال لي :
ـ « ونصيحتي ليكي يا عزة انك تبعدي عني » .
ـ « مش فاهمه ».

كان ذلك يشبه ما يحدث على المسرح. لـم يكن حزنه ولا مفاجـاتي مقنعتيـن . قال :

ـ « انا مهزوم وحا اعديك » .

كما يحدث في المسرح . معنى عبارته هذه انه يعاني ، وهكذا نكون قد فهمنـا مـا يدور امامنا . ومثلمـا يحدث على المسرح ، قلت :

ـ « مش كنت بتقول انك لسـه بتحبني ؟»

قال :

ـ « بتهيأ لـي اني ما عدتش قادر على الحب » .

لم يعـد هذا يشبه ما يحدث على المسرح ، لانه كان عليه ان يقول:

ـ « لاني بحبـك بقول كده » .

اخذت انظر اليـه واقول لنفسي : « انـه يعاني » ولم يكـن ذلـك يعني اي شـيء بالنسبة لـي .

★ ★ ★

★ ★ ★

ثم تتالت الاحداث وانتهت بنا الى السرير . تم ذلـك وكأنه يحدث مع فتاة اخرى وانا مجرد متفرجة .

لقد غادرنـا الكازينو وسرنـا مشيا على الاقدام الى بيته . لم يكن ذلك بنـاء على دعوة وجهها الي بل سرنا في الطريق الى حيث يسكـن وكـأن هذا هـو الشيء المنطقي الوحيـد الذي يجب علينـا ان نفعله . دخلنـا الشقـة فاشعل خالد نور الصالة ، وفكرت : « ها هو قد اصلح مفتـاح النور» واحسسـت بالراحـة لذلك . بدت الشقـة غريبة وكـان هـذا تحديا لـي .

دخلنا المطبخ سويا. فتح خالد غطاء الحلة. البسلة واللحمة. فانفتح غطاء الماضي . فجأة وجدتني اقوم بالحركات المألوفة : اعيـد غسـل الاطباق والملاعق، اقرر انه قـد آن الاوان لاستبدال خرطوم البوتاجازالذي يتسرب منه الغاز عند فتح الانبوبة ، اضيف قليـلا منْ الماء على الارز الذي بدأ يصدر اصوات الاحتراق . ثم صنـع السلطـة . وكان الغداء جاهـزا وكأن فتاة اخرى هي التي اعدته ، لانني طيلة الوقت كنت افكـر فـي اشيـاء اخـرى .

قلت له ونحـن نأكـل :

ـ « ام عبده ما غسلتش الاطباق كويس زي كل مرة » .

فقال انه قال لها ذلك مئات المرات بلا فائدة . وواصلنا الاكل . تذكرت اخي ، فمرت في ذهني عبارة : « لم اره منذ ثلاث سنين » . عندما ذهب الى الحمام ليغسل يديه قمت بالخطوة التالية بشكل ميكانيكي، وضعت الكنكة على البوتاجاز واضفت البن اليها. برزت امامي صورة امي تدخل علي بصينية الافطار ، فقررت ان اجعلها تتناول معي الافطار من الآن فصاعداً . شيء لطيف ان يشاركنا الطعام احد نحبه .

حملت القهوة الى الصالون وكان جالسا . قلت :

ـ « ولع لي سيجارة » .

اشعل سيجارة ومدهالي بعينين ضاحكتين . ثم اخذنا نتحدث بكسل ما بعد الغداء . قال :

ـ « ازاي ماما ؟ »

قلت :

ـ « على ما يرام » .

وفجاة تذكرت عادل وامي وحجرتي وصورة ابي الكبيرة ، ونظرت حولي فبدا لي المكان غريبا ، فقررت ان انصرف بعد ان انهي سيجارتي. قلت ، دون ارتباط واضح بما كنت افكر فيه :

ـ « بيجي لي كوابيس كتيرة بالليل وانا نايمه » .

قال :

ـ « انا بتيجي لي بالليل والنهار » .

توقعت ان يقول ذلك . نظرت اليه وقلت لنفسي : « انه حزين » ومددت يدي ووضعتها في شعره وكان ذلك هو الشيء الوحيد المنطقي الذي يمكنني ان ارد به على عبارته . لم افهم دلالة تلك النظرة المندهشة ووعيت عبارته التالية كانها مجموعة من الالفاظ متجاورة، لا تعني شيئا . قال شيئا مثل ان علي ان انجو وشيئا عن كوني ادمر نفسي . ولكنه استسلم لعناقي وقال :

ـ « تعبتر »

واخذ يردد هذه الكلمة وقد اثارني ذلك الى ابعد حد . ثم سرنا الى السرير وانا مستندة على كتفه وكانت عيناي غائمتين ، لا استطيع ان ارى بهما في وضوح . لم لا اعرف كيف حدث ذلك .

كان اشبه بالصحو من النوم . اخذت اتساءل : ما الذي يحدث بالضبط ، وكيف حدث ؟ كان امرا مضحكا للغاية ان يتخلى خالد عن

الوقار الفاجع وعن جلاله المأساوي ويصبح هكذا منطلقا في التقبيل والعض واللهاث . تفرجت على ذلك دون ان افهم دلالته بشكل محدد، ورغبت في الضحك ولكنني لم استطع ان اضحك . ثم اخذت استجيب واندمج ، ولكنني رأيت وجهه شديد الجدية ، وفي لحظة خيل الي انه سوف يبكي ، ورايت تجعدات ضئيلة حول عينيه ، وعينيه غاضبتين ، فعاودتني الدهشة لما يحدث . ثم نسيت كل شيء واخذت افكر انني وعدت امي ان اعود الى البيت في الرابعة لنذهب لزيارة خالتي في المستشفى. سوف تتألم لو تاخرت عليها ولكنها سوف تتظاهر بان ذلك لا اهمية له . احببت ان اعرف الوقت ثم تنبهت ان خالد بجواري وانه يجب علي الا افكر في امور كهذه . حاولت ان ارى الساعة التي في يده ، واستطعت بعد جهد ان اتبين انها الرابعة الا ربعا ـ قد تكون الخامسة الا ربعا ـ وعلى اية حال فالوقت قد فات . عند ذاك اخذت ارغب ان ينتهي كل شيء بسرعة لان ذلك اصبح مملا جدا . ولكنه من الواضح انه ينوي ان يطيل ذلك الى ما لا نهاية . وحين اقول: «الى ما لا نهاية » فانني اصور مشاعري في تلك اللحظة بدقة . ثم فجأة خطر لي هذا التساؤل : ما علاقة الكلام الذي كان يقوله بهذا الذي يحدث ؟ واحاول واحاول ان افهم هذه العلاقة فلا استطيع . كل ما كان يبرز امامي هو وجهه الحزين ، الوقور وهو يصغي لما اقول ومقارنة ذلك بوجهه الذي يقترب بين حين وآخر ويقبلني ، او يعض كتفي ،ثم يتوقف وينظر الي بعينين حالمتين ويتمتم : « حبيبتي » ثم ينقض مرة اخرى ويواصل قبله التي لا نهاية لها .

اصبحت اختنق بالملل ولكن ذلك لا ينتهي ابدا .

وحين انتهى غادر السرير ورايت جسده عاريا اندهشت . كم يبدو الانسان غبيا وهو عار . وعندما غاب في الحمام شعرت بالفة حميمة مع الملايات ، وارتفعت الرغبة في داخلي . كانت عنيفة بشكل لا يطاق . اشتقت الى جسد غير محدد الملامح ان يحتويني . وعندما انفتح باب الحمام مات كل شيء في داخلي ، واحسست بجسدي كمجرد ثقل على السرير . كانت مواجهة جسده العاري وهو يدخل الحجرة عبء ثقيل وددت لو تفاديته .

★ ★ ★

في الشارع سرت باحساس الفتاة التي فقدت اعز ما تملك . خدعها الرجل بكلامه المعسول وعندما انتهى منها القاها في الشارع . كان ذلك في فيلم رايته منذ زمن بعيد ونسيت اسمه . الفتاة تدب بخطوات

متخاذلة ، متألمة ، مع كل خطوة يتقلص وجهها بالالم كأن جرحا ينفتح. شعرها منثور على وجهها بخصلات جميلة دون نظام ، ودموعها تتساقط ولا تحاول ان تخفيها . تنتقل الكاميرا الى وجوه المارة الذين نراهم وهم يدققون النظر في الفراغ ، ولكن المتفرج يعلم انهم ينظرون الى الفتاة. تتركز الكاميرا على وجه شاب جميل ، يتقدم بوجه متسائل الى الفتاة ويعرض ان يساعدها . تزجره بعنف وتأمره أن يبتعد ولكنه لا يبتعد . الاغلب انه الشاب الذي احبها وتزوجها فيما بعد . لا اذكر ماذا كانت نهاية الفلم ولكن خيالي رأى الشاب يغفر لها ويحبها ، ثم يركع امامها طالبا منها ان تتزوجه . ولكن الرجل الآخر يظهر في حياتها فجاة فتدع كل شيء وترتمي تحت قدميه . يستمتع بها الرجل اياما معدودة ويلقي بها الى الشارع مرة اخرى وللمرة الثانية والاخيرة يغفر لها زوجها الجميل ، وفي نفس اللحظة يكتشف الرجل الفظ الاخر انه يحبها ، فيرتمي عند قدميها ولكنها ترفضه .: كم انا مملة ، فلا توقف ، وتوقفت بالفعل وانا احاول ان اخفي الابتسامة التي ارتسمت على وجهي .

ويتسلسل الفيلم في ذهني مرة اخرى ، أرقبه واجعله مادة للسخرية . ثم انتبه الى حقيقة انني ألفت فلما في دقائق ودون اكتراث ، وسوف يكون لو تم فيلما ناجحا . وفكرت انني اذكى من الاخريات .

وفي حقيقة الامر لم اكن حزينة ولا مبتئسة . كنت فرحة وقد جعلني ذلك اشعر بانني خفيفة على الارض . وفكرت هكذا : ها هي فتاة متميزة ، اذكى من الاخريات (بعد تأمل اضفت : والاخرين) ولكنها لا تعلم ذلك ، بل هي مقتنعة انها عكس ذلك تماما . ورسمت على وجهي صورة الفتاة العبقرية التي لا تعلم ذلك ـ حاولت ان اجعله وجها طفليا ، مهموما بمشاكل عملية ، عادية ، ولا يكاد يشعر بعزة الاخرى التي ترى هذا الوجه وتقول لشاهد كلي المعرفة والحكمة ، محايد ، صارم : انها لا تعلم انها عبقرية . فيوافق الشاهد بعد ان يتردد قليلا في صياغة عبارات الموافقة .

ثم قلت لنفسي فلا توقف من هذا . فتوقفت وانا اشعر بالخجل من عيون المارة ، ولكن فرحي غالبني ، واشتعل معه خيالي وعدت مرة اخرى اسائل نفسي : ماذا كنت اقول ؟

★ ★ ★

امي نامت ، عادل في حجرته يذاكر ، فاخذت اغني واصخب، ثم اخذت في القاء خطبة الحجاج بيـن يوسف الثقفي ، ثم ناديت عادل باعلى صوت ممكـن :

ــ « عادل ، اني لارى الدمـاء بيـن العمائم واللحى .. »

وعندما التفت كـان عادل يقف بباب الحجرة ، ممسكـا بيديه اطـار الباب ، وراسه مندفع قليـلا الى الامام . قال :

ــ « بقول لك ايه يا كابتن ! »

قلت وكانني فوجئت :

ــ « افندم يا سعادة البيه ؟ »

قـال :

ــ « يعني لو سيادتك تتهدي شويه خلينـا نذاكـر الكلمتيـن اللـي اللـي حاننجح بيهم » .

ــ « سيادتك جالك وجع في بطنك . بقول لـك ايه يا استاذ عادل: عامل ايـه مع الجو بتاعك ؟»

تنهـد وقـال :

ــ « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

تظاهرت بالانزعاج وقلت :

ــ « كفى الشر يا اخويا .. مالك ؟ »

ــ « ما انا قلت لك كل حاجه بالتفاصيل الكاملة .. »

قلت :

ــ « تعرف يا واد يا عادل انك عبيط » .

ــ « عارف طبعـا » .

ــ « وانك للديد وطعم » .

ــ « عـارف » .

كان هـو ايضا يشعـر بالملل من المذاكرة ، فاشرت اليه بيدي وقلت:

ــ « اقترب مني يا ولد » .

. سار خطوتين داخل الحجرة وتوقف . ووقف منتظرا على هيئـة استعـداد عسكري . قلت :

ــ « ايه رايك تعزمني نقعـد في حته ؟»

ارتسم انزعاج مخيف على وجهه فادركت ان الفكرة قد راقت له. قلـت :

ــ « ضيّعت الجنيه على المزمزيل فواكه ؟»

ضحك ضحكـة كبيرة ، فقلت :

ـ « جتك خيبه ، هـوه فيه حد يحب واحده اسمها عواطف ؟»
ثم اخذت اسرّح شعري استعدادا للخروج فقلت :
ـ « تعرف اني ساعات انسى اسمها وبناديها انفعالات؟»
قـال :
ـ « حا اقول لها والله » .
قلت :
ـ « طز فيك وفيها»
في الشارع اكتشفنا ان جميع الاماكن غير مناسبة. قال : جروبي او لاباس، ولكنهما سيغلقان بعد العاشرة بقليل. قلت : فلنذهب الى زينة، قال انه لا يحب المكان، اتفقت معه بعد ان استعدت صورة المكان في خيالي . قلت :
ـ « بارسيسل »
فقال هنالك ضجيج ولا نستطيع ان نتبادل كلمة . الفنادق الكبرى اصبحت مستحيلة بسبب ارتفاع الحد الادنى للطلبات . ثم خطر لي خاطر فجذبت يده وقلت :
ـ « تعالى معايا » .
ـ « فيـن ؟ »
ـ « من غير اسئلة » .
ـ « بس قولي حاتودينا على فين ! »
قلت :
ـ « ما تخافش ، مش حاغتصبك » .
اشتدت قبضته على يدي ولم يقل شيئا . قلت لنفسي : « من المؤكد انني جننت » .
سرنا قليلا في شارع قصر النيل ثم انحرفنا الى الشارع المؤدي الى شارع صبري ابو علم ، بعد لاباس ، قال :
ـ « حانروح فين من هنا ؟»
ـ « امشي بس » .
ثم ادرك فجاة الى ايـن نذهب ، فقال :
ـ « يا بنت المجنونة »
قلت له وانا ادفعه امامي :
ـ « بطّل لؤم »
ـ « بجد ياعزة الوقت متاخر »
ولكنه سـار .

واخذت تنظر بتساؤل ، ثم قالت :

فتحت لنا الباب بهية . فوجئت . كانت ترتدي قميص النوم

ـ « اهلا يا عزة يا بنتي ، اهلا يا ابني » .

افسحت لنا الطريق :

ـ « تفضلوا » .

اعتذرت لها عن مجيئنا في هذه الساعة المتاخرة وكنت عازمة ان اخترع اكذوبة تبرر المجيء ، ولكن الام قاطعتني قائلة :

ـ « يا خبر يابنتي، ده انتو نورتو.. »

كانت عواطف تقف في نهاية الصالة ، الضحك متجمد في وجهها، وعيناها مفتوحان بدهشة . كانت جميلة ، بريئة كطفلة في ملابسها البيتية . قالت بصوتها الصغير الخافت وهي تقترب :

ـ « عزة ياحلوه »

وعانقتني .

ـ « عزة يا حبيبتي ، كنت بتخنق »

واخذت العب . قلت :

ـ « اخويا عادل . وحتة القشطة دي عواطف»

قالت :

ـ « اهلا عادل »

قلت :

ـ « بيقول بقى له كتير ما شافكيش »

قالت وهي تضحك :

ـ « النهار ده كنا سوا » .

ثم اضافت :

ـ « اولا ، نتعشى »

قال عادل :

ـ « احنا تعشينا »

قالت عواطف :

ـ« كداب »

ونظرت الي

ـ « مش كده؟»

قلت :

ـ « ايوه كداب » .

وبعد ان تعشينا ودخلت تانت بهية لتنام جلسنا نحن الثلاثة.

ربمـا كانت هذه هي المرة الاولـى التي اشعر فيهـا بالغيرة ، او على الاقل اشعـر بهـا على هذا النحـو . كـان ذلـك بسبب انني اخذت احس في لحظات انني اقحم نفسي على اثنيـن يحبان بعضهما . كـان التفاهـم بينهمـا تاما الى حد شعـرت معه انهمـا يجاملانني . حاولـت ان اتماسك ونجحت في اول الامر ثم اصبح ذلـك غير ممكن . فقلت لهما انني آسف لانني اثقل عليهمـا بوجودي. ومضيت اقـول كلامـا كثيرا لم اكـن اعيه تمامـا . لاحظت ان وجه عواطف قد شحب ، فسجلت ذلـك فـي ذاكرتي دون ان يحمل لي ايـة دلالة . اعتقـد انني قلت ان العالم كلـه ضدي بما فيه همـا او شيئـا كهذا . فتحت عواطف فمها واغلقته ، ثـم دارت بلسانهـا على استدارة فمها ، وعيناهـا كبيرتان وبراقتان كأنهـا تشاهـد احداثا مرعبة ومدهشة . قالت فجأة :

ـ « انتي مجنونة ، بجد انتي مجنونة » .

قال عادل بهدوء شديد ، هدوء الذي يتصلب ويتجلد في الوقت ذاته:

ـ « انتي مش طبيعيـة النهار ده يا عزه . لا ، حقيقي يا عزة ، مـن العصر وانا ملاحظ ده ».

وسادت فترة صمت . أخرج عادل سيجارة واشعلها وقدمها لي ، ثم قال لعواطف بتلـك الرقة الحانية ، المتواطئة ، الجادة التي تعبر عـن تفاهم صميمي يتجاوز الكلمـات التي تقال ، والموقف ، والمكان وكل شيء يحيط بهمـا :

ـ « اولع لك سيجارة » .

هزت راسهـا ، كـان ذلـك كافيـا لان يفهم تاكيـد تضامنها معه ضدي ، وعلوها فوق الموقف الذي خلقته انا. احدث ذلـك لسعـات خفيفـة ، متكررة في قلبي واحسست بأنني الطفلة التي افسدهـا الدلع فكسرت الفازة الثمينة .

اخذت دموع عواطف تنساب فمسحتها بيدها . وكان ذلـك فوق ما اطيق . حاولت ان اقول انني كنت امزح ، ولكن ذلـك سوف يكـون اهانة لذكائهما . تقدمت من عواطف ووضعت يدي على راسها ونظرت فـي عينيهـا وقلت :

ـ « انا آسفة ، حقيقي انا آسفه . انا عارفه اني النهار ده مش طبيعيـة » .

ثم التفت الى عادل وقلت :

« عادل ، بشعـر كاني منوّمه . خلاص بقى ، ما انا قلـت انـي آسفـه » .

توقفت عواطف عـن البكاء وقالت :

ـ انتي مجنونة ، انتي مجنونه ..»
ضحكت وقلت لهـا :
ـ « ما انا تقريبا قلت كده عن نفسـي ..»
قالت :
ـ « اذا كنا بنعمل بالسـياسة وانتي ما تعمليش فده راجع ليكي انتي»
لم افهم ، ولم اجـد مـا اقوله . قال عادل بهدوء :
ـ « انتي ما كنتيش عارفه قلتي ايه ؟»
واخذت انظر اليه . قال :
ـ « قلتي انا واخدين موقف منك علشان قطعت كل صلة بالسـياسة »
قلـت :
ـ « ما كنتش عارفة باقول ايه » .
ثم صمتنا .. كان عادل ينظـر الي فتفاديت عينيه واخذت انظر الى يدي . وعندما رفعت وجهي اليهمـا كان عادل يحيـط كتفـي عـواطف بذراعه وهي تتكىء براسها على كتفه . كانا جميلين الى حد يستحيل معه الا اشعـر بانني فائضة عـن الحاجة . ربمـا كـان ذلـك هـو الذي جعلني امتلـك قدرا مـن الحياد واتماسك . احسست في تلـك اللحظة بانني شاهدة على مجد الانسـان في اروع تجلياته ، والذي لن يعلو فوقه ابدا، تلـك القمة الفاصلة بيـن نهايـة الصعود وقبل نهايـة الانحـدار . لن يكـون بعدهـا الا الهبوط المتوالي : الزواج والملل وروتين الحياة .
ولهذا كان جمالهمـا فاجعا . اي كشـف باهـر انبلج امامي ساعتها، اي فرح واي حزن : قلت وانـا اختنق بحس الفاجعة ، من هذا الجـلال تبدأ المأساة ، وصرخـة في داخلي محتبسة : احذروا !
كان عادل يجلس مستقيما ، هادئا ، ينضح رجولة واعتدادا . بذلك الهدوء الحزيـن الذي يحمل توازنـا دقيقـا بين انفعالات عنيفة : الحب والغضب ، حزنه من اجل اخته وحبه الراسخ ، هموم الحياة والمستقبل وفرح الالتصاق بامراة يحبها ـ يجلس شامخـا يتحدى بـلدرة المأساة . وعندمـا قلت لنفسي : انـه اخي ! اخذت افكـر في الكيفية التي تسمح لي بهـا المواصفات الاجتماعية ان اكـن والتصق بتلك الرجولة الصلبـة الحانية . وانقب وابحث مجهدة فلا احوز الا على حق التأمل من مسافـة لا يسمح بعدهـا بالاقتراب ، فادرك ان ذلـك الجنون ـ الشوق لن ينطفىء ابـدا .
وكانت عواطف قطعة لدنة ، بلون العسل ، فاكهة ناضجة استخلصت

من الارض والهواء والشمس كل عصاراتها ، ولن تستطيع مهما حاولت ان تقاوم ، الا ان تشتاق الى قضمة تندفع بعدها عصارات حلاوتها لتسرب الى العروق ، توقف الزمن ، تعيد الشباب والذكريات والماضي كله . ومن المستحيل وانت ترى خط الجسد الصاعد من فخذها ، المستدير على الردف ، المنحني عند الخصر ، الصاعد الى الكتف ، والعنق المائل ، الشامخ ، المستند على كتف من تحب .. من المستحيل الا تذكر سبعة آلاف عام تصب في هذا الجسد كل جمال الانثى وتاريخها السري العريق. في جسدها المائل نحو عادل ، المستسلم في دلال ذلك العبث الفاتن الذي يغلف حيوية متفجرة ، يحيط بخصوبة ولادة معطاءة وخبرة تتخطى مرحلة السن والظروف ، واتذكر تمثال الملكة تي وهي تجلس بجوار زوجها ، وقد مالت بردفيها نحوه في اغواء لعوب ، مدربه ، ملامسة جانبه الايسر ، وتعلم ان هذا الجسد الشامخ ، الفاجر يخفي صلابة ابنة الشعب التي شقت طريقها نحو القمة بمجهود خارق ، ويخفي اعظم مبادىء الانسانية التي لقنتها لابنها اخناتون ، ومن بعد ذلك اغوته وجعلته يتزوجها ويهجر نفرتيتي . واصرخ بهما دون صوت « وانا ايضا، وانا ايضا » وتتكاثر الكلمات في داخلي وتتوه الفكرة .

كان وجه عواطف قد التهب قليلا بالبكاء ، فاكتسب شفافية ونعومة واناقة قد اعدت خصيصا لتخلق اسطورة في مجرى التاريخ ، وعيناها البنفسجيتان ، السوداوان الساطعتان ببقايا دمع تبثان انوار الفجر وبريق نجمة الصبح .. كانتا متاملتين ، تصغيان الى حديث حب ينتقل اليها عبر جسد عادل ، وكأن ذلك الحديث يضحكها قليلا ويفرحها كثيرا .

ثم هبطت على السكينة والرضى . كان ذلك يشبه هدهدة ام . وانفسحت امامي ارض خضراء على مدى النظر ، وصحاري ، وامواج بحور ، وتحولت الصرخة الى كلمات ملأتني بالاعتداد :« وانا ايضا وارثة ذلك التاريخ العريق والارض .. » وكان ذلك احساسا بالانتماء، واصبحت انوثة مطلقة .

وعندما وقفت ، ورفعا نحوي وجهيهما ، خشية وتساؤلا كنت قد استعدت هويتي . اقتربت منهما وقبلت عادل على جبينه مدركة بوضوح كيف اكون اختا . ثم امسكت بوجه عواطف بين يدي الاثنتين واخذت اقبلها في كل مكان في وجهها . وانبثقت الدموع مرة اخرى من عينيها واحسست بطعمهما في فمي . وعندما عاودت الجلوس ضحكت عواطف وقالت :

ـ « انتي مجنونة ..»
كان عادل يبتسم لي . ومضت عواطف :
ـ « وانتي قاعدة بتبصي لنا كنتي حلوه ، حلوه .. مش كده يا عادل ..؟ بس كنت خايفه منك ..»
واتخذ ذلك سياقا في داخلي .
كان يشبه ان ارى نفسي من خارجي .

★ ★ ★

صحوت في التاسعة صباحا نشطة ، متلهفة للحياة . كنت اشعر بفرح حاولت ان اتذكر سببه ، ولكنني توقفت . حين اتذكر فسوف يندرج كل ما حدث في سياق العالم المضجر ، سوف يتداخل الفرح بالالم باحداث اخرى لا تثير اي انفعال فيتبدد كل احساس بالسعادة. ارتديت ملابسي بسرعة . « ولمَ الاستعجال ؟ » قلت لنفسي . كان عادل ما يزال نائما فقلت لنفسي : « ذلك احسن » . لانني لم اكن ارغب في التحدث اليه .

هبطت دون ان انتظر المصعد . « يجب ان اسرع » . في الشارع ادركت انني ذاهبة الى خالد . لقد نسيته في اللحظة التي غادرته فيها البارحة . لم يكن بيننا موعد في حقيقة الامر ، بل نظر الي وقال انه لن يغادر البيت غدا ـ اليوم ـ قبل الحادية عشرة صباحا ، تاركا لي لاقرر ان كنت سوف اجيء اليه .

اوقفت اول عربة اجرة وطلبت من السائق ان يسرع . وكنت خلال ذلك افكر انني ربما احتاج الى شهر للانتهاء من الرسالة ، وشهر اخر لمراجعتها وطباعتها ومراجعتها مرة اخرى . وسوف اكون معيدة في الجامعة ، وان ذلك سوف يحقق دخلا مناسبا بعد تطبيق الكادر الجديد في الجامعات . لم توقفت العربة فوجئت . وحاسبت السائق ودخلت باب العمارة وانا في حالة دوار . امام شقته ادركت بشكل مبهم انني ارتكبت خطأ . لم اكن في حقيقة الامر اشعر برغبة في رؤيته ، كما انني كنت ابتذل نفسي عندما اجيء الى مكان لا ينتظرني : انني ازور رجلا ضاجعني وهو ينصحني ان ابتعد عنه .

فتح لي خالد الباب فانهى ترددي .
ـ «عزة ، اهلا ..»
مجيئي قد اسعده دون شك .
لم يكن ذلك الحكيم ، التعس ، المأساوي الذي كانه البارحة .

تحدث بلا انقطاع ولم استطع ان اتابع اكثر ما يقول . ولكنه سعيد ، هذا ما لا شــك فيه . والثاني مرة اخرى ذلــك الشعور باننا نقف على خشبة المسرح ، فكانت خطواتي محسوبة ، احاول ان ارضي الجمهور . كنــت في الوقت ذاته انا المخرج والجمهور والناقد .

كان يقول انه لا يدري ماذا حدث له ولكنه اكتشف انه راغب فــي العمل . لقد اخذ يكتب . لقد كتب . وفكرت ان معنى ذلك انني غيرت مسار حياته ــ هكذا يفعل الحب . في هذه الحالة من المفروض ان اعبــر عــن فرحــي .

قلت انني سعيدة ، ثم اضفت بعد تردد :

ــ « بتكتب ايه ؟»

لتابع صوته وانا لا اصغي ، وافكــر ان الجمل يجب ان تكون قصيرة حتى لا يضجــر المتفرجون . تغيرت نغمة صوته . كانت اشبه البكاء ،وهو يقول : هذه السنين الثلاث كانت موتا ، موتا حقيقيــا . سمعت نفسي اقول انها ، هذه السنوات الثلاث ، كانت موتــا بالنسبة لي ايضــا . وفكرت ان علينــا الا نطيل فقــد اتضح الموقف للجمهور بمــا فيه الكفاية، وخاصة وهو يكرر كلمة « عزة » دون انقطاع . قال ان ذلــك يجب الا يحدث مرة اخرى يا عزة . « عزة ، سامعاني ؟ لازم ده ما يحصلش تانــي ابدا . .» او شيئــا كهذا . قلت لنفسي : « كيف ؟ وما هذا الذي حدث ويجب الا يحدث مرة ثانية ؟ » قلت له ، لا ، لن يحدث ، لن يحدث . وانا اتأملــه وافكــر : ايــن انا ؟ لا أكاد اعرفه . قال :

ــ « عزة . . . »

عزة ، عزة ، كان ذلــك لن ينتهــي ابدا . قال :

ــ « عزة ، سامعاني ؟»

ــ « سامعاك . .»

ــ « لازم نتجوز . .»

قلت لنفسي : « بالطبع يجب ان يتزوجا » . قلت :

ــ « ايوه . طبعا » .

وكان ينظــر الي بذهول . « ما الذي اصابه ؟ سوف يفسد كــل شيء ، كل شيء . استمر ! » ثم اجتاحني الدوار واخذت اهبط والاشياء تدور ، وهو ، زئبقي ، مترجرج فــي وسطهــا يبتعد ويدنو ، ثم يبتعد . قلت :

ــ « خالــد . . »

جلست محاولة ان ارى بوضوح .

ــ « عزة ، عزة .. »
كان يناديني .
ــ « فيه ايه ؟ مالك ؟ »
ثم « عزة ، عزة ...»
قلت :
ــ « يعني احنا يا عادل ، يعني يا خالد .. »
توقف الدوار وهو في وسطه علامة سؤال . لم استطع ان اضيف شيئا . قال :
ــ « حا اعمل لك قهوة »
وفكرت انها ذلك المذاق المر . وانصرف . كنت ميتة من الداخل، عاجزة عن التفكير . تقمصت الاشياء المحيطة بي ، فاحسست بجسدي كتلة مستطيلة ، مصمتة ، فائضة عن الحاجة ، اقحمت على نظام المكان. لم افكر ، للحظة واحدة ، في الموقف الذي انا فيه ، وظللت هكذا اشعر بأن الزمن متوقف ، وان هنالك اشياء تقرر بشاني ليس لي ان اتدخل فيها . جاء خالد بالقهوة .
قلت :
ــ « خالد ... »
وضع القهوة امامي ، واخذ فنجانه وجلس في الطرف الاخر من الحجرة مواجها لي . قلت :
ــ « خالد ، عايز اقول لك حاجه .. » .
وانتظر ، وانتظرت ان اقول شيئا فلم اجد عندي ما اقوله .
قال بعد قليل :
ــ « انا فاهم يا عزة ...»
ــ « فاهم ايه ؟ »
كنت بالفعل اريد ان اعرف ولهذا سالت بلهفة . اعدت عليه السؤال:
ــ « فاهم ايه ؟ »
قال بهدوء شديد :
ــ « مبارح كنتي في السرير ميته ، وده خلاني مجرد انسان عايز يعمل جنس » .
كنت انظر اليه واقول لنفسي : « لقد كان يعلم اذا » . اضاف بعد قليل :
ــ « النهار ده ، انتي زي المنومه . لكني كنت طول الوقت باخدع نفسي » .

قلت :

ـ « ايـوه .»

والتقت عيناه بعيني . قال :

ـ « ما بتحبنيش ، مش كده ؟ »

ـ « مش عارفه » .

قـال :

ـ « من مبارح لغاية النهار ده ما كانش فيه اي احساس بالنسبة لي؟ كره ؟ حب ؟ . . »

هززت راسي نفيـا .

ـ « كنتي بتفكري فيا ازاي ؟»

قلت :

ـ « نسيتك خالص . »

قـال :

ـ « ايوه »

ثم اشار الى القهوة ، وقال :

ـ « اشربي القهوة قبل ما تبرد . »

واخذت اشرب القهوة . قال :

ـ « طيب ، جيتي ليه ؟ »

ـ « مش عارفه » .

وواصلت شرب القهوة . قال :

ـ « يعني ، يعني ... ايه يعني الافكار او الاحاسيس اللـي كانت جواكي واللي خلتك تيجي ؟ »

ـ « ما كنتش بفكر خالص . »

ـ « طيب ، كـان ايه احساسك واحنا بنعمل جنس مبارح ؟ »

ـ « كنت عايزه اضحك . »

صمت قليلا ، ثم قال :

ـ « عايزه نخرج نقعد في حته بره ؟ »

ـ « لا . »

قال بضـيق :

ـ « امال عايزه ايه ؟ »

ـ « نقعد هنا . »

استقام جسده وقال بلهجة قاطعة :

ـ « عايزه نبقى اصدقاء ؟ »

ـ « لا ، عايزه نتجوز . »

قال وهـو يحرك يديه بعصبية :

ـ « عزة ... »

ثم توقف واشعل سيجارة قدمها لي واشعل سيجارة اخرى له،وقال:

ـ « اسمعي يا عزة ، من المؤكـد ان واحد منـا مجنون ، او اننا في حلم . او كابوس ... »

ـ « ممكـن . »

ثم صمتنا .

انتهيت من قهوتي . كان خالد ينظر الي باندهاش . ولم اعد ادري ماذا افعل الآن . شعرت فجاة بخفـة غريبة ، اشبه برغبة جارفـة فـي الرقص ، وكان ذلك اقوى مني ، فنهضت ، فرفع وجهه نحـوي متسائلا . لم اكـن ادري ما الذي قررت ان افعله ولكنني سرت نحوه وجلست علـى مسند الكنبة التي يجلس عليهـا . اشتقت ان المسه ، فقبلت شعره ودفنت وجهي فيه فصعدت الرغبة في داخلي ، فاخذت اقبله واضمه ، ومع كل حركـة كنت اشعر بالرضى ، وفي الوقت ذاته تنفتح لهفـة لا ترتوي. واخذ ذلـك يتصاعد دون توقف .

ـ « خالـد ! »

كان صوتي غريبا علي .

نهض ليستطع مواجهتي فتعلقت به . كنت اشعر انني سوف افقده، انه سوف يتلاشى مني لو ارخيته لمدة ثانية واحدة . التصقت به ، وكان احساسي بجسده ويداه تنسابان على ظهري اكثر مما اطيق .

ـ « يا لله بينا يا حبيبي ».

قلت ذلك بضراعة لم يكـن يتطلبها الموقف ، ودفعته الى الخلف فاخذ يسير متراجعـا نحو حجرة النوم .

كان للسـرير ملمسا اليفا ، احسسـت به يبث معرفة مختزنـة فـي جسـدي فيحدد خطواتـي .

قال خالـد :

ـ « عزة ، انا مش فاهم . »

وكان صوته خشنا ، مختنقا . قلت :

ـ « اسكت ، اسكت ، ما تتكلمش . »

واوقفت كلامه بقبلاتي .

ارتفع جسده فاصبح وجهي في نحره . ابتعد قليـلا واخذ ينظـر الـي وقـال :

ـ « مزة ... »

قلت :

ـ « عارفه ، اسكت ، اسكت . »

قــال :

ـ « مزة ؟ مش عايزه تضحكي ؟ »

قلت بحدة :

ـ « لا ، لا ، انت مجنون ؟»

كان الرغبة تنفجر في داخلي في توق لا يرويه شيء ، وكــان ذلك الالتحام جميــلا ومدهشا .

تمت

الثمن ١٥ ل.ل. او مايعادلها